

باركلي

المحاورات الثلاث
بين هيلاس وفيلونوس

ترجمة وتقديم: يحيى هويدي
تقديم هذه الطبعة: محمد مدين

2103

جاءت هذه الترجمة عن الطبعة الثالثة التي ظهرت للكتاب عام 1734، والتي عدّل فيها باركلي تعديلات طفيفة، وأصدرها مع الطبعة الأخيرة لكتاب "المبادئ" في مجلد واحد، ومعها التصدير الذي كتبه باركلي فيما بعد، بنشرة جورج سامبسون لمؤلفات باركلي عام 1897.

تُعتبر "المحاورات" أول كتاب يختار باركلي فيه طريقة الحوار للتعبير عن أفكاره الفلسفية، وهي طريقة أسهل من العرض المذهبي الذي اتبعه في كتاب "المبادئ"، فاستطاع أن يجمع الاعتراضات التي كانت قد أثيرت حول مذهبه كما نشره في "المبادئ" ويقوم بتفنيدها واحداً بعد الآخر.

باركلي

المحاورات الثلاث

بين هيلاس وفيلونوس

ترجمة وتقديم: يحيى هويدي

تقديم هذه الطبعة: محمد مدين

2103

تصميم الغلاف: رحاب حسن

المحاورات الثلاث

بين هيلاس وفيلونوس

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2103
- المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس
- باركلى
- يحيى هويدى
- محمد مدين
- 2015

هذه ترجمة كتاب:

Three Dialogues Between Hylas and Philonous
By: George Berkeley

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

المحاورات الثلاث
بين هيلاس وفيلونوس

تأليف: باركلي

ترجمة وتقديم: يحيى هويدي

تقديم هذه الطبعة:

محمد مدين



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

باركلى، چورچ، ١٦٨٥ - ١٧٥٣ .
المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس/تأليف باركلى؛ ترجمة وتقديم: يحيى هويدى، تقديم هذه الطبعة: محمد مدين.
القاهرة - المركز القومى للترجمة؛ ٢٠١٥
٢١٦ص؛ ٢٤سم
١ - الفلسفة - مذاهب.
(أ) هويدى، يحيى (مترجم ومقدم)
(ب) مدين، محمد (كاتب التقديم)
(جـ) العنوان ١٤٠

رقم الإيداع / ٢٠١٥/٥٥٤٣
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-92-0178-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقديم هذه الطبعة

مضى ربع قرن أو يزيد منذ نشر ترجمة الكتاب الذى نُقدم له، وهو المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس "Three Dialogues Between Hylas and Philonous" لجورج باركلى والذى نُشر فى ١٧١٣.

وقد نهض بترجمته أستاذنا الجليل الدكتور "يحيى هويدى"، ومن ثم فإن "المركز القومى للترجمة" قد أحسن صنعًا بإعادة طبع هذا الكتاب الذى إن لم يكن قد نفد بالفعل فقد يكون من الصعوبة بمكان، إن لم يكن من المستحيل فى كثير من الأحيان، العثور على نسخ منه سواء فى المكتبات العامة أو الخاصة على السواء.

ويتميز الكتاب بأهمية كبيرة؛ فهو يعرض للمثالية **idealism** فى صورة "حوارية درامية" أخاذة ومثيرة؛ "فباركلى" يدافع فى محاوراته عن المذهب المثالى ضد المذهب المادى، والمذهبان يتقاسمان فى معظم الأحيان الخريطة الفلسفية.

وفيلسوفنا يُعد واحدًا من الفلاسفة العظام فى الفلسفة الحديثة، فقد كان ناقدًا حصيفًا لأسلافه وفى مقدمتهم "ديكارت" و"مالبرانش" و"لوك". وكان "باركلى" ميتافيزيقيا موهوبًا ذاعت شهرته لدفاعه الرصين عن المثالية التى ترى أن الوجود يوجد حصريًا فى الأذهان وما تحويه من أفكارٍ وصور.

وقد نشر "باركلى" فى **1710** أى قبل المحاورات بثلاث سنوات، كتابه عن "رسالة فى مبادئ المعرفة الإنسانية" **Treatise concerning the principles of Human**

Knowledge وتأتى أهمية "المحاورات" لأنَّها أكثر ثراءً من "الرسـالة"؛ فهـى تزخـر، مقارنة بالرسالة بالأمثلة الإرشادية والتوضيحية؛ فقد كان هدفها الأساسى هو "الـرد على الانتقادات التى وجهت إلى الرسالة".

والعملان كُتبا بأسلوب أدبى رشيق وأخاذ مصحوب بالحجج الرصينة التـى أثارت إعجاب الفلاسفة المحدثين والمعاصرين على السـواء. بالإضـافة إلـى أن "باركلى" كان يتمتع باهتمامات واسعة وفى مقدمتها اهتمامـه بالـدين الـذى يُعـد المحرك الأساسى لدوافعه الفلسفية، كما أنَّه كان شديد الاهتمام بسيكولوجيا الإبصار والرياضة والفيزياء والأخلاق والاقتصاد والطب.

ويُقدم "باركلى" فى محاوراته مثاليته التى تؤكد على أن الإدراك يُوجد لـيس فى الموضوعات المدركة ذاتها إنما فى أفكارنا وأذهاننا. فلا يُوجد مـن ثـمَّ أيـة موضوعات مادية. ويؤكد "باركلى" اعتمادًا على ذلك، أن مثاليته تؤدى إلى "التأليه" و"الإيمان بوجود الله" وذلك خلافًا للمادية التى تؤدى، فيما يـرى، إلـى "الـشكية" و"الإلحاد".

وقد نجح "باركلى" فى تأسيس الارتباط بين "الإدراك" و"الوجود" فباسـتخدامه للحوار الذى عقده بين "هيلاس" ممثل المادية و"فيلونوس" الذى يُعبر عن "بـاركلى"، يكون "باركلى" قد وضع "معايير" للوجود الخارجى؛ فقد احتـل موضـوع الأشـياء الحسية مفتتح الحوارات، وذلك عندما أكدَّ "فيلونوس" على "الإدراك المباشر" باعتباره العامل المحدِّد للمعرفة. فكل الكيفيات القابلة لأن تكون موضوعًا للإدراك إنما تنـتج عن إدراكنا لها فى العالم الطبيعى الخارجى "البرانى"؛ فعندما نزيل هـذه الإدراكـات من أذهاننا لن يكون لهذه الأشياء المحسوسة أدنى وجود. فإن الموضـوعات القابلـة للإحساس يجب أن تنتهى إلى مجرد "حزمة من الإدراكات فى الذهن". وعلـى ذلـك

ينبغى أن يكون هناك تمييز مهم بين "الأشياء الموجودة" من جهة و"الأشياء التى ندركها" وذلك من جهة أخرى.

ويُعبر "باركلى" من خلال "فيلونوس" عن هذه الفكرة بوضوح عندما يسأل "هيلاس" عما يقصده بالأشياء المحسوسة؟؟ وعندما يجيبه "هيلاس" بأنه لا يفهم السؤال ينبرى "فيلونوس" للإجابة عنه قائلا: "عند قراءة كتاب، فإن ما أدركه مباشرة هو الحروف ولكنى أدراك إدراكًا غير مباشر أو بمعونة هذه الحروف المعانى التى تثيرها فى ذهنى كلمات مثل الله والفضيلة والصدق. فليس هناك ثمة شك فى أنَّ الحروف أشياء يمكن إدركها حسيًا.. ولكنى أود أن أعرف ما إذا كنت تنظر إلى المعانى التى تثيرها هذه الكلمات نفس النظرة؟" [المحاورات صفحة 33]

ويُوجه "فيلونوس" إلى "هيلاس" السؤال المتعلق بإدراك الأشياء ونحن نورد الحوار الذى دار بين الاثنين لأهميته:

فيلونوس: هل هذه الأشياء الخارجية تدرك بالحواس أم بواسطة ملكة أخرى؟

فيجيبه هيلاس بأنَّها تدرك بالحواس.

فيلونوس: كيف؟ هل هناك شيء يدرك بالحس ومع ذلك فهو غير مدرك إدراكًا مباشرا؟

هيلاس: أجل يا فيلونوس. هناك شيء من هذا القبيل. فعندما أنظر فى صورة أو تمثال يوليوس قيصر. فمن الجائز أن أقول إننى أدرك يوليوس قيصر عن طريق الحواس، ومع ذلك فإن إدراكى له ليس إدراكًا مباشرًا.

فيلونوس: يبدو، إذن، أنك تنظر إلى أفكارنا، وهى وحدها المدركة إدراكًا مباشرًا، على أنَّها "صور" أو "نسخ" لأشياء خارجية وسيقال عن هذه الأشياء الخارجية أنَّها تُدرك بالحواس فى حال وجود شبه بينها وبين أفكارنا.

هيـــلاس: هذا هو المعنى الذى قصدت إليه.

فيلونوس: وعلى هذا النحو يُقال إننى أدرك يوليوس قيصر بالحس على الــرغم من أنَّه نفسه ليس أمامى، ومعنى ذلــك أن الأشـــياء الواقعيـــة غيــر المدركة فى حد ذاتها، تُدرك أو قابلة لأن تدرك بالحس.

هيـــلاس: تمامًا

فيلونوس: قل لى يا هيلاس. إذن عندما تمسك صورة يوليوس قيصر هل تــرى بعينيك شيئا أكثر من بعض الألوان والأشكال المتناســقة فيمـــا بينهـــا والتى تؤلف كلاً منسجمًا؟ وإذا أحضرنا شخصا آخر لا يعرف شــيئا مطلقا عن يوليوس قيصر فهل سيرى فى صورته أقل مما تراه أنت أم أنَّه سيرى ماتراه؟... ومن ثم فهو يتمتــع بملكـــة إبـــصار ويُحـــسن استخدامها بنفس الدرجة التى تتمتع بها أنـــتَ وتُحـــسن اســـتخدامها.. فكيف يا هيلاس تزعم أن ماتراه يـــدل عنـــدك علـــى الإمبراطـــور الرومانى وأن ما يراه لا يدل على ذلك؟ إن هذا لا يمكن أن ينتج مـــن مجرد الإحساسات أو الصور الحسية التى تدركها أنت كمـــا يـــدركها هو، ما دمت قد سلمت بأنَّك لا تفوقه فى هذا بل لابد أن مصدر هـــذا الاختلاف فى الإدراك هو العقل أو الذاكرة التى تقول لك إن هذا هـــو "يوليوس قيصر" ولا تقول له هذا؟؟

ويطالبنا "باركلى" فى هذا الحوار بضرورة التمييز بـــين مـــا ندركه بالحواس، وبين ما نستدله من ذلـــك الإدراك بالعقـــل والذاكرة، مما يعنى فى النهاية أننا نـــدرك فحـــسب أفكارنـــا

وتصوراتنا. ففى البدء كانت الفكرة أو الصورة وفى النهاية أيضًا كانت الفكرة أو الصورة.

[المحاورات صفحة 87]

ولكن إذا كانت الموضوعات المادية لا وجود لها، وما نزال قادرين على إدراك "كيفيات حسية"، فإن السؤال الذى ينبغى طرحه هنا، فمن أين إذن تأتى هذه الكيفيات الحسية؟ وهنا تتمثل الحجة الأساسية لمثالية باركلى. فالأفكار لابد وأن تأتى من مصدر ما. ويقينا فهى لا تأتى من الموضوعات المادية، وذلك لأن هذه ليست موجودة. كما أننا لا نتخيل وجودها، وذلك لأنها تنتج عن إدراكنا الحقيقى. وعلى ذلك ينبغى أن تأتى من مصدر مختلف، وهذا المصدر بالنسبة لباركلى هو "الله" God.

وتُعد هذه الفكرة من الأفكار الأكثر فعالية فى تدعيم مثالية باركلى باعتبارها نظرية تؤدى إلى "الإيمان بوجود الله" فكل شىء ندركه إنما يأتى من قبل الله وليس من مصدر آخر. وإذا ما أقدم امرؤ ووضع هذه البديهية موضع تساؤل فإنه ينزلق مباشرة إلى النزعة "الشكية" التى اعتبرها "باركلى" المأزق الكبير الذى يواجه المادية. فباستبعاده لأى تصور يزعم أن تلك الأفكار تأتى من موضوعات موجودة فى العالم الطبيعى يكون أمامنا إمكانية مغايرة لتفسير هذه الأفكار. بالإضافة إلى أن "قدرة أذهاننا" بُدون مُعين قوى لإمدادنا بوجود هذه الأفكار، فنحن لا نتمتع بما يكفى من القوة التى يُمكنها تزويدنا بهذه الأفكار، ومن ثم ينبغى أن يكون هناك "كائن يتمتع بالقوة الأعظم" هو الذى يزودنا بها، وهذا الكائن القدير بالنسبة لباركلى هو الله، فالله هنا هو "الخالق" وهو "المانح" للأفكار الموجودة فى أذهاننا.

ولما كان "باركلى" يُؤكد على أن المثالية هى "الطريق المستقيم" المؤدى إلى إثبات وجود الله فإنه ينظر، من ثمَّ، إلى "المادية" على أنَّها ليست هى "الأسلوب المناسب" لتفسير وجود الله؛ فطريق المادية "مسدود" وينتهى بها إلى "الشكية" و"الإلحاد"، والمثالية مُتحررة تماما من هذه الشكية". حيث لا يوجد سبب منطقى لوجود هذا الشك.

فقد كان "باركلى" مهتما بالشك الذى يمكن أن ينتاب الشخص حول ما إذا كانت الموضوعات المادية موجودة بالفعل أم لا، وهى مشكلة المذهب المادى، ولأن المثالية قد انكرت ضمنيًا وجود الموضوعات المادية، فلا وجود لمبرر منطقى أو معرفى حتى لتطبيق الشكية: فلا يمكننى الشك فى أن الزهرة موجودة، وذلك لأننى أعرف يقينًا أنها ليست موجودة. بالإضافة إلى أن "باركلى" قد انتهى إلى أن "المادية" تنتهى إلى "الإلحاد".

فالمثالى يعرف وباليقين أن كل الأفكار مصدرها الوحيد هو "الله" الذى يُحيط بكل فكرة موجودة. فكل فكرة لدينا عن أى شىء هى أفكار ينبغى أن يكون الله هو "مالكها" و"مانحها". فالله ليس فحسب موجودا وإنما هو "العالم" و"العليم" والمانح للأفكار والصور. ولأن الفيلسوف المادى يؤمن بوجود الموضوعات المادية فهو يثير الشك حول معتقداته **Beliefs**، فإذا كان الموضوع المادى الذى أطلق عليه، مثلا، اسم "زهرة" موضوعًا حقيقيًّا، فإن وجود الله يفتقد الأهمية على نحو كلى وذلك بالقدر الذى نكف فيه عن الاعتقاد بصدق المثالية: فالمادية تؤدى إلى الشكية، أعنى الشك فى الوجود الفعلى للأشياء المادية، وتنتهى الشكية إلى الإلحاد، إذ كيف نعزو الإدراك المطلق لله إذا كان الموضوع المادى هو الذى يمتلك كل الكيفيات التى منها نؤلف الأفكار والصور ونوجدها فى أذهاننا.

وهكذا يمكننا أن نرد المحاور الأساسية التى استند إليها "باركلى" فى هجومه على المادية إلى خمسة محاور وهى:

- أنَّها تتناقض مع الأشياء التى يؤمن بها كل إنسان يتمتع بالمعقولية، فهى تتناقض مع "الحس المشترك".
- أنَّها غير مدعمة بأى دليل، ومن ثمَّ فهى لا تستطيع تفسير أى شىء.
- أنَّها "متهافتة" ولا يمكن البرهنة عليها.
- أنَّها قاصرة من جهة المعنى والمفهوم والتصور.
- أنها تؤدى إلى الشكية والإلحاد.

مكانة "باركلى" فى تاريخ الفلسفة:

- نشر "باركلى" كتابه "رسالة فى مبادئ المعرفة الإنسانية" **1710 Treatise concerning the principles of Human Knowledge** قبل نشر "آرثر كولير" **Arthur Collier** لكتابه **Calvis Universalis (1713)** وهو الكتاب الذى تظهر فيه الكثير من الحجج التى أوردها "باركلى" فى رسالته.

- وقد كتب "آرثر شوبنهور" "أن باركلى هو أول فيلسوف يناقش فى فلسفته وعلى نحوٍ جاد مفهوم "الذاتية" **Subjectivity**، ويجعل منه نقطة الانطلاق فى كل فلسفته، فـ "باركلى" أبو المثالية. كما يُنظر إليه على أنه

"المتحدث الأعظم" باسم التجريبية الإنجليزية، كما أنه أثر على كثير من الفلاسفة المحدثين وعلى رأسهم "ديفيد هيوم وكانط". فكما يؤكد "هوايتهد" "أن فلسفة باركلى جعلت فلسفة كل من هيوم وكانط ممكنة". كما أنَّ بعض النقاد، مثل "جوناثان بنيت" **Jonathan Bennett** يقيم توازيًا بين "باركلى" و"إدموند هوسرل" **Edmund Husserl**.

- وفى المئوية الثانية ١٩٥٣ لوفاة "باركلى" ١٧٥٣ قام "ماريو بونج" **Mario Bunge** تكريمًا لباركلى وتقديرًا لعبقريته، بنشر ما أطلق عليه "محاورات جديدة بين هيلاس وفيلونوس" **New Dialogues Between Hylas and Philonous** وهو يتبنى فيها موقف "هيلاس" بهدف محاولة نقد موقف "فيلونوس" الذى يمثل فلسفة "باركلى".

ومن الطريف ونحن نختم هذه المقدمة أن نُشير إلى أن هناك من يرى أن "المحاورات" كانت المصدر الذى استهلم منه "سويفت" **Swift** رحلات "جليفر" **Guilliver**، كما فى مقال "هارى موريس" **Harry C. Morris** عن "محاورات هيلاس وفيلونوس باعتبارها مصدرًا لرحلات جليفر" **1955 The Dialogues of Hylas and Philonous as a source in Gulliver's Travels** ويستشهد "هارى موريس" بما ورد فى كتاب"هارولد ويليامز" **Harold Williams** عن "مكتبة العميد سويفت **Dean Swift's Library 1932** حيث أكد على أن محاورات "باركلى" كانت ضمن مكتبة "سويفت"، بالإضافة إلى ما وجده على هذه المحاورات من تعليقات: "أن الأعمال الميتافيزيقية الوحيدة التى كانت فى مكتبة "سويفت" كانت أعمال "باركلى" ومن بينها المحاورات وأيضا نظرية الإبصار".

ويستشهد "هارى موريس" بالحوار الذى دار بين "هيلاس" و"فيلونوس"، فبعد أن توجه "فيلونوس" بسؤال "هيلاس" عما إذا كان يعتقد أن جميـــع الحيوانـــات قـــد زوجت بالحواس لحفظ وجودها وتحقيق سعادتها، أم أنَّ الإنسان هو وحـــده الـــذى زُود بها لتحقيق هذا الغرض؟، "المحاورات صفحة 59" وعندما تلقـــى "فيلونـــوس" إجابة "هيلاس": بأنه لاشك فى أن الحواس تؤدى عند جميـــع الحيوانـــات المهمـــة نفسها؛ بادره بالسؤال عن "ما إذا كان من الضرورى أن يكون أول ما تقـــوم بـــه الحيوانات هو أن تستخدم حواسها فى إدراك أعضائها وفى رؤية الأجسام التى قـــد تؤذيها لتتفاداها؟ "المحاورات صفحة 60"

ويستطرد "فيلونوس" بقوله:

> **"إن الحشرة البسيطة التى ندعوها بالعتة Amite يجب أن نفترض أنها قادرة على رؤية أقدامها وما شابه ذلك من أعضائها بل حتى الأشياء الأقل حجما من ذلك، ومع ذلك فإننا لا نستطيع تمييز هذه الأشياء إلا نادرا، وفى أحسن الظروف نستطيع أن نقارن أحجامها بالنقط البسيطة.. وبالنسبة إلى الكائنات الأقل حجما مـــن حـــشرة العتة فإن هذه الأشياء التى تبدو لنا شبيهة فى حجمهـــا بالنقطـــة البسيطة تبدو أمامها أكبر حجما من ذلك.... وهكـــذا فـــإن مـــا لا نستطيع تمييز حجمه إلا بصعوبة قد يبدو فى نظر حيوان صـــغير آخر وكأنه يشبه الجبل فى حجمه "المحاورات 60".**

محمد مدين

الفهرس

مقدمة

حياة باركلى ومؤلفاته

ولد باركلى فى كيلين Killenn فى ١٢ مارس ١٦٨٥ ودخل كلية التثليث فى دبلن عام ١٧٠٠ ، أى فى سن ١٥ ، وجه عنايته منذ البداية إلى معارضة ميتافيزيقا لوك ، والأفكار الرياضية والطبيعية عند نيوتن والمفكرين الأحرار عن الدين . كتب « يومياته » Commonplace Book بين عامى ١٧٠٥ — ١٧٠٧ أى عندما وافقت سنه العشرين . وفيه يحدد لنا موقفه على هذا النحو : « كنت أنحاز بطبيعى إلى ماورد فى الكتاب المقدس وكان متفقاً مع الرأى الشائع . وفى كل شىء كنت أقف إلى جانب العامة . وأنا أعلم أن هناك عدداً كبيراً من الناس لن يعجبهم هذا الموقف منى ومع ذلك فإننى أتوقع أن تساندنى جميع هذه العقول التى لم يرهقها العلم ويفسدها جنون البحث » .

أصبح قسيساً رسمياً عام ١٧٠٩ وكان إذ ذاك يبلغ من العمر ٢٤ عاما . وفى هذا العام نفسه كتب أول كتاب فلسفى له وهو « نحو نظرية جديدة فى الإبصار An Essay Towards a new theory of vision ، وقد أثبت باركلى فى هذا الكتاب أن رؤية الإنسان للمسافة أو رؤيته للأشياء التى على بعد لا تتوقف على حاسة البصر . وهذا مقدمة لرأيه فى إلغاء الوجود الخارجى للأشياء .

ثم أتبع هذا عام ١٧١٠ بكتابه الرئيسى «رسالة فى مبادىء لمعرفة البشرية»
A Treatise Concerning The principles of Human Knowledge
وفى هذا الكتاب قدم باركلى مذهبه الفلسفى الكامل، وعرضه عرضاً مذهبياً واضحاً. ففى المقدمة تناول نقد الأفكار المجردة ثم شرع بعد ذلك فى القضاء على الجوهر المادى وأرجع كل ما فى الكون إلى الصور ... الخ.

وفى عام ١٧١٢ قدم للعالم المسيحى كتابه «الخضوع السلبى» passive obedience أو المذهب المسيحى الذى يعلمنا كيف نرضخ للقوة العليا التى تتجلى فيما يسمى «بقوانين الطبيعة».

وفى عام ١٧١٣ قدم عرضاً طريفاً لمذهبه الفلسفى، على طريقة المحاورات وذلك فى «ثلاث محاورات بين هيلاس وفيلونوس Three Dialogues between Hylas and philonus» وفى هذا الكتاب يدور الحوار بين هيلاس المادى وفيلونوس اللامادى (وهو باركلى نفسه). وفى المحاورة الأولى أرجع باركلى جميع صفات المادة من ثانوية وأساسية إلى الذات. وفى الثانية قضى على كل مبررات وجود الجوهر المادى. وفى الثالثة سلم بوجود جوهر روحى (وهو النفس) وعالج طريقة معرفتنا للنفس والصلة بين الله ومخلوقاته ومشكلة الخلق. الخ.

وهكذا فإنه ما كاد باركلى أن يصل إلى سن ٢٨ حتى كان قدم للعالم مؤلفاته الفلسفية الرئيسية. ومؤلفاته التى جاءت بعد ذلك كانت قليلة ليس لها من الأهمية ما لمؤلفاته الأولى.

وفى يناير ١٧١٣ كان باركلى قد سئم حياته الجامعية فى مدينة دبلن فرحل إلى لندن، ومعه مسودات «المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس» ليطبع الكتاب هناك وليتصل بالوسط الإنجليزى فى العاصمة. فتقدم إلى البلاط وعرفه

الساسة والوزراء واستطاع أن يحصل على وظيفة واعظ كنيسة أحد اللوردات وهو لورد بيتر بورو Peter borough وأخذ بعد ذلك نجمه فى الظهور ، نتيجة لتعرفه بأعضـــاء حزب المحافظين ولمساعدة كاتبين شهيرين له هما : اديسون Addison وسويفت Swift .

ولكن سرعان ما أحس باركلى بحاجته إلى الإبتعاد عن المجتمع الانجليزى الفاسد . ففكر جديا فى السفر إلى الخارج واستطاع خلال السنوات ١٨١٦-١٧٢٠ أن يزور فرنسا وإيطاليا وصقلية بمعونة أحد الأثرياء الذى كان باركلى يعمل مدرساً خاصاً لولده . وعاد إلى انجلترا فى أواخر عام ١٧٢٠ مزوداً بمعلومات وخبرات كثيرة تتعلق بالناس والبلاد التى زارها . مما يظهر أثره واضحاً فى الرسالة التى كتبها بعد عودته وهى « رسالة فى المحافظة على بريطانيا العظمى .

Essay Towards The prevention of the Ruin of Great Britain
وهى رسالة تهم كل باحث فى الإصلاح الاجتماعى .

وما لبث باركلى أن ترك لندن وعاد إلى بلده الأصلى دبلن عام ١٧٢١ . وأخرج فى نفس العام رسالته «فى الحركة De Motu , Concerning Motion . وفيها يعود باركلى إلى مهاجمة التجريد والأفكار المجردة ، ويعارض وجود حركة مجردة ويذهب إلى ان الحركة نسبية ولا تفهم إلا بالقياس إلى جسم متحرك . وما لبث أن عينه أحد اللوردات مشرفا على كنيستين وما يتبعهما من الأرض .

وكان من المعقول أن يستقر باركلى فى حياته الجديدة بعد أن كان قد أمضى قرابة أربعة أعوام مطوفاً ببلاد أوربا . ولكن إدراكه لما وصلت إليه بريطانيا من فساد فى ذلك الحين جعله يفكر فى السفر إلى أمريكا . وأعلن عزمه على هذا بين دهشة أصدقائه ومعارضيه ، وكان السفر إلى أمريكا فى ذاك الوقت قد أصبح يستحوذ على اهتمام الناس لأنها كانت تمثل فى نظرهم بلاداً فتية شابة تبشر بالخير

والسعادة واتجهة تفكير باركلى إلى السفر إلى جزيرة برمودا ليقوم بتعليم الأمريكين الأخلاق والتخلى عن الأغراض الذاتية والتمسك بالقيم ليمنعهم بذلك من التردى فى هاوية الفساد التى تردى فيها الأوربيون . وكان باركلى يعلق على شباب العالم الجديد آمالا كبارا فى نهضة الإنسانية جمعاء . فعقد العزم إذن على السفر على رأس بعثة إلى هذه الجزيرة التى اختارها لتكون أشبه بالمدينة الفاضلة ليبشر فيها بتعاليمه الأخلاقية والدينية وسط قبائل الهنود الحمر ، السكان الأصليين لها . وما لبث أن حصل على موافقة حكومته بمنحه ٢٠,٠٠٠ جنيهاً لتنفيذ مهمته .

وبالفعل ما أقبل سبتمبر من عام ١٧٢٨ حتى ارتحل من بريطانيا مع زوجته الجديدة على رأس البعثة متجهاً إلى برمودا ولكنه لم يصلها أبداً . ذلك أنه توقف فى جزيرة رودس ، بعد أن أخذت أحلامه فى تحقيق مهمته تتبخر شيئاً فشيئاً ، وبعد أن انتظر عبثا وصول المنحة التى كانت قد وافقت حكومته على منحها له وقدرها ٢٠,٠٠٠ جنيهاً استرلينياً . ولم يجد باركلى مناصاً آخر الأمر من العودة إلى أوربا فوصلها فى فبراير ١٧٣٢ بعد أن فشل مشروعه .

ولكن مشروعه لم يفشل تماماً ؛ ذلك أنه من خلال الفترة التى أمضاها فى جزيرة رودس استطاع أن ينتهى من تحرير كتاب جديد هو : « السيفرون أو الفليسوف الصغير Alciphron or the Minute philosopher » وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٨٣٢ . ويشتمل على سبع محاورات كلها نقد ضد من سموا أنفسهم بالمفكرين الأحرار وعلى رأسهم شافتسبرى وكولينز ونستطيع أن ننظر إلى الكتاب كله على أنه دفاع عن الدين المسيحى ومحاولة لإرساء الأخلاق على مبادىء من الدين . والمحاورة الرابعة هى أهم هذه المحاورات السبع فى نظرنا ، لأن باركلى يبحث فيها وجود الله وطبيعته وينتهى إلى أن الطبيعة رموز فى رموز وإلى أن الله يتحدث إلينا عن طريق هذه الرموز .

وفى عام ١٧٣٣ نشر باركلى كتابا آخر هو : «دفاع وشرح لنظرية الإبصار». وهذا الكتاب من أهم كتب باركلى الفلسفية . لأنه يقيم فيه البرهنة على وجود الله - كما أقامه فى المحاورة الرابعة من السيفرون - على اللغة البصرية الرمزية . وفيه كذلك رد على مزاعم من يدعون أنفسهم بالمفكرين الأحرار .

وفى عام ١٧٣٤ ، عين فى منصب خطير هو رئيس أساقفه كلوين cloyne بتأثير كارولين زوجة الملك جورج الثانى ، تلك المرأة التى كانت تجد متعة كبيرة فى الاستماع إلى آراء باركلى الفلسفية وفى المشاركة فى كثير من التيارات الأدبية والفلسفية فى عصرها . وقد أمضى باركلى فى منصبه هذا قرابة ثمانية عشر عاما أمضاها باركلى فى سكون وعزلة ، وليس فيها بالتالى ما يستحق الذكر .

ومع ذلك فإن باركلى نشر عام ١٧٣٥ — ١٧٣٧ كتابه «جواب السائل الذى يتعرض فيه لإصلاح وطنه الأصلى أيرلندا من الناحيتين الاجتماعية والأخلاقية .

وبعد ذلك ، مضى باركلى فى كتاباته الإصلاحية واتجه إلى معاونة ليس فقط أبناء وطنه أيرلنده ، بل أبناء الحى الذى كان يسكن فيه . وكان ذلك فى شتاء ١٧٣٩-١٧٤٠ البرد القارس الذى تبعته المجاعة الشهيرة التى إجتاحت الجزر البريطانية وولدت الأمراض فى أثرها . فأراد باركلى أن يقدم دواء لمواطنيه . فلم يجد خيراً من «ماء القار» حيث كان يعتقد بصلاحيته فى علاج الأمراض ، بعد أن رأى فوائده عند بعض سكان جزر المحيط ، أثناء رحلته إلى أمريكا . وأخذ منه جرعات لنفسه ، ولأطفاله ، ولجيرانه ، وكتب فى فوائده .

وفى هذه الأثناء نشر عام ١٧٤٤ آخر مؤلفاته وهو «الحلقات Siris» وهو كتاب يبدأ بتعداد الأمراض التى يمكن لماء القطران أن يشفى منها وفى تعداد فوائد ماء القطران كعلاج ، وفى تركيبه وبعد أن تحدث باركلى فى الطبيعة

والكيمياء هرج على الميتافيزيقا ، فالدين فى الجزء الفلسفى من كتابه ، وهو الجزء الذى يهمنا ويبدأ من الفقرة ٢٩٩ تقريباً . ويلاحظ فى هذا الجزء تأثر باركلى بالقدماء وخاصة بأفلاطون .

وفى ١٤ من يناير ١٧٥٣ قضى باركلى نحبه وهو جالس وسط عائلته جلسة عادية بعد أن خلف وراءه ثورة فلسفية هائلة وأصبح يدعى بحق لسببها بأبى المثالية .

تقديم المحاورات*

(للمترجم)

« المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس » أول كتاب نشره باركلى بعد انتقاله من أيرلندا ، وطنه الأصلى ، إلى لندن . وكان ذلك عام ١٧١٣ . وقد ظهرت طبعة ثانية للمحاورات عام ١٧٢٥ . أما الطبعة الثالثة التى ظهرت عام ١٧٣٤ ، فقد عدل فيها باركلى تعديلات طفيفة ، وأصدرها مع الطبعة الأخيرة لكتاب « المبادىء » فى مجلد واحد . وهذه الطبعة الثالثة للمحاورات هى التى نقدمها للقارىء العربى ، بالإضافة التصدير الذى كتبه باركلى فيما بعد إليها . ونحن نقلنا عن الأصل الإنجليزى الذى نشره جورج سامبسون Ceorge Sampson

* هذه المحاورات الثلاث لباركلى يدور الحديث فيها بين شخصيتين هما : هيلاس وفيلونوس . وهذان الإسمان قد اقتبسهما باركلى من اليونانية ليدل بكل منهما على الإتجاه الفلسفى الذى يدين به كل منهما : فهيلاس إسم مقتبس من « هيلو » باليونانية وهى الهيولى أو المادة ومعنى ذلك أن هيلاس سيكون إذن الفيلسوف المادى الذى يؤمن بوجود مستقل للمادة باعتبارها قائمة خارج الذهن ومستقلة عن مجرد الإحساس الذاتى بها . أما فيلونوس فهو اسم مقتبس من « فيلو » ومعناها « محبة » وهى تكون الشطر الأول من كلمة « فيلوسوفيا » أى محبة الحكمة أو الفلسفة . ومعنى ذلك أن فيلونوس سيكون إذن الفيلسوف بالمعنى الذى يريده باركلى من مثاليته الذاتية المنوط به مهاجمة آراء الماديين التى يمثلها هيلاس .

لمؤلفات باركلى عام ١٨٩٧ فى ثلاثه أجزاء تمثل المحاورات الجزء الأول منها وقد اخترنا هذه الطبعة لأنها لاحقة على طبعة فريزر A. C. Fraser التى نشرت عام ١٨٧١ ولأنها جاءت أكثر كمالا منها .

« والمحاورات » أول كتاب يختار باركلى فيـــه طريقة الحوار للتعبير عن أفكاره الفلسفية . وهى طريقة أكـثر سهولة من العرض المذهبى الذى تلتق به فى كتاب « المبادىء » من ناحية واستطاع باركلى عن طريقها من ناحية أخرى أن يجمع الإعتراضات التى كانت قد أثيرت حول مذهبه كما نشره فى « المبادىء » ويقوم بتفنيدها واحدا بعد الآخر .

وطريقه الحوار طريقة قديمة استخدمها أفلاطون فى شرح أفـكار أستاذه سقراط وفى شرح أفـكاره هو . ولـكن استخدام باركلى لطريقة الحوار فى كتاب « المحاورات الثلاث » لا يعنى مطلقا أنه كان متأثرا بأفلاطون عند كتابتها . ولم يظهر تأثر باركلى بأفلاطون حقاً إلا فى فترة متأخرة من حياته ، عندما عاود استخدام الحوار فى كتاب آخر له هو « السيفرون » أو « الفيلسوف الصغير » عام ١٧٣٢ فظهر حينئذ تأثره بأفلاطون ليس فقط فى صياغة الحوار وطريقة توجيه الأسئلة والإجابة عليها بل أيضاً فى الأفـكار الفلسفية نفسها ، مما سيتضح أثره أكثر وأكثر فى كتاب « الحلقات » .

ويدور الحوار فى المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس واختيـــار باركلى لهـذين الإسمين الوهميين لم يجىء عبثاً . فالإسم « هيلاس » قد اختـاره باركلى لأنه اشتقه من « هوليه » باليونانية ، ومعناها الهيولى أو المـادة وسيكون هيلاس مرادفا للفيلسوف المــادى الذى يدافع عن وجود المـادة . أما اسم فيلونوس فقـد اشتقه باركلى من المقطع الأول من كلمة « فيلوصوفيا » ومعنـاها فلسفة .

وسيكون اسم فيلونوس — عنده مرادفاً لإسم فيلسوف . وذلك لأن الفيلسوف عند باركلى لا يستحق هذا الإسم إلا إذا كان لا يؤمن بالمادة ، ويعارض فى وجودها . وهذا هو رأى باركلى نفسه فى وجود المادة . ومعنى ذلك أن فيلونوس سيكون هو الناطق بلسان باركلى نفسه المعبر عن أفكاره .

وللمحاورات عنوان فرعى نستطيع أن نستخلص منه الغرض من وراء كتابتها والموضوعات التى تناولتها . ممنه هذا العنوان الفرعى يتضح أن المحاورات بحث فى :

١ — حقيقه المعرفة الإنسانيه .

٢ — روحانيه النفس .

٣ — البرهنة على وجود عناية إلهية وجوداً مباشرا بيننا .

٤ — مهاجمة الشكاك والملاحدة .

٥ — إقامه منهج فى العلوم .

أما البحث فى حقيقة المعرفه الإنسانيه فيتسم عند باركلى بسمات أهمها :

(ا) أن المعرفه عند باركلى معرفة حسية ومعنى ذلك أن مثالية باركلى لا تؤمن إلا بالحواس كوسيله للمعرفة . وهى بذلك تخالف جميع المثاليات العقلية التى اتفقت فى أن تسند إلى العقل دورا رئيسيا يقوم على تنظيم الآثار الحسية . لا بل وهى تخالف بذلك أيضا التيار الذى ينتمى إليه فى الفلسفة الإنجليزية وهو التيار الذى بدأ بلوك وتوسطه هيوم وانتهى بباركلى نفسه ، فلوك يفرق بين الإدراك الحسى والتأمل العقلى ، وهيوم يفرق بين الأخريين الانطباعات الحسية والأفكار . حقا أن هذه التفرقه لم تكن فى صالح العقل لأن هيوم مثلا لم نظر إلى الأفكار إلا على أنها مجرد آثار حسية باهته . ولكنها كانت تفرقة على

أى حال . أما باركلى فلم يشر إلى الفكر أو إلى التفكير العقلى فى مؤلفاته الأولى وفى كتاب المحاورات بنوع خاص أية إشارة . اللهم إلا فى المحاوره الثالثه عند حديثه عن معرفة النفس أو معرفة الشخص لنفسه أو لجوهره الروحى . فهذه المعرفه تتم عن طريق الفكر أو عن طريق مايسميه باركلى باللمحة العقليه The notion .. ولكن الفكر هنا لا يلعب أى دور فى معرفتنا للعالم الخارجى بل يقتصر الدور الذى يقوم به على تأمل الذات أو معرفة النفس للنفس . ومعنى ذلك أن نظرية المعرفة التى يقدمها لنا باركلى نظرية ناقصة إذا قورنت بنظرية المعرفة التى يقدمها لنا فيلسوف آخر مثل كانت ، وهى النظرية التى تسند إلى فاعلية الذهن دوراً إيجابيا فى المعرفة .

(ب) أن وجود الأشياء عند باركلى محصور فى مجرد إدراكها الحسى أو معرفتها الحسية وهذا هو المبدأ الجديد الذى اشتهر به باركلى فى تاريخ الفلسفة وعبر عنه بقوله : وجود الشىء هو إدراكه .

ولكن عندما أراد باركلى أن يقيم الدليل على مبدئه هذا أثبت فقط أننا لاندرى من العالم أو الكون المحيط بنا إلا مانستطيع إدراكه منه وبواسطة الحواس .

ثم استنتج من هذا الدليل ليس فقط أنه لا وجود بالنسبه إلينا فى هذا العالم إلا لما ندركه بل إن جوهر هذا العالم أو ماهيته محصورة فى كونه مدركا . وهو استنتاج ينطوى على مبالغه . فقولنا إننا لا نعلم من الكون أو الأشياء إلا ماندركه منها فقط لا يؤدى إلى القول بأن وجود الكون أو وجود الأشياء محصور فى وجودها المدرك ، بل يؤدى فقط إلى أن نقول : إننا لا نستطيع — من ناحية المعرفة فقط — أن نعرف عن الأشياء إلا ماندركه منها . ومعنى ذلك أن مبدأ

باركلى الشهير ينطوى على انتقال غير مشروع من باب المعرفة إلى باب الوجود ويشتمل على تعميم ليس له مايبرره .

(ح) أن الأشياء عند باركلى لا تتمتع بوجود حقيقى دائم إلا من حيث أنها قائمة فى عقل الله ، أو فى العقل اللامتناهى . وهذه النقطة تمثل حجر الزاوية فى فلسفة باركلى كلها . فإهمال باركلى لفاعلية الفكر فى المعرفة واقتصاره على الإدراك الحسى كان مقصوداً . لأنه يرجع إلى أن باركلى كان يخشى إن هو جعل للتفكير العقلى دورا رئيسيا فى إدراك العالم أن يتوهم الإنسان أنه يسيطر على الكون بعقله هو الفردى المتناهى . من أجل ذلك ابتعد باركلى عن منطقة العقل لأنه كان يخشاها ويخشى ما قد تؤدى إليه من « تفكير حر » (وهو التفكير الذى كرس حياته لمهاجمته) ، واكتفى بأن حصر الإنسان فى ميدان الحس أو الإدراك الحسى . وذلك لأن الانسان فى هذا الميدان الأخير يشعر بأنه سلبى إلى حد كبير ، أو على الأقل بأنه أقل إيجابية وتوكيدا لذاته مما هو فى ميدان العقل ، ويشعر بأنه أمام « معطيات » . ولذلك فان عبارة باركلى الشهيرة : وجود الشىء قائم فى إدراكه الحسى كانت تعنى هذا فقط . أى أنها لا تحتمل أن نؤولها بأن : وجود الشىء هو إدراكه العقلى esse est intelligi مع أنها فى مثالية أخرى كمثالية كانت تحتمل بل وتستلزم هذا التأويل . وبذلك كان من السهل على باركلى أن يذهب إلى أن الذى يقدم هذه المعطيات إلى العقل الفردى هو العقل الإلهى أو اللامتناهى ، الحاضر فى الكون حضوراً مباشراً مستمراً (على نحو ماصنعرى فى المحاوره الثالثة) . وكان من السهل عليه كذلك أن يذهب إلى أن الأشياء الحسية ليست إلا رموزا ترمز إلى هذا الحضور الإلهى ، وإلى أن الآثار الحسية ليست الا اللغة الرمزية التى يتحدث بها الله إلينا ومن هنا تقوم الصعوبة الكبرى فى فلسفة

باركلى ، وهى الصعوبة التى تنشأ من عدم إمكاننا التوفيق بين فاعلية العقل المتناهى وفاعلية العقل اللامتناهى . فاذا كان وجود الأشياء قائما حقا فى مجرد إدراكها، كما ذهب باركلى ، فهل نفهم من الإدراك هنا أنه إدراكى أنا إدراك متقطع، يتعلق بلحظة الإدراك فقط . أما إدراك العقل اللامتناهى فهو إدراك مستمر دائم . ومعنى ذلك أن الأشياء تكون قائمة فى العقل الإلهى فى اللحظات التى أتوقف فيها أو تخلى فيها عن إدراكها بواسطة عقلى الفردى ، أو أن هذا العقل اللامتناهى يقوم بادراك الأشياء أثناء عدم إدراكى لها . ولكن المشكلة الكبرى قائمة فى أن هذا العقل اللامتناهى لا ينام ولا يكف عن الإدراك والفاعلية أبدا . وبالتالى فهو يقوم بادراك الأشياء ليس فقط عندما أتوقف أنا عن إدراكها ، بل أثناء إدراكى لها . ومعنى ذلك أنه فى نفس اللحظات التى يقوم فيها عقلى المتناهى بفاعليته فى عمليه الإدراك الحسى يقوم العقل اللامتناهى كذلك بفاعليته . هنا ويحق القارىء أن يتساءل : إلى أى حد ستكون فاعلية عقلى الفردى فاعلية أصيله؟ أو إلى أى حد لا تؤثر فاعليه العقل اللامتناهى فى فاعلية العقل المتناهى ولا تطغى عليها بحيث تبتلعها ابتلاعاً ؟ حقا ، إن من الجائز جدا أن تتصور تساوق نشاط العقل الفردى مع نشاط العقل الإلهى ولكن هذا لا يكون إلا إذا أسندنا إلى التفكير الذهنى دوراً رئيسياً فى المعرفة . أما وأن باركلى قد أهمل هذا النوع من التفكير ، وحصرنا فى ميدان التجربة الحسية المباشرة التى تشهد حضور الله بصفه دائمه مستمرة ومباشرة فسيكون الأمل بعد ذلك ضعيفا فى إمكانية التحدث عن فاعلية العقل الفردى ، باعتبارها أنها فاعلية أصيلة حقيقية .

تلك هى بعض الصعوبات التى رأينا أن نشير إليها فى هذا التقديم ، لتكون حاضرة فى ذهن القارىء عند قراءته للمحاورات أو لفلسفة باركلى بوجه عام .

وهى صعوبات تتعلق بالغرض الأول الذى ترى إليه المحاورات كما يتبين من عنوانها الفرعى ، ألا وهو . بيان حقيقة المعرفة الإنسانية .

وبيان حقيقة المعرفة الإنسانية من حيث أنها معرفة حسية ومن حيث أنها تحصر وجود الأشياء فى مجرد إدراكها الحس هو ما يتعرض له باركلى فى المحاورة الأولى فيقوم بإرجاع المادة إلى مجموعة من الصفات الحسية ، .

ويرجع هذه الصفات الحسية إلى مجرد تأثرات ذاتية ، غير مفرق فى ذلك بين الصفات الثانوية والصفات الأولية ، وينتهى من ذلك كله إلى أن الجوهر المادى أو المادة لا وجود له أو لها .

أما الفرض الثانى الذى قصد إليه باركلى من كتابة المحاورات كما يتضح لنا من العنوان الفرعى الذى وضعه للكتاب ، فهو البرهنة على روحانية النفس . وهذا مايقدمه لنا باركلى فى المحاورة الثالثة عندما يذهب إلى وجود جوهر روحانى ، نصل إلى معرفته عن طريق « اللمحة العقلية » .

والفرض الثالث يحدده لنا باركلى بقوله فى هذا العنوان الفرعى ، إنه كتب المحاورات من أجل البرهنة على وجود العناية الإلهية وجودا ومباشرا بيننا . وهذا مايقدمه لنا باركلى فى المحاورة الثانية ، عندما يبرهن على وجود الله ابتداء من وجود الأشياء المحسوسة واستنتاج ضرورة وجود عقل لا متناه يقومها ويدركها ويعرضها أمامى (وعندما يقرر كذلك أن الله هو علة جميع الأشياء ويرفض وجود المادة باعتبارها أداة ينفذ بها الله إرادته ، أو « مناسبة » تتجلى فيها قدرته لأن الله ليس فى حاجة إلى أى « مساعده » . ونلتقى كذلك بحديث باركلى عن الله فى المحاورة الثالثة عندما يقيم البرهنة على وجوده هذه المرة ابتداء من الفكر ، ومن النقص الذى يجده فى نفسه وفى الصور التى يكونها فى عقله الفردى . وليس ابتداء من الأشياء المحسوسة .

أما مهاجمة الشكاك — وهو الفرض الرابع الذى يرمى إليه باركلى من وراء كتابة المحاورات — فنلتقى به فى المحاورات الثلاث نفس المحاورتين الأولى والثانية ، يعترض هيلاس على فيلونوس بأن عدم إيمانه بوجود المادة سيؤدى إلى الشك فى وجود العالم ووجود جميع الأشياء التى يزخربها حينئذ يجيبه فيلونوس أن اعتقاده هو بوجود جواهر مادية هو الذى يؤدى إلى الشك لأن هذه الجواهر الماديه لاوجود لها فى الواقع ، أما ما يوجد فعلا فهو مجرد أحساسات ذاتية مدركة بالحواس . فالشك إذن مصدره الاعتقاد بوجود المادة ، لا العكس . ومهاجمة الماديين معناه مهاجمة الشكاك أنفسهم وفى المحاورة الثالثة يبين فيلونوس لهيلاس أنه يعتقد بوجود الأشياء وبقيامها فى الكون الواقعى كما يعتقد أى شخص آخر ، أى أنه لا يشك فى وجودها الواقعى كما يشك الشاك . وذلك لأنه لم يحول الأشياء إلى صور ، بل الأولى أن يقال أنه أحال الصور إلى أشياء . ومعنى ذلك أن الظواهر الحسية التى يرى فيها الفلاسفة الماديون مجرد « مظاهر » للماده ، وبالتالى يشكون فى حقيقتها الواقعة ، ينظر إليها فيلونوس أو باركلى على أنها أشياء حقيقيه . وهذا لا يؤدى إلى الشك بل على العكس من ذلك إلى الاعتقاد بوجود الأشياء المحسوسه وجوداً واقعيا . ومهاجمة الشكاك تحمل فى طياتها مهاجمة الملاحدة فى الوقت نفسه . لأن الاعتقاد بوجود الأشياء المحسوسه — لا الجواهر الماديه — هو اعتقاد بوجود إله يدركها فى اللحظات التى أتوقف فيها عن إدراكها بالعقل الفردى . أما الشك فى حقيقة هذه الأشياء المحسوسة فمعناه الشك فى وجود هذا الإله الذى تقوّم وجودها .

أما قول باركلى فى العنوان الفرعى الذى أعطاه لكتاب المحاورات بأنه يرمى كذلك من وراء كتابتها إلى قامة منهج فى العلوم يجعلها أكثر بساطة ونفعا واختزالا ، فنحن لا نلتقى فى المحاورات بمنهج تفصيلى على نحو ما نجده مثلا عند

ديكارت فى المقال فى المنهج الذى كتبة ديكارت « لحسن قياده العقل والبحث عن الحقيقة فى العلوم » والذى نلتقى فيه بقواعد تفصيلية للمنهج . ومن الجائز أن يكون باركلى قد أضاف هذا الفرض إلى العنوان الفرعى لمجرد الجرى وراء فلاسفة المنهج فى القرنين ١٦، ١٧ . ولكن باركلى قد يكون قصد إلى المنهج قصدا غير مباشر فاعتقاده بأن المادة تنحل فى نهاية الأمر إلى الإحساسات الذاتية وبأنه لا وجود لجوهر مادى خلف هذه الإحساسات ، من شأنه أن يوفر على العلماء مجهودا هائلا فى البحث فى طبائع خفية مستوره ، وهو بحث لاطائل له ، ولا نفع من ورائه . . فمن هذه الناحية نستطيع أن نقول إن باركلى قد قدم حقائق المحاورات منهجاً فى العلوم يجعلها أكثر بساطه ونفعا واختزالا .

* * *

هذا من ناحية الأغراض العامة لكتاب « المحاورات » . أما من ناحيه موضوع كل محاورة من هذه المحاورات على حده. فنستطيع أن نقول أن المحاورة الاولى بحث فى إرجاع جميع صفات المـــاده المحسوسة إلى الذات ، وفى حصر وجودها المادى فى مجرد وجودها المدرك بالحواس ، وبالتالى فهى بحث فى إلغاء وجودها الخارجى المستقل عن الذات، فالحرارة ،والبروده، والطعوم، والأصوات والألوان ليس لها وجود فى الأشياء المحسوسه بل فينا أحساساتنا الذاتية . هذا من ناحية الصفات الثانوية للمادة ، والأمر لا يختلف عن ذلك فيما يتعلق بصفاتها الاولية أو الأساسية ، مثل الامتداد والشكل والصلابة وحجة باركلى فى هذا أننا لا ندرك أية صفة من هذه الصفات الأولية مقترنه بالصفات الثانوية ، وذلك لأنه لا وجود لهذه الصفات الأوليه مجردة أو منفصلة عن الصفات الثانوية ، وبالتالى فإن ماينطبق على الصفات الثانوية ينطبق عليها . ويخلص باركلى من هذا كله إلى أنه لاوجود للجوهر المادى وإلى أن الصفات المحسوسة هى وحدها الموجودة من حيث أنها صفات معتمده على العقل .

وإذا كانت المحاورة الأولى بحثاً فى الصفات المحسوسة باعتبارها إحساسات ذاتيه ، فالمحاورة الثانية بحث فى البرهنة المباشرة على وجود الله ، وفى البرهنة على على أنه العلة الوحيدة لجميع الصور . وتشمل على تفرقه ظاهرة بين فلسفة باركلى وفلسفة فالبرانش الذى يرى فى المادة « مناسبة » أو « سبباً » بالمعنى الإسلامى يظهر فيه الله تأثيره على الكون . وفى المحاوره الثالثة يعود باركلى لمهاجمة « الجوهر المادى » ويقرر أن المادة هى مجموعة الصور المدركه حسيا ولا شىء وراء ذلك ويتحدث عن النفس وإدراكنا المباشر لوجودها ، ويتناول العلاقة بين العقل المتناهى والعقل اللامتناهى وهو فى هذا يدافع عن مذهبه اللامادى ويقرر أن الأشياء لم تفقد وجودها الواقعى فى مذهبه هذا ، وأنها ظلت هى هى الأشياء الواقعية التى خلقها الله تعالى .

المحاورات الثلاث

بين

هيلاس وفيلونوس

وترمى إلى إقامة البرهنة الواضحة على حقيقة المعرفة الإنسانية وكمالها ، وعلى روحانية النفس وعلى وجوداً عناية إلهية وجود مباشراً بيننا .

وذلك للرد على

الشكاك والملاحدة

وترمى كذلك إلى إقامة منهج فى العلوم يجعلها أكثر بساطة ونفعاً وإختزالا (١)

طبعت الطبعة الأولى عام ١٧١٣

---

(١) قارن بين هذا العنوان الفرعى « للمحاورات » وبين ماوضعه ديكارت من عناوين فرعية فى كتابه «التأملات» وفى « المقال فى المنهج » فالتأملات تأملات «فى الفلسفة الأولى وفيها الدليل الواضح على وجود الله والتفرقة الحقيقية بين نفس الإنسان وبدنه». والمقال فى المنهج كتبه ديكارت « لحسن قيادة العقل والبحث عن الحقيقه فى العلوم » .

فاتحـــة

تصدير

من المؤلف إلى القارىء :

غاية التأمل النظرى أن يؤدى إلى العمل وإلى تنظيم حياتنا وأفعالنا وإلى الانتقال بها إلى حالة أفضل : ذلك - فيما يبدو - هو الرأى المتفق عليه بين الناس بالاضافة إلى أنه يتمشى مع ما تقضى به الطبيعة وتوصى به العناية الإلهية . ومع ذلك فان ألصق الناس بالدراسات النظرية قد يرى غير هذا الرأى . والحق إننا إذا أدخلنا فى حسابنا جميع الصعوبات التى أثيرت حول أكثر الأشياء بساطة ، مثل عدم الثقة بالحواس ، وشكوك الشكاك وإشكالاتهم ومثل تلك التجريدات الدقيقة التى تعترض طريقنا فى أول اشتغالنا بالعلوم فلن نجد غرابة بعد ذلك فى إنصراف الرجال المتطلعين للبحث النظرى الذين يجدون من وقت فراغهم ما يسمح لهم بذلك إلى الخوض فى مسائل نظرية لا جدوى من ورائها دون أن يستطيعوا الاتجاه بتفكيرهم إلى الحياة العملية أو إلى معالجة موضوعات فى المعرفة تكون أكثر أهمية من تلك الموضوعات التى يجدون أنفسهم منساقين إلى الخوض فيها . فمن المبادىء الشائعة عند الفلاسفة مثلا أننا لا نستطيع التأكد من وجود الأشياء من مجرد كونها مدركة بالحواس . وبالتالى ، فهم يلزموننا باصطناع تفرقة بين طبيعة الأشياء الواقعية وبين طبيعتها التى تبدو لنا من خلال الحواس . ومن هنا تثار شكوك كثيرة قدمها لنا الشكاك وتجد الاشكالات مرتعا خصيبا لها . فهم يزعمون أنه لا يمكن أن نرى الشىء ، أو نحسه ، أو نتذوقه ونشمه لأن طبيعته الحقيقية

أو ماهيته المطلقة المستقلة عن كل هذه الاحساسات ستظل مع ذلك محجوبة عنا وهكذا فإن هذا المنطق سيؤدى بنا إلى أن ننظر إلى الشيء على أنه ذو حقيقة مستترة لا تستطيع جميع ملكاتنا وحواسنا أن تصل إليها ، مع أن الأشياء كلها ليست إلا من خلق عقولنا . وسيؤدى بنا هذا المنطق أيضا إلى القول بأن الحواس خداعة توقعنا فى الخطأ ، وبأن العقل سقيم يسوقنا إلى الزلل . وسنمضى حياتنا بعد ذلك فى الشك فى هذه الامور التى يعرفها جميع الناس معرفة واضحة وفى الإعتقاد بوجود حقائق مستترة للأشياء تثير ضحك الناس واحتقارهم معا .

ولكى نبعد العقل الإنسانى عن الخوض فى مثل هذه الامور التى لا جدوى من ورائها لم يكن ثمة بد من البحث عن مصدر كل هذا الخلط ومن السعى - إذا كان هذا ممكنا - إلى إقامة مجموعة من المبادىء التى تعتمد على مالها من بداهة طبيعية لتقدم لنا حلولا هينة ومخارج سهلة من كل هذا الخلط ، فيصدق العقل بها تصديقا حقيقيا ويمتنع بذلك عن الإنسياق فى سلسلة لا نهاية لها من الأخطاء . ودراسة هذه المبادىء مضافا اليها البرهنة الوافية على حضور العناية الإلهية حضورا مباشرا بيننا ، والبرهنة على خلود النفس خلودا طبيعيا ، كل هذا يبدو لنا على أنه خير تمهيد وأقوى حافز لدراسة الفضيلة وممارستها ممارسة عملية .

وقد سبق لى أن قمت بنفس هذه الدراسة فى الجزء الاول من رسالة طبعت ١٧١٠ وكان يدور موضوعها حول « مبادىء المعرفة الانسانية » لكن وجدت من اللازم على - قبل الشروع فى إخراج الجزء الثانى من هذه الرسالة ، أن أعالج بعض الأسس التى اهتديت اليها فى الجزء الاول معالجة اكثر إفاضة ووضوحا وان أعرضها عرضا جديدا . هذا هو موضوع هذه « هذه المحاورات » .

ومع ذلك فانى لا أتطلب من قارىء هذه « المحاورات » أن يبدأ بقراءة

محتويات الجزء الأول من « المبادىء » . فقد وضعت نصب عينى هنا أن أقدم الافكار إلى ذهن القارىء فى أبسط الصور واكثرها قربا إليه . خاصة وأنها تتعارض مع الافكار السابقة التى اعتاد الفلاسفة أن يقدموها لنا والتى قدر لها أن تنتشر ردحا طويلا وتتقوم على الافكار التى يعتقدها الناس بفطرتهم وادراكهم الطبيعى .

واذا ثبتت صحة الأسس والأفكار التى أعتزم الدعوة لها فى هذا الكتاب ـ فإن النتيجة الواضحة المباشرة لذلك ستكون ـ فيما أعتقد ـ تقويض الإلحاد والشك تقويضا تاماً ، وإيضاح كثير من النقط الغامضة ، وحل عدد كبير من المشاكل ، وطرح مسائل كثيرة فى العلوم لا فائدة من ورائها ، وإبتعادنا عن التجريد النظرى لنقترب من الواقع العملى ، وأخيرا تخلص البشرية من الإشكالات العقيمة ليتجهوا نحو فطرتهم العقليه السليمة .

وإذا كان من الجائز أن يشق على البعض ممن إعتادوا معالجة الأفكار العميقة التى تدق على فهم الجماهير أن يعودوا إلى التفكير كما يفكر الناس العاديون . فاننى لا أنظر شخصياً إلى هذه العودة بتلك البساطة التى تمليها علينا الطبيعة ـ بعد التطويف فى متاهات الفلسفة الموحشة ـ على أنها أمر بغيض إلى النفس بل هى عندى أشبه بعودة المرء إلى وطنه بعد رحلة طويلة ليتسنى له أن يتأمل بمزيد من الغبطة الصعوبات والمتاعب التى مر بها أثناء رحلته ويترك نفسه على سجيتها ويستمتع بتهيئة أموره للمستقبل .

ولما كنت قد أعتزمت إقناع الشكاك والمارقين بالحجة والعقل فقد أصبح لزاما على أن أراعى فى هذا الكتاب قوانين العقل الصارمة مراعاة تامة . وكلى أمل فى أن القارىء المحايد سيقتنع بأن الفكرة العلوية التى تقول بوجود إله ، وبأن الامل

العذب فى الخلود ينبعان حقا من العقل ومن تطبيق قوانينه تطبيقاً أمينا . أما هذا النوع من التفكير المهلهل الهائم الذى يطلق عليه - بغير قليل من الإنصاف - إسم التفكير الحر والذى يمارسه من يدعون بالمفكرين الأحرار، أولئك الذين يشفقون على أنفسهم من تحمل قيود التفكير المنطقى فضلا عن قيود الدين والدولة ، فلندعه جانبا غير حافلين به .

وقد يقول قائل إن مشروعك العقلى هذا - وإن كان سيؤدى إلى تخليص العقل من مسائل معقدة عديمة الجدوى - فإن تأثيره سيكون محصورا فى طائفة قليلة جدا من الأشخاص النظريين . وهذا حق ، ولكن إذا استخدم هؤلاء الأشخاص القليلون تفكيرهم النظرى استخداما صحيحا ، فإن دراسة الأخلاق وقوانين الطبيعة ستقدم فى صورة أخاذة تلائم العصر الذى نعيش فيه ليقبل عليها ذوو الفطنة والذكاء وستمحو أفكار الشكاك ومثبطى الهمم ، وستوضح فروقاً دقيقة بين الحق والباطل ، وسيستبدل بمبادىء الدين الطبيعى مبادىء دينية أكثر نظاما وصرامة كتلك التى نشاهدها معروضة بحذق ووضوح كاملين فى بعض العلوم الأخرى . ومن أجل ذلك فقد أكون على بعض الحق إذا نظرت إلى نتائج مشروعى نظرة أخرى . إذ سيؤدى ليس إلى إصلاح تدريجى للفضيلة التى تغير معناها اليوم فى هذا العالم تغيراً تاما ، بل إلى أن يتناول بعض الأشخاص الحذرين غير المأفونين أسرار الدين المقدسة التى تعجز عن إدراكها عقولنا البشرية تناول المتواضع البصير الذى يعرف حدوده ، وذلك فى الوقت الذى يوضحون لنا فيه أن بعض جوانب الدين أو الوحى الأخرى مما يستطيع الإنسان أن يخوض فيه تتفق تماما مع ما يقول به العقل الإنسانى الرشيد .

وبعد فقد بقى لى أن أطلب من القارىء أن يؤجل حكمه على هذه المحاورات ريثما تتم له قراءتها قراءة جيدة . وإلا فسينتهى به الأمر إلى أن يطرحها جانبا

ويخطىء فهم الغرض منها أو يضيق ذرعا بالصعوبات أو الاعتراضات التى سيلتقى بها فيما بعد على طول الكتاب . فلكى نفهم كتابا من هذا الطراز وتتبين الغرض من تأليفه ، والبراهين التى سيقت فيه ، وكيفية حله للمشاكل ، وعلاقة أجزائه المختلفة بعضها بالبعض الآخر ، علينا أن نقرأه قراءة كاملة متماسكة ، فى جلسة واحدة . فاذا رأينا أن الأمر يحتاج إلى قراءة ما فسيؤدى هذا فيما أعتقد إلى إيضاح المشروع كله إيضاحاً تاما ، خاصه إذا لجأ القارىء إلى «رسالة» كنت قد ألفتها منــــذ سنوات مضت عن « الإبصار » وإلى رسالة أخرى فى « مبادىء المعرفة البشرية » وسيجد القارىء فى هذه المحاورات أنى قد توسعت فى بعض الأفكار أو عرضتها فى ضوء جديد فى حين أنى قد مسست بعض الأفكار الأخرى مساً رفيقا لأنها لم تكن الا توكيداً وتوضيحاً للأفكار الأولى .

المحاورة الأولى

فيلونوس[1] : صباح الخير يا هيلاس . لم أكن أتوقع أن أجدك خارج غرفة نومك فى هذه الساعة المبكرة .

هيلاس : الحق أنه أمر غير عادى بالنسبة لى ولكن ذهنى كان مشغولا بموضوع تناولته بالحديث ليلة أمس . ولما أدركت أخيرا أنى لن أستطيع أن أنام عقدت العزم على النهوض من فراشى والتنزه فى الحديقة .

فيلونوس : حسنا فعلت فقد تهيأت لك بذلك فرصة الاستمتاع بمباهج الصباح التى تتصف بالطهر والجمال والتى كنت تجهلها فى الأيام الماضية .هل هناك أروع من وقت الصباح بين جميع أوقات النهار ، وهل هناك أبدع من هذا الفصل على مدار فصول السنة ؟ هذه السماء الأرجوانية هذه النغمات التى تطلقها الطيور فى عذوبة ، هذه البراعم العبقة من فوق الأشجار والأزهار ، هذا التأثير اللذيذ الذى لا يقاوم عند رؤيتنا للشمس المستيقظة ، هذه الوجوه المتعددة من جمال الطبيعة وآلاف غيرها لا يمكن التعبير عنها تلهم الروح وتنقلها إلى أجواء غامضة لأنها تكون فى هذا الوقت من النهار على جانب من البكارة والحيوية تهيئان الجو لهذه التأملات خاصة فى وحشة الحديقة وهدوئها ساعة الصباح . ولكنى أخشى أن أكون قد قطعت عليك بحديثى هذا حبل أفكارك ، فقد بديت لى مهموما بأمر ذى بال .

---

(1) هذه الأرقام وضعها المترجم ليفصل بين الفقرات .

هيلاس : الحق أنى كنت مهموما وأكون شاكراً لله لو سمحت لى باستئناف تفكيرى ولا أعنى بهذا مطلقا أن أنفصل عن صحبتك لأن أفكارى تتطلق بسهولة عن طريق محادثتى مع شخص آخر أكثر مما لو أنطويت على نفسى بها . وعلى ذلك فرجائى إليك أن تتحمل مشاركتى فى هذه الأفكار .

فيلونوس : بكل جوارحى ، فهذا ما كنت سأطلبه منك حتى لو منعتنى عنه .

هيلاس : كنت أفكر فى الاتجاه الغريب الذى يحمل بعض الناس من مختلف الأعمار على الإدعاء بأنهم لا يؤمنون بشىء على الإطلاق أو بأنهم يؤمنون بأشياء غريبة جدا وذلك ليتشدقوا بأنهم يمتازون عن الناس العاديين أو لأية فكرة عقيمة أخرى . وقد يكون هذا محتملا منهم إذا لم تؤدى شكوكهم ومغالطتهم إلى بعض النتائج البعيدة الأذى للجنس البشرى . وهذا هو موضع الخطورة فى أمرهم وذلك لأن الناس الذين لا يملكون من وقت فراغهم ما يملك هؤلاء القوم -وهم قوم قدر لهم ، أو افترض أنهم أمضوا كل وقتهم فى تعقب الحقيقة - أقول إن الناس عندما يرون هؤلاء القوم - يذهبون إلى إننا جاهلون جهلا تاما بكل شىء أو عندما يرونهم يدعون إلى أفكار تتنافى مع المبادىء البسيطة التى كانوا يسلمون بهـــا ، فانهم سوف يقدمون بشجاعة على إثارة الشكوك حول أكثر الحقائق أهمية ، تلك الحقائق التى كانوا ينظرون إليها حتى ذلك الحين على أنها حقـــائق مقدسة لا تقبل المناقشة .

فيلونوس : أوافقك تماما على اعتبارك هذا الاتجاه نحو إثارة شكوك مغرقة فى

الإدعاء من جانب بعض الفلاسفة نحو التمسك بأفكار واهمة من البعض الآخر على أنه إتجاه مريض . وقد ذهبت أخيرا شوطاً بعيداً فى دراسة هذا النوع من التفكير ولكننى طلقت كل هـذه الافكار الشعبية . وصدقنى حين أقول لك إنه منذ ثورتى على هذه الأفكار الميتافيزيقية واقترابى من الآراء الواضحة التى تمليها الطبيعة وتستلهم الإدراك السليم قد وجدت ذهنى وقد أشرق إشراقا غريباً بحيث اننى أستطيع الآن أن أدرك أشياء كثيرة كانت تتراءى لى من قبل على أنها أسرار وأحاجى .

هيلاس : وأنا بدورى مغتبط لخلو حديثك معى الآن من كل هذه الأفكار خلوا تاماً .

فيلونوس : ولكن بربك ما هى هذه الأفكار التى تشير إليها .

هيلاس : فى المحادثة التى تبودلت ليلة أمس قد صورروك أنت يافيلونوس على أنك أحد المدافعين عن فكرة معينة من أقوى الأفكار التى دخلت فى روع الناس وأعنى بذلك أنه لا وجود لما يسمى بالجوهر المادى فى هذا العالم .

فيلونوس : أنا مقتنع تماما بأنه لا وجود لشىء مما يطلق عليـه الفلاسفة إسم الجوهر المادى ، ولكن إذا استطـــاع شخص ما أن يبين لى بعض الخطأ فى اعتقادى هذا أو يشككنى فيه فسيكون لدىّ من الاسباب ما يدعونى لرفضه تماما كما أرفض الآن الفكرة المضادة له .

هيلاس : ماذا تقول ؟ هل هناك شىء أكثر إغراقا فى الخيال وبعداً عن الفكر السليم وأقرب إلى تفكير الشكاك من الاعتقاد بأنه لا وجود لشىء اسمه « المادة » ؟ .

فيلونوس : رويدا يا هيلاس ، أيها الطيب القلب ما عسى أن يكون رأيك لو
أنني أثبت لك أنكم عندما تدافعون عن وجود المادة أنما تكونون
أنتم بهذه الفكرة واست أنا الذي أنكر وجود المادة - من أكبر
أنصار الشكاك وأكثر الناس مغالطة وأبعدهم عن العقل السليم .

هيلاس : وقد يكون بوسعك أن تقنعني الآن مثلا بأن الجزء أكبر من الكل
وتقول لي أنك تفعل ذلك من أجل أن تبعدني عن المغالطة والشك .
ولكن لا شيء سيرغمني على تغيير رأيي حول هذه المسألة .

فيلونوس : حسن . أنت إذن مسرور بتمسكك بصحة هذه الفكرة وتذهب
إلى أنها ستبدو — إذا ماعرضت على بساط البحث على أنها أكثر
الافكار تمشيا مع العقل السليم وبعدا عن شك الشكاك .

هيلاس : بل مسرور بكل جوارحي . وإذا كنت هنا من أجل إثارة الشكوك
حول أبسط الاشياء فاكون سعيدا لو أسمعتني ماتريد أن تقول .

فيلونوس : هل لي أن أسألك ياهيلاس: ماذا تعني بقولك إن فلانا من الشكاك
هيلاس : أعني بهذا مايفهمه كل الناس منه : الشاك هو الشخص الذي يشك في
كل شيء .

فيلونوس : وعلى ذلك فإن من لا يتطرق الشك إلى عقله حول نقطة معينة فإنه
لا يمكن أن يعتبر شاكا تجاه هذه النقطة .

هيلاس : أوافقك.

فيلونوس : والآن هل الشك في مسألة ما يدور حـــول جانبها الإيجابي أو

السلبى (١) ؟ .

هيلاس : إنه لايتناول هذا أو ذاك لأن كل من أعلم اللغة (الإنجليزية) سيدرك إن الشك عبارة عن التوقف فى مسألة من المسائل بين الجانب الإيجابى والجانب السلبى.

فيلونوس : ومعنى ذلك أن الشخص الذى ينكر نقطة ما لايستطيع أن نقول عنه إنه يشك فيها أكثر مما لو كان يقرها أو يؤيدها بنفس الدرجة .

هيلاس : هذا حق.

فيلونوس : وتبعا لذلك فاننا لانستطيع أن نقول إن من ينكر فكرة ما شاك فيها أكثر من الشخص الذى يؤيدها .

هيلاس : أقر ذلك .

فيلونوس : كيف يتسنى لك بعد ذلك ياهيلاس أن تقول عنى إنى شاك لمجرد أننى أنكر ماتقر وجوده أنت ؟ وهو وجود المادة، وذلك لأن إنكارى لوجودها بحسب ماقلته لى — ليس بأقل توكيدا من إقرارك له .

هيلاس : الحق يافيلونوس إن تعريفى للشاك لم يكن دقيقا دقة كافية ، لكن يجب علينا أن لانلتفت كثيرا إلى أمثال هذه الأخطاء فى الحديث فقد ذكرت حقاً أن الشاك هو من يشك فى كل شىء ولكن كان علىّ

---

(١) تأييد الفكرة يتمثل فى الجانب الإيجابى، وإنكارها فى الجانب السلبى . والشك ليس تأييداً أو إنكاراً للفكرة .

أن أضيف إلى ذلك أن الشاك هو من ينكر حقيقة الأشياء واقعها(1).

فيلونوس : أى أشياء تتحدث عنها ؟ هل تقصد بذلك المبادىء العامة والنظريات العلمية ؟ ولكنك تعلم أن هذه المبادىء تمثل مجموعة من الأفكار العقلية العامة ، وبالتالى فهى مستقلة عن وجود المادة . وتبعا لذلك فان ماتتحدث عنه من إنكار لحقيقة الأشياء لا يمكن أن ينسحب على إنكار هذه المبادىء .

هيلاس : أوافق على ذلك. ولكن ألا توجد أشياء ، أخرى غير هذه المبادىء؟ مارأيك فى عدم الثقة بالحواس وفى إنكار الوجود على الأشياء الحسية وفى الإدعاء بأننا لانعرف شيئا منها ، أليس هذا سببا كافيا لندعو من يذهب إلى هذا كله بأنه شاك ؟ .

فيلونوس : هل تريد منى إذن أن نبحث معا من منا ينكر الحقيقة الواقعية للأشياء الحسية أو يعترف بجهله التام بها ، فالشاك عندك - إذا كنت قد فهمت عنك ما تقول ، هو هذا الذى ينكر هذه الحقيقة الواقعية للأشياء الحسية .

---

(1) ليس هذا التعريف متمشيا مع تعريف الشاك الذى اتفق عليه هيلاس وفيلونوس ، وهو أن الشاك لاينكر ولا يؤيد وجود الأشياء ، ولكنه بمثابة إعتراض من جانب هيلاس على النتيجة التى يريد فيلونوس أن يقوده إليها وهى أنه فى إنكاره (إنكار فيلونوس) للمادة ليس شاكا .وهو على حال فتح باب لمناقشة جديدة .

هيلاس : هذا ما أريده .

(٢) فيلونوس : ماذا تقصد بالأشياء المحسوسة ؟

هيلاس : اقصد هذه الأشياء التى تدرك عن طريق الحواس . هل يدور بخلدك أننى أقصد شيئا غير ذلك ؟

فيلونوس : معذرة ياهيلاس إذا رأيتنى حريصا على توضيح أفكارك فقد يفيدنا هذا فى عدم إطالة المناقشة . تحمل منى إذن سماع سؤال أخر . هل تدرك هذه الأشياء عن طريق الحواس مباشرة ؟ أم أنها تسمى أشياء محسوسة لأنها تدرك عن طريق الحواس إدراكا غير مباشر أو بواسطة أشياء أخرى ؟

هيلاس : أنا لا أفهم فكرتك هنا فهما كافيا .

فيلونوس : عندما أقرأ كتابا فان ما أدركه إدراكا مباشرا هو مجموعة الحروف، ولكننى أدراك فى الوقت نفسه إدراكا غير مباشر أو عن طريق هذه الحروف المعانى التى تثيرها فى ذهنى كلمات مثل الله والفضيلة والصدق . . فليس من شك فى أن حروف الكلمات أشياء حسية وتدرك بالحواس . ولكننى أريد أن أعرف إذا كنت تنظر إلى المعانى التى تثيرها هذه الكلمات نفس هذه النظرة .

هيلاس : كلا . بكل تأكيد . فمن سوء الفهم أن نعتبر الله أو الفضيلة أشياء حسية على الرغم من أنه قد يرمز إليها وتثيرها فى ذهنى رموز حسية تتصل بها إتصالا غير ضرورى .

فيلونوس : يبدو لى إذن أنك حينما تتحدث عن الأشياء المحسوسة، فإنك تقصد بها فقط الأشياء التى تدرك مباشرة بالحواس .

هيلاس : هذا صحيح .

فيلونوس : أليس يتبع هذا القول أنه إذا كنت أرى اللون الاخضر فى جانب من السماء واللون الازرق فى جانب آخر وأفطن إلى أن هذا الاختلاف فى اللون لابد وأن يكون راجعا إلى مصدر ما ، فإن هـذا المصدر لا يمكن أن يكون شيئاً حسيا أو شيئاً يدرك عن طريق حاسة الابصار ،

هيلاس : هو كذلك .

فيلونوس : وقياساً على هذا ، فإنه إذا كنت أسمع مجموعة متنوعة من الاصوات فى وقت واحد فانه لا يمكن ان يذهب أحد إلى أنى أسمع مصادر هذه الاصوات كنتيجة لسماعى الأصوات المتنوعة .

هيلاس : لا . هذا غير ممكن .

فيلونوس : وإذ أدركت كذلك عن طريق اللمس أن شيئا ما حار وثقيل فإننى لن أكون محقا أو منصفا إذا قلت تبعا لذلك أننى أحس بيدى فى الوقت نفسه مصدر الحرارة والثقل لهذا الشيء .

هيلاس : لكى تتفادى أسئلة أخرى من هذا القبيل فانى ألخص لك رأيى مرة واحدة بأن أقول إننى أقصد بالأشياء الحسية تلك الاشياء التى تدركها عن طريق الحواس أى ندركها إدراكا مباشرا عن طريق الحواس لان الحواس لاتدرك الأشياء الا ادراكا مباشراً ولانستطيع أن نقوم باستنباط إدراك من إدراك آخر . فإستنباط العلل والحقائق من الآثار والمظاهر الحسية التى من إختصاص الادراك الحسى وحده امر يتعلق بالعقل وحده .

فيلونوس : ها نحن قد التقت آراؤنا حول هذه النقطة وهى أن تعريف الأشياء المحسوسة هو أنها الأشياء التى تدرك إدراكا مباشراً عن طريق الحس .

[(٤) تابع فيلونوس]

هل لك أن تخبرنى بعد ذلك إذا كنا ندرك عن طريق البصر شيئا آخر غير إدراكنا المباشر للضوء والألوان والأشكال . أو عن طريق السمع شيئاً آخر غير الأصوات ، أو عن طريق اللسان ، شيئا آخر خلاف رائحتها ، أو عن طريق اللمس شيئاً وراء الصفات الملمسية .

هيلاس : لا .

فيلونوس : يبدو إذن أننا لو جردنا الأشياء من جميع صفاتها الحسية فلن يبق فيها شىء محسوس .

هيلاس : أسلم لك بهذا .

فيلونوس : ليست الأشياء المحسوسة إذن إلا مجموعة كثيرة من الصفات الحسية المنفصلة بعضها عن البعض الآخر أو المتشابكة .

هيلاس : ليست هى شيئاً غير ذلك .

فيلونوس : الحرارة إذن ليست إلا شيئاً محسوساً ؟ .

هيلاس : بكل تأكيد .

فيلونوس : هل حقيقة الأشياء المحسوسة قائمة فى كونها مدركة فقط ؟ أم أن لها حقيقة متميزة عن كونها مدركة وليس لها أية صلة بالعقل ؟

هيلاس : الوجود شىء ، والوجود المدرك شىء آخر .

فيلونوس : نحن نتحدث فقط عن الأشياء المحسوسة وأسألك عما إذا كنت تقصد بوجودها الواقعى وجودا خارجاً مستقلا عن العقل ومتميزا عن كونها مدركة ؟ .

هيلاس : هذا الوجود الواقعى للأشياء يعنى عندى وجودا مطلقاً واقعياً لا علاقة له بكونها مدركة ومتميزا عن ذلك .

فيلونوس : وعلى ذلك فإنه إذا كان للحرارة وجود واقعى فلابد أن لها وجودا مستقلا عن العقل

هيلاس : لابد أن تكون كذلك .

فيلونوس : أخبرنى إذن ياهيلاس . هل هذا الوجود الواقعى للحرارة ينطبق على جميع درجات الحرارة التى ندركها أم أن هناك مايدعونا إلى حصره فى بعضها دون البعض الاخر ؟ واسمح لى أن أعرف السبب الذى يدعونا إلى ذلك إذا كان هناك حقا ما يدعونا اليه ؟

هيلاس : أن أية درجة من درجات الحرارة ندركها عن طريق الحس لابد أنها توجد فى الشىء الذى تنبعث منه .

فيلونوس : ماذا تقول ؟ هل هذا « الشىء » يشتمل بالضرورة على جميع درجات الحرارة المنخفضة منها والمرتفعة .

هيلاس : أقول إنه إذا كان مايدعونا إلى الإعتقاد بوجود درجات الحرارة لايختلف من حالة إلى أخرى لأنه - بكل بساطة - قائم فى إدراكها عن طريق الحواس . فعلى الرغم من ذلك فإن درجات الحرارة المرتفعة تدرك بصورة ملموسة . وتبعاً لذلك فإذا كان ثمة فارق بين الحالتين فإنه قائم فى أننا نثق فى وجودها الواقعى أكثر من ثقتنا بوجود درجة الحرارة المنخفضة .

فيلونوس : ولكن أليست درجة الحرارة المرتفعة الشديدة تمثل مصدر ألم كبير لنا ؟ .

هيلاس : لا أحد يستطيع إنكار ذلك .

فيلونوس : والآن ، هل يستطيع شيء غير مدرك منا أن يكون مصدر ألم أو سرور لنا ؟ .

هيلاس : كلا . بكل تأكيد .

فيلونوس : هل جوهرك المادى شيء متجرد عن الإحساس أم شيء مزود بالحس والادراك ؟ .

هيلاس : لاشك أنه شيء متجرد عن الاحساس .

فيلونوس : وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون موضوعاً أو مصدراً للألم ؟ .

هيلاس : لايمكن .

فيلونوس : وتبعا لذلك فلا يمكن أيضا أن يكون موضوعاً لدرجة الحرارة المرتفعة التى تدرك عن طريق الحس ، مادمت قد أعترفت بان الألم الذى يتسبب عنها ليس ألما ضئيلا .

هيلاس : أسلم لك بذلك .

فيلونوس : بماذا عسى إذن أن تصف جوهرك الخارجى ؟ هل هو جوهر مادى أم لا ؟

هيلاس : هو جوهر مادى يحتوى فى داخله على الصفات المحسوسة .

فيلونوس : كيف يمكن إذن لدرجة الحرارة المرتفعة أن تقيم فيه ما دمت قد اعترفت بأنها لا توجد فى جوهر مادى ؟ بودى لو أنك أوضحت لى هذه النقطة .

هيلاس : أخشى ، أى فيلونوس ، أن أكون قد ارتكبت شططاً فى تسليمى معك بأن درجة الحرارة المرتفعة تمثل مصدر ألم . ويبدو لى الآن أن من الأفضل أن أنظر إلى الألم على أنه شيء منفصـــل عن الحرارة واعتبره مجرد أثر أو معلول لها .

فيلونوس : عندما تقترب بيدك من النار هل تشعر بإحساس واحد منسجم أم بإحساسين مختلفين ؟

هيلاس : لا أشعر إلا بإحساس واحد .

فيلونوس : ألسنا نحس بالحرارة إحساساً مباشراً ؟.

هيلاس : بلى .

فيلونوس : أليس إحساسنا بالألم إحساسا مباشراً أيضاً ؟ .

هيلاس : حقا .

فيلونوس : إذا كان إحساسنا بالحرارة وبالألم يتمان فى نفس اللحظة وبطريقة مباشرة وإذا كانت النار تؤثر فيك تأثيراً واحد وتقدم لك صورة حية بسيطة غير مركبة ، فينتج من ذلك أن هذه الصورة البسيطة الواحدة تتمثل فى الحرارة المرتفعة المدركة إدراكا مباشراً وفى الألم الذى تحدثه ، وتبعا لذلك فان درجة الحرارة المرتفعة المدركة إدراكا مباشرا ليست شيئاً آخر مختلفا عن نوع معين من الألم .

هيلاس : يبدو أن الأمر كذلك .

فيلونوس : حاول يا هيلاس مرة أخرى أن تتصور بينك وبين نفسك إحساسا قويا يكون خلوا من الإحساس بالألم أو السرور .

هيلاس : يتعذر على ذلك .

فيلونوس : وهل تستطيع أن تتصور صورة للألم الحسى أو السرور الحسى بوجه

عام مجردة من صورة الحرارة أو البرودة أو الطعم أو الرائحة . . . ؟
هيلاس : لا أجد أنى قادر على ذلك .
فيلونوس : ألا ينتج من هذا أن الألم الحسى ليس شيئا آخر مختلفا عن هذه الإحساسات أو الصور الحسية إذا كانت قوية .
هيلاس : لا أستطيع أن أنكر ذلك ، والحق أنى بدأت أشك أن الحرارة المرتفعة تستطيع أن توجد مستقلة عن عقل يدركها .
فيلونوس : ماذا تقول ؟ هل ما زلت بإزاء هذه الحقيقة فى حالة شك أو تعليق للحكم لا يسمح لك بتوكيدها أو إنكارها ؟
هيلاس : أعتقد أنى قد أصبحت أكثر توكيدا - بإزاء هذه النقطة - فالحرارة القاسية المؤلمة لا يمكن أن توجد إلا إذا كان ثمة عقل .
فيلونوس : ومعنى ذلك أنك لا تسلم لها بأى وجود واقعى ؟
هيلاس : أقر ذلك
فيلونوس : هل أصبحت على يقين من أنه لا وجود فى الطبيعة لشىء حار ذى حرارة واقعية ؟
هيلاس : أنا لم أنكر وجود حرارة واقعية فى الأجسام بوجه عام . بل ذهبت فقط إلى أنه لا وجود فيها لنوع معين من الحرارة هى الحرارة الشديدة .
فيلونوس : ولكن ، ألم تقل قبل ذلك بأن جميع درجات الحرارة على درجة متساوية من الوجود الواقعى ؟ بل ألم تذهب إلى أنه فى حالة وجود اختلاف بين درجات الحرارة فان درجة الحرارة المرتفعة هى التى تتمتع بوجود واقعى أكثر من درجة الحرارة المنخفضة ؟ .
هيلاس : هذا حق . ولكنى ذكرت ذلك لأنى لم أكن قد اكتشفت بعد

الأساس الذى تقوم عليه التفرقة بينهما . أما الآن فقد تبين لى ذلك بوضوح ، على النحو التالى : كان الإحساس بالحرارة المرتفعة ليس إلا مجرد صورة لإحساس آخر هو الإحساس بالألم . ولما كان يتعذر أن يوجد إحساس بالألم إلا إذا وجد شخص يدرك ، فالنتيجة لذلك أن الحرارة المرتفعة لا يمكن أن تكون قائمة فى جوهر جسمانى لا يتمتع بملكة الإدراك . ولكن هذا لا يبرر لنا أن ننكر قيام الحرارة ذات الدرجة المنخفضة فى مثل هذا الجوهر .

فيلونوس : ولكن كيف سيتسنى لنا أن نميز بين درجات الحرارة التى توجد فى العقل وتلك توجد خارج العقل مستقلة عنه ؟ .

هيلاس : هذا أمر هين . أنت تعرف أن الاحساس بالألم مهما كان ضئيلا لا يمكن أن يوجد إلا إذا وجد شخص مدرك . وتبعا لذلك . فمهما كانت ضآلة الألم الذى تسببه هذه الدرجة المعينة من الحرارة فإن هذا يدل على وجودها فى الذهن فقط . ولكن ليس هناك ما يضطرنا إلى هذا الاعتقاد بالنسبة إلى درجات الحرارة الأخرى .

فيلونوس . أعتقد أنك قد سلمت قبل ذلك بأن الأشياء التى لا تتمتع بالإدراك لا تستطيع بالتالى أن تحس بالسرور فضلا عن عدم إحساسها بالألم .

هيلاس : لقد سلمت بذلك حقا .

فيلونوس : ألست معى فى أن الدفء أو أية درجة حرارة لطيفة لا تبلغ مبلغ درجات الحرارة التى تثير الألم لابد أن تثير السرور .

هيلاس : كيف يكون الأمر خلاف ذلك .

فيلونوس : وبالتالى فإن هذا النوع من درجات الحرارة لا يمكن هو الآخر أن يوجد مستقلا عن العقل ولا يمكن أن يقوم فى جوهر أو جسم لا يتمتع بالإدراك

هيلاس: يبدو أن الأمر على هذا النحو .

فيلونوس : وإذا كانت درجات الحرارة غير المؤلمة شأنها فى ذلك شأن درجات الحرارة التى تثير الاحساس بالألم يمكن أن توجد مستقلة عن جوهر يفكر، الا نستطيع ان نستخلص من ذلك ان الأجسام الخارجية خالية تماماً من درجات الحرارة أيا كانت ؟

هيلاس : لنعيد التفكير مرة أخرى إذ أننى لا أعتقد أنه قد اتضح لدى تماما أن الدفء يؤدى إلى أحساس بالسرور حقا كما أتضح لى أن درجة الحرارة المرتفعة تؤدى إلى الإحساس بالألم .

فيلونوس : أنا لا أدعى أن الدفء يؤدى إلى إحساس بالسرور يبلغ فى وضوحه الإحساس بالألم الذى يترتب على درجة الحرارة المرتفعة . ولكن حتى لو سلمت لى بأنه يؤدى إلى سرور ضئيل ، فسيخدمنى تسليمك هذا جيداً فى إستخلاص النتيجة التى أريد الوصول أيها .

هيلاس : قد أدعو الإحساس الذى يترتب على الدفء بانه ضرب من الاسترخاء الكسولى . ولهذا فإنه ليس ألما أو سرورا . وهذه الصفة أو الحالة لتمشى مع حالات الجوهر غير المفكر . آمل ان توافقنى فى هذا .

فيلونوس : إذا كنت مصمما على إعتبار أن الدفء أو درجة الحرارة اللطيفة ليست إحساساً بالسرور فلا أدرى سبيلا إلى إقناعك بهذا أخيرا من أن أهيب بحسك . ماهى فكرتك عن البرودة مثلا ؟

هيلاس : هو نفس فكرتى عن الحراره فالبرد القارس ألم ، لاننى عندما أحس ببرد شديد فإننى أحس فى الوقت نفسه بشعور كبير بعدم الراحه . وربما لذلك فلا وجود له الا بالقياس إلى عقل يفكر أما البرد الخفيف شأنه فى ذلك شأنه الحرارة المنخفضة . فقد يوجد مستقلا عن العقل

فيلونوس : وتطبيقاً لفكرتك هذه فان تلك الأجسام التي نشعر بإزائها بحرارة معتدلة لابد تبعا لذلك أن تحتوى فى ذاتها على دفء أو على درجة معتدلة من الحرارة فى حين أن تلك التى نشعر بإزائها ببروده لابد أن تحتوى فى ذاتها على بروده .

هيلاس : لابد أن تكون كذلك .

فيلونوس : والآن هل نستطيع أن نصف أى مذهب بالصدق إذا قادنا إلى متناقضات ؟ .

هيلاس : ليس من شك فى أننا لانستطيع ذلك .

فيلونوس : أليس من التناقض أن تقول عن شىء واحد بعينه إنه لابد أن يكون فى نفس الوقت باردا ودافئا ؟

هيلاس : بلى .

فيلونوس : لنفترض الآن أن إحدى يديك دافئة والأخرى باردة وأنك قمت بوضعهما معا فى وعاء به ماء ذى درجة حرارة معتدلة ، ألن تبدو فى الماء بارده بالنسبة إلى إحدى اليدين دافئة بالنسبة إلى الأخرى ؟

هيلاس : بلى ستبدو كذلك .

فيلونوس : ألا تقودنا مبادؤك هذه إلى القول بأن الماء حار ودافء فى الآن نفسه ، الأمر الذى سلمت معى بأنه قول متناقض ؟

هيلاس : أعترف لك بأن الأمر يبدو كذلك .

فيلونوس : وتبعا لذلك ، فمبادؤك نفسها مبادىء خاطئة مادمت قد سلمت معى بأن المبدأ الصحيح لا يمكن أن يقودنا إلى متناقضات .

هيلاس : ولكن أليس ثمة قول — فى نهاية الأمر - أكثر تناقضا من أن نذهب إلى أن الحرارة ليست قائمة فى النار ؟

فيلونوس : لكن تتضح فكرتنا أكثر أخبرني ، أليس يجب علينا أن نطلق نفس الحكم إذا كنا بإزاء حالتين متشابهين تماماً ؟

هيلاس : بلى . يجب علينا .

فيلونوس : عند وخز الدبوس لإصبعك أليس يترتب على هذا تمزق الأنسجة المجاورة للحم وتقطعها ؟.

هيلاس : حقا .

فيلونوس : وعندما يحرق الفحم المشتعل إصبعك ، هل يترتب على هذا شيء خلاف ذلك؟

هيلاس : لا

فيلونوس : إذا كنت لا تحكم على الإحساس الذي يتم عن طريق الدبوس أو على أي أحساس شبيه به بأنه قائم في الدبوس ، فتبعا لما سلمت به الآن فإنه يجب عليك أن لا تحكم على الإحساس الذي يتم عن طريق النار بأنه قائم في النار .

هيلاس : حسنا ، إذا كان ذلك كذلك فإني مغتبط إذ أسلم لك بهذا وأقرر أن الحرارة أو البرودة ليست إحساسات قائمة في أذهاننا فقط ، ولكن مازال هناك كثير من الصفات التي تطمئننا على الوجود الواقعي للأشياء الخارجية .

(٥) فيلونوس : ولكن ماقولك ياهيلاس إذا أتضح أن الأمر بالنسبة إلى سائر الصفات الحسية الأخرى شبيه بالحرارة أو البرودة أي أننا لا يمكن أن نفترض وجودها مستقلة عن الذهن أكثر من إفتراضنا وجود الحرارة أو البرودة مستقلة عنه ؟ .

هيلاس : إذا تم لك ذلك فستكون قد خدمت موضوع المناقشة حقا . ولكنني يائس من قدرتك على إثبات هذا .

فيلونوس : دعنا إذن نبحثها بالترتيب. فما هي فكرتك عن الطعوم أو المذاقات، هل هي موجودة مستقلة عن العقل أم لا ؟

هيلاس : هل يستطيع أي إنسان أن يشك في أن السكر حلو المذاق أو في أن نبات الشيح مر المذاق ؟

هيلاس : إنه كذلك .

فيلونوس : ثم أليست المرارة ضربا من الشعور بعدم الارتياح أو الألم .

هيلاس : أسلم بذلك .

فيلونوس : إذا كان من الجائز أن نعد السكر ونبات الشيح جواهر جسمانية غير مفكرة موجودة في إستقلال عن العقل ، فكيف تنظر إذن إلى الحلاوة والمرارة أو بمعنى آخر ، إلى السرور والألم نفس هذه النظرة ؟

هيلاس : مهلا يا فيلونوس الآن فقط قد أدركت السر في تخبطي طوال هذا الوقت . لقد سألتني إذا كنت أنظر إلى الحرارة والبرودة ، والحلاوة والمرارة على أنها مجرد أنواع أو صور خاصة للسرور والألم . وقد أجبت على هذا بالإيجاب . ولكن كان على أن أميز بين شيئين فهذه الصفات الحسية باعتبار أنها مدركة منا ، تكون حقا أنواعاً من السرور والألم ، ولكنها ليست كذلك إذا نظرنا إلى وجودها في الأجسام الخارجية ، ومن أجل ذلك ، فيجب — إستنادا على حديثنا السابق — أن لا نطلق الحكم ونقول إنه لا وجود للحرارة في النار ، ولا وجود للحلاوة في السكر ، بل ينبغي أن نقول فقط إن الحرارة والحلاوة ، إذا نظرنا فقط إليها بإعتبار أنها مدركة منا ، لا وجود لها في النار أو السكر ، ما رأيك في هذا ؟

فيلونوس . رأيى أن هذا كله كلام يخرج بنا عن الموضوع . فقد كانت مناقشتنا تدور حول الأشياء المحسوسة التى عرفتها بقولك إنها هى الأشياء التى تدركها إدراكا مباشرا عن طريق الحواس . أما إذا تحدثت عن صفات أخرى مغايرة لتلك ، فإننى أقول لك إننى لا أعلم شيئا عنها . والحديث عنها يخرج بنا عن نقطة الخلاف[1]. حقا فلك أن تدعى أنك قد اكتشفت وجود بعض الصفات التى لا تدرك عن طريق الحس ، ولك أن تزعم أن هذه الصفات غير المحسوسة قائمة فى النار وفى السكر ولكن يتعذر على أن أستخلص الفائدة التى ستجنيها فى قضيتك من وراء ذلك . قل لى مرة أخرى : هل تقر بأن الحرارة والبرودة والحلاوة والمرارة (وأقصد بها هذه الصفات التى تدركها عن طريق الحس) لا وجود لها بدون عقل ؟

هيلاس : أرى أنه ليس من المصلحة فى شىء أن أجادل فى هذا بعد ذلك . وتبعا لذلك ، فانى أسلم بأنك قد ربحت القضية فيما يتعلق بهذه الصفات ومع ذلك كله فاننى أشعر بأن إدعاء القول أن السكر ليس حلو المذاق ، ادعاء غريب .

فيلونوس : ولكن من أجل إقناعك أكثر وأكثر ، إليك هذه الحجة . إذا كان شىء ما حلو المذاق عادة فانه إذا وضع فوق لسان شخص مريض فإنه سيبدو مرا . وليس هناك قول أوضح من أن تذهب إلى أن الاشخاص المختلفين يتذوقون نفس الطعام على أنحاء مختلفة لأنه ما يعجب أحدهم يثير نفور الآخر . وكيف يكون هذا القول صحيحا إذا كان الطعم شيئا قائما فى الطعام ؟

---

(١) هذه مغالطة كبيرة من جانب باركلى .

هيلاس : أقر بأننى لاأعرف سببا لذلك .

(٦) فيلونوس : لننظر بعد ذلك إلى الرائحة . وسأكون سعيدا لو علمت منك أن ما قلناه فيما يتعلق بالطعم ينسحب تماما عليها لأنه أليست الروائح إحساسات سارة أو منفرة ؟

هيلاس : بلى

فيلونوس : هل تستطيع بعد ذلك أن تتصور قيام الرائحة فى شىء لا يقوى على الإدراك ؟

هيلاس . لا . لا أستطيع .

فيلونوس . وهل تستطيع أن تتخيل الرائحة المنبعثة من القاذورات تؤثر على الحيوانات التى تعيش عليها بمحض إختيارها كما تؤثر فى أنوفنا نحن؟

هيلاس . ليس هناك مجال للمقارنة بين الحالتين .

فيلونوس . ألسنا نكون محقين إذا أستنتجنا من ذلك أن الرائحة ، شأنها فى ذلك شأن الصفات السالفة الذكر ، لا وجود لها إلا فى العقل أو الجوهر المدرك .

هيلاس . أظن ذلك .

(٧) فيلونوس . وفيما يتعلق بالأصوات ، ماذا ينبغى أن يكون تفكيرنا فيها ؛ هل هى أعراض قائمة فى الأجسام الخارجية أم لا ؟

هيلاس ، أما أنها ليست قائمة فى الأجسام الصوتية ، فهذا أمر يتضح من هذه الملاحظة ، وهى أن الجرس [1] لا يدق فى وعاء مفرغ من الهواء

---

(١) الجرس وهو جسم صوتى لا يدق دائما (فى الأجسام المفرغة من الهواء) وإذا كان لا يدق دائما فمعنى ذلك أن الصوت ليس قائما فيه .

أو فى الأنبوبة المفرغة (التى تستخدم فى البريد) . ومن أجل ذلك فإن الهواء يجب أن يكون موضوع الاصوات أو الموضوع الذى تقوم فيه الاصوات .

فيلونوس : ما حجتك فى هذا يا هيلاس ؟

هيلاس : ذلك لأنه إذا تحرك جسم فى الهواء فإن الصوت الذى نسمعه نتيجة لهذه الحركة تختلف درجة وضوحه ، قوة وانخفاضا ، تبعا لحركة الهواء . أما إذا كان الهواء مفرغا لايتحرك مطلقا فاننا لا نسمع أى صوت لحركات الاجسام .

فيلونوس : وإذا فرضنا جدلا أننا لانسمع الصوت إلا إذا كانت هناك حركة فى الهواء ، فإننى لا أستطيع أن أستخلص من هذا أن الصوت نفسه موجود أو قائم فى الهواء .

هيلاس : هذه الحركة القائمة فى الهواء الخارجى هى التى تؤدى إلى وجود الإحساس بالصوت فى الذهن وذلك لأنه عن طريق الإهتزازت التى تحدثها هذه الحركة فى الهواء وتنقلها أعصاب السمع إلى المخ فتصطدم بتجويف الأذن يقال إن هناك احساسا فى النفس يسمى صوتا .

فيلونوس : ماذا تقول ؟ هل الصوت إذن مجرد احساس ؟

هيلاس : عندى أن الصوت المدرك منا ليس إلا إحساسا خاصا فى الذهن .

فيلونوس : وهل من الممكن أن يوجد إحساس بدون ذهن .

هيلاس : لا . بالتأكيد .

فيلونوس : كيف يمكن إذن أن يوجد الصوت فى الهواء مع أنه ليس إلا احساسا ومع أنك تعنى بالهواء جوهرا غير محسوس يوجد فى استقلال عن الذهن .

هيلاس : عليك أن تفرق يا فيلونوس بين الصوت باعتباره مدركا منا والصوت كما هو فى ذاته أو — والمعنى واحد — بين الصوت الذى ندركه إدراكا مباشرا والصوت الذى يوجد مستقلا عنا . لأنه إذا كان الصوت الأول حقيقة مجرد نوع من الاحساس الذاتى ، فان الثانى ليس إلا عبارة عن حركة إهتزازية أو تموجية فى الهواء .

فيلونوس : أظن أننى قد حذرتك من هذه التفرقة سابقا عندما حاولت أن تقوم بها فى حالة مشابهة بحالة الأصوات . ولكن لنعد لمناقشة ذلك مرة أخرى على أن تكون هذه العودة بلا رجعة ، ودعنى أسألك : هل أنت واثق إذن من أن الصوت ليس إلا مجرد حركة ؟

هيلاس : نعم . أنا واثق من هذا . ..

فيلونوس : معنى ذلك أن كل ما يصدق على الأصوات الواقعية يصدق على الحركة .

هيلاس : نعم يصدق .

فيلونوس : وسنكون أيضا منطقيين مع أنفسنا حين نتحدث عن الحركة فنصفها أنها حركة مرتفعة ، موسيقية ، حادة ، أو عميقة .

هيلاس : أرى أنك مصمم على عدم فهم ما أقوله لك . أليس من الواضح أن هذه الصفات التى ذكرتها الآن لى لا تنطبق إلا على الأصوات المسموعة أو على الأصوات بمعناها المألوف ولكنها لا تنطبق أبدا على الأصوات بمعناها الواقعى الفلسفى ، أى الأصــوات باعتبارها مجرد حركة إهتزازية فى الهواء كما ذكرت لك هذا الآن ؟

فيلونوس : يبدو إذن أنك تذهب إلى وجود نوعين من الأصوات : الأصوات

بمعناها الشائع ، وهى الأصوات المسموعة ، والأصوات بمعناها الفلسفى الواقعى ؟

هيلاس : هو . هذا .

فيلونوس : وتذهب كذلك إلى أن الأصوات بمعناها الفلسفى ليست إلا حركة .

هيلاس : لقد قلت لك ذلك سابقا .

فيلونوس خبرنى إذن يا هيلاس : إلى أى حاسة من الحواس تظن أن فكرة الحركة تنتمى ؟ هل تنتمى إلى حاسة السمع مثلا ؟

هيلاس : كلا بالتأكيد . بل تنتمى إلى حاسة الإبصار واللمس .

فيلونوس : سيؤدى كلامك هذا إلى أنه سيتحتم علينا أن نقول عن الأصوات الحقيقية إنها ترى أو تلمس مثلا ، ولكننى لن نقول إنها تسمع .

هيلاس : أصغ إلى يا فيلونوس ، إنك تستطيع أن تهزأ ما شاء لك بأفكارى ولكن هذا لن يغير حقيقة الأمور . حقاً إننى أعترف بغرابة بعض الاستنتاجات التى تقودنى إليها ، ولكنك تعلم أن اللغة العادية قد شكلت تعبيراتها على قدر فهم الرجل العادى . ولذلك فيجب أن لا ندهش إذا رأينا أن بعض التعبيرات الفلسفية الخاصة تبدو لنا غريبة أو بعيدة عن القصد .

فيلونوس : أتقول هذا القول ؟ أؤكد لك أننى أعتقد أننى قد ربحت ربحا عظيماً فى مناقشتنا عندما أراك الآن تستخف بالتعبيرات والآراء العادية . وذلك لأن ركنا من أهم الأركان فى مناقشتنا أن نرى من منا له أفكار وتعبيرات أكثر عمقاً من الأفكار العادية ، وأكثر بعداً عن الاستخدام العادى للكلمات ولكن أليس معنى أن قولك الذى تذهب فيه إلى أن

الاصوات الحقيقية أو الواقعية لا تسمع أبدا أو إلى أن فكرتنا عنها آتية عن طريق حاسة أخرى قول قد بلغ فى الإغراب أن أصبح أحجية فلسفية paradox ؟ ثم ألا ترى معى أن فى هذا القول نوعاً من التعارض مع طبيعة الأشياء ومنطقها ؟

هيلاس : إذا رمت الحق فأنا لا أميل إلى هذه الأحجية . والحاقاً بالاعترافات التى أدليت بها سابقا . لا أستطيع أيضاً أن أقول إن الاصوات ليس لها وجود حقيقى بدون العقل .

(٨) فيلونوس : وآمل أنك لن تجد صعوبة فى أن تقر ذلك أيضاً بالنسبة إلى الالوان .

هيلاس : معذرة ، فإن حالة الألوان مختلفة تماما . هل هناك أوضح من أننا نرى الألوان قائمة فعلا فى الأشياء ؟

فيلونوس : وأغلب الظن أنك تقصد بالأشياء التى تتحدث عنها الاشياء الجسمانية أو الجواهر الموجودة بدون العقل ؟

هيلاس : هو كذلك .

فيلونوس : تريد أن تقول أيضا إن هذه الأشياء تكون محلا للألوان الواقعية، وأن هذه الألوان توجد قائمة فيها ؟

هيلاس : حقا ، ما دام لون كل موضوع هو اللون الذى نراه قائما فيه .

فيلونوس : كيف كان ذلك ؟ هل هناك شيء مرئى ما لم نكن نراه بالبصر ؟

هيلاس : لا .

فيلونوس : ثم هل تدرك شيئاً عن طريق الحس ما لم يكن إدراكنا له مباشرا ؟

هيلاس : كم من مره تضطرنى إلى اعادة ما أقول ؟ كلا ثم كلا .

فيلونوس : صبرا ياهيلاس، أيها الرجل الطيب . وحدثنى إذا كنت تستطيع أدراك شىء ما إدراكا مباشراً بالحواس مالم يكن هـــذا الشىء مجموعة الصفات المحسوسه . أنا أعلم أنك قد أقررت ذلك ،ولكن أريد أن أعلم الآن ما إذا كنت مازلت مصرا على نفس أقوالك .

هيلاس : أجل .

فيلونوس : آمل أن أعرف الآن إذا كان الجوهر الجسمانى الذى نقول بوجوده عبارة عن مجرد صفة محسوسة فى نظرك أم أنه عبارة عن شىء تتقوم فيه الصفات المحسوسة ؟ .

هيلاس : أى سؤال هذا ؟ ومن كان يظن أنك ستوجه إلى سؤالا كهذا ؟

فيلونوس : إننى وجهت اليك هذا السؤال لأن قولك «إن كل شىء مرئى يشتمل فى داخله على اللون الذى نراه له » معناه أنك تنظر إلى الأشياء المرئية كلها بإعتبارها جواهر جسمانية . وهذا يودىء إلى أحد أمرين: إما أن تكون الجواهر الجسمانية مجموعة من الصفات المحسوسة ، وإما أن هناك شيئاً آخر إلى جانب هذه الصفات ويدرك بأبصارنا .ولكن لما كنا قد اتفقنا على هذه النقطة سابقا ، وما تزال أنت مصراً على إتفاقك معى بازائها . فلم يبق إذن إلا أن تقول إن الجوهر الجسمانى ليس شيئا مختلفا عن مجموعة من الصفات المحسوسة .

هيلاس : لك أن تستخلص ما تشاء من النتائج ، ولك أن تعقد أكثر الامور بساطة يا فيلونوس ، ولكنك لن تستطيع أن تقنعنى بشى يأباه عقلى . إننى أفهم تماما ما أريده من أقوالى .

فيلونوس : أود أن تجعلنى أفهم أنا أيضاً . ولكنك إذا لم تكن على إستعداد

لمناقشة فكرتك عن وجود جواهر جسمانية فانى لن أخوض فى الفكرة مرة أخرى . ولكنى ساكون مغتبطاً — إذ أجبتنى عن السؤال : هل الألوان التى فى الأجسام الخارجية هى نفس الالوان التى نراها أم أنها الوان أخرى ؟ .

هيلاس : هى هى نفس الألوان .

فيلونوس : ماذا ؟ هل تعنى أن اللون الأحمر الجميل والأرجوانى اللذين نراهما فى السحب البعيدة ، قائمة بالفعل فى السحب ؟ أم أنك تذهب إلى أن ما فى هذه السحب حقيقة ليس الا بخارا دا كنا ؟ .

هيلاس : يجب أن أعترف لك يافيلونوس أن هذه الألوان التى تبدو لنا فى السحب على هـــذه المسافة البعيدة منا ليست قائمة فى السحب بل هى مجرد الوان ظاهرية .

فيلونوس : هل تدعوها ألوان ظاهرية ؟ كيف إذن سنميز بين الألوان الظاهرية والحقيقية ؟ .

هيلاس . هذا أمر يسير إن ما أرجوه بالألوان الظاهرية هى تلك التى تبدو لنا من على بعد ، وتختفى عندما نقترب منها ؟

فيلونوس : وتبعا لذلك فالألوان الحقيقية بحسب رأيك ستكون تلك الألوان التى تتراءى لنا عن قرب وعن طريق البحث الدقيق .

هيلاس : هذا صحيح .

فيلونوس : هل تريد أن يتم البحث الدقيق للألوان وفحصها عن قرب بواسطة العين المجردة أو بواسطة ميكرسكوب ؟

هيلاس : بواسطة ميكرسكوب دون شك .

فيلونوس : ولكن الميكرسكوب كثيراً مايكتشف في الشيء ألوان مختلفة عن تلك التي نراها العين المجردة . وإذا فرضنا أن لدينا ميكرسكوبات مكبرة بالدرجة التي نريدها . فليس من شك في أن أي شيء سيبدو من خلالها ذا لون يخالف اللون الذي يبدو لنا منها بالعين المجردة .

هيلاس : ولكن ، الذي تريد أن تنتهي اليه من هذا كله ؟ أنك لا تستطيع أن تدعى أن ليس هناك ألوان طبيعية واقعية في الأشياء بحجة أن هذه الألوان تتغير أو تتلاشى عند إستخدامنا للوسائل الصناعية .

فيلونوس : أعتقد أنه إعتمادا على أقوالك نفسها نستطيع أن نخلص إلى النتيجة الآتية : جميـــع الألوان التي نراها بالعين المجردة ليست الا ألوان ظاهرية كتلك التي تبدو لنا في السحب ، ما دامت تتلاشى إذا نظرنا فيها عن قرب نظرة دقيقة عن طريق إستخدام الميكرسكوب وعلى ذلك ، فأريد أن تطمئنني عن رأيك في هذا السؤال : هل تعتقد أننا نصل إلى حالة الشيء الحقيقية أو الطبيعية عن طريق عين حادة نافذة أو عن طريق عين أقل حدة ونفاذا ؟ .

هيلاس : عن طريق العين الحادة النافذه بلا شك .

فيلونوس : الا يتضح من دراسة علم البصريات أن الميكروسكربات تجعل العين على درجـــة كبيرة من النفاذ بحيث تبدو الأشياء من خلالها اكثر وضوحا عما لو بدت لأكثر العيون حدة وقوة ؟

هيلاس : بلى .

فيلونوس : وتبعا لذلك ، فإن الصورة التي تعطيها لنا الميكرسكوبات عن الشيء

أقرب صورة تتراءى لنا عن حقيقة الشيء أو طبيعته ، إن لم تعطنا الصورة الواقعية للشيء نفسه . وعلى ذلك فإن الألوان التي تبدو لنا من خلال الميكرسكوبات لابد أن تكون أكثر حقيقية من تلك التي ندركها بالوسائل العادية .

هيلاس : أقر بأن أقوالك هنا تبدو منطقية .

فيلونوس : وبالإضافة إلى ذلك ، فليس فقط من المحتمل بل من الواضح أن ثمة حيوانات زودتها الطبيعة بعيون تستطيع أن ترى أشياء (دقيقة جدا) تعجز عن رؤيتها عيوننا البشرية ، ما رأيك في هذه الحيوانات الدقيقة جدا والتي يتسنى لنا رؤيتها فقط بالعوينات أو الميكرسكوبات ؟ هل علينا أن نفترض أنها عمياء ؟ أم نفترض أنها حيوانات ترى وأن بصرها ورؤيتها لطريقها يدفع عنها الأذى كما يمنعه عن سائر الحيوانات الأخرى ؟ وإذا سلمنا بأنها تبصر ، أو ليس من المعقول أنها تكون قادرة على رؤية أشياء أدق من أجسامها هي ، وأن هذه الأشياء ستبدو أمامها بصورة مختلفة تماماً عن الصورة التي تبدو لحواسنا منها ؟ بل إن عيوننا نفسها لا تقدم لنا دائما صوره ثابتة عن نفس الشيء ؟ فكلنا يعلم أنه إذا أصيب الشخص بمرض الصفراء ، فإن جميع الأشياء ستبدو أمامه وكأن لونها أصفر فمن المستحيل جدا والحال هكذا أن عيون هذه الحيوانات الدقيقة التي تتكون من أنسجة مختلفة تماما عن أنسجة عيوننا والتي تسيطر على أجسامها الصغيرة أمزجة وتيارات مختلفة تستطيع أن ترى في كل شيء ألوانا تعجز عن رؤيتها عيوننا نحن ؟ والنتيجة التي أريد أن أخلص اليها من هذا كله أنه يبدو أن جميع الألوان ليست إلا ألوانا ظاهرية ، وأن أي لون نراه لا يوجد قائما قياماً واقعاً في الأجسام الخارجية ؟

هيلاس : حقا ما يجب أن يكون الامر على هذا النحو .

فيلونوس : وسيزول عندك كل شك فيما تعلق بهذه النقطة إذا إدركت أنه لو كان صحيحا ما كنت تذهب اليـــه من قيام الالوان قياما موضوعيا فى الأجسام الخارجية ، فانها كانت تسمح بأى تغيير فيها مالم يكن ذلك نتيجة لتغيرات أصابت هذه الاجسام الخاجية نفسها ولكن الا يتضح من كل ما سبق أن ذكرناه بصدد إستخدامنا للميكرسكوبات ، أو بصدد التغير الذى يتم من حيوان إلى آخر خاصاً بأنسجة العين ، أو بصدد التغير الذى يتم بقرب أو بعد المسافة أن الالوان تتغير أو تتلاشى دون أن يصاحب ذلك أى تغير فى الشىء نفسه ؟ أن كل الظروف التى يوجد فيها الشىء تظل هى هى ولكن يكفى أن تتغير بعض أوضاع الاجسام فيودىء ذلك إلى تغيير فى الالوان التى تبدو للعين . والأمر شبيه برؤية جسم فى درجات مختلفة من الضوء ، فإن هذا يؤثر فى إدراكنا للونه وأى شىء أبلغ فى الدلالة على هذا من أن لون الجسم الواحد يختلف إذا عرض لنا فى ضوء شمعة أو فى وضح انهار ؟ أضف إلى ذلك تجربة experiment of a prism التى يتم عن طريقها فصل الأشعة الضوئية غير المنسجمة عن المنسجمة ، فإن عملية الفصل هذه تؤدى إلى تغيير فى لون أى جسم بحيث يبدو بعدها الجسم الناصع البياض أمام العين المجردة وكأن لونه أصبح داكن الزرقة أو الحمرة .

والآن خبرنى إذا كنت مازلت تعتقد بأن اللون الحقيقى لكل جسم قائم فى هذا الجسم قياما موضوعيا : وإذا كنت مازالت هل رأيك القديم ، فأكون سعيدا لو علمت منك الظروف التى يجب توفرها

ليتسنى لنا التمييز بين هذا اللون الحقيقى وبين الألوان الظاهرة للجسم: فى أى وضع يجب أن يكون الجسم وعلى أية مسافة منى وإلى أى نسيج من أنسجة العين ساجلا فى ادراكى وأى شكل لها، وأية درجة من درجات الضوء يجب توفرها حتى أستطيع ان أعرف هذا اللون الحقيقى المزعوم ؟ .

هيلاس : أقر بأننى مقتنع تمام الإقتناع الآن أن جميع الألوان الوان ظاهرية وأنه لا وجود لمثل هذا اللون القائم فى الأجسام الخارجية ولكن يبدو لى أن حالة الضوء تشذ عن هذه القاعدة وأن ما يؤكد لى هذه الفكرة أن الألوان لا تبدو واضحة أو عاتمة إلا بالقياس إلى الضوء وإذا لم يكن ثمة ضوء، فلن نبصر ألوانا . وبالإضافة إلى ذلك ،فإذا افترضنا وجود ألوان على الأجسام الخارجية ، فكيف سيتسنى لنا رؤيتها ؟ إن كل جسم خارجى لا يؤثر فى العقل أو فى الإدراك مالم يؤثر قبل ذلك فى أعضاء الحس . ولكن هذا التأثير لا يتم الا عن طريق شىء واحد هو حركة الأجسام ، والحركة لا يمكن أن تنتقل فى المكان الا عن طريق الدفع . ولذلك فإن الجسم البعيد لا يمكن له أن يؤثر فى العين ، وتبعا لذلك لا يمكن أن ينقل خواصه إلى العقل . فلا بد إذن من وجود وسط يساعد على هذا الإنتقال وذلك التأثير ، أو لا بد من وجود جوهر ، يؤثر فى العين ، ويحدث فينا أدراك الألوان . وهذا الوسط أو هذا الجوهر ليس شيئا آخر إلا الضوء .

فيلونوس : كيف ؟ أتذهب اذن الى أن الضوء جوهر ؟

هيلاس : قلت لك يافيلونوس إن الضوء الخارجى ليس الاوسطا أو مجرى دقيقاً له جزئيات دقيقة تهتز عن طريق حركة سريعة ويؤدى إلى تغير أوجه الجسم الخارجى وتقلبها عما يحدث إنعكاس الاضواء

المنبعثة من هذه الأوجه على العين وانتقال حركة الجزيئات التى يشتمل عليها الجسم الخارجى إلى العصب البصرى . ولما كان العصب البصرى نفسه متصلا بالمخ فإن هذا يؤدى إلى التأثيرات المختلفة فى العين ، وهذه التأثيرات تترجم بالإحساس باللون الأحمر أو الأزرق أو الأصفر .. . الخ .

فيلونوس : يبدو إذن من كلامك أن مهمة الضوء عندك محصورة فى إحداث إهتزاز فى العصب البصرى .

هيلاس : تماما ، لاشىء غير ذلك .

فيلونوس : وتبعا لدقة اهتزاز العصب البصرى يكون تأثير العقل بالإحساسات المختلفة التى تترجم فى الإحساس الألوان المختلفة .

هيلاس : تماما .

فيلونوس : ولكن هذه الإحساسات لا وجود لها بدون العقل .

هيلاس : لا فهى لا توجد بدون العقل .

فيلونوس : كيف تؤكد إذن أن الألوان قائمة فى الضوء مادام الضوء يدل عندك على جوهر جسمانى قائم خارج العقل .

هيلاس : أنا أعترف بأن الضوء والألوان جميعاً ، لا يمكن أن توجد بدون العقل ، ما دمنا ندركها إدركا مباشراً . ولكنها فى ذاتها شىء آخر . فهى عبارة عن حركات وتشكيلات تقوم بها جزئيات صغيرة من المادة .

فيلونوس : ومعنى ذلك أن الألوان فى معناها المألوف أو باعتبار أنها موضوعات مباشرة للإدراك أو للبصر لا يمكن إلا أن تكون جواهر مدركة .

هيلاس : هذا ما أقوله .

فيلونوس : حسنا . إذا كنت قد سلمت أن الصفات المحسوسة التى تدل عند كل

الناس على ما يعرف عادة بالألوان لا وجود لها إلا بالعقل ففى وسعك بعد ذلك أن تدعى ما شئت بالقياس إلى هذه الجزئيات التى لا يراها أحد والتى هى موضع حديث الفلاسفة . فليس من مهمتى أن أناقشك فى وجود هذه الجزئيات خارج العقل أو داخله ولكنى لا أملك إلا أن أنصحك أن تتأمل الامر جيداً بنفسك فبينما يتعلق بموضوع المناقشة الدائرة بيننا الآن . تريد أن تقول لى ما يلى : إن الألوان التى تراها كالأحمر والأزرق ليست ألوانا حقيقية بل هى حركات وتشكيلات لجزئيات مجهولة عنا لم يرها ولن يستطيع أن يراها انسان ما ومع ذلك فهذه الالوان ألوان حقيقة . والآن ، ألست معى أن هذه الأفكار مضطربة وأنها إستنتاجات مضحكة شبيهة بتلك التى اضطررت إلى العدول عنها سابقاً عند الحديث عن الأصوات .

(٩) هيلاس : اعترف لك بصراحة يافيلونوس أنه من العبث أن أقاوم بعد ذلك. فالألوان ، والأصوات ، والطعوم ، وفى كلمة واحدة ، كل ما يطلقون عليه اسم الصفات الثانوية للمادة ليس لها وجود خارج العقل . ولكن هذا ليس معناه أننى أوافق على إلغـــاء الوجود الواقعى للمادة أو الأجسام الخارجية ، إذ أن فلاسفة كثيرين قد أقروه وكانوا أبعد الناس عن أن ينكروه . ولكى أوضح لك هـذا الامر إعلم أن الفلاسفة قد قسموا الصفات المحسوسة للمادة إلى قسمين : صفات أولية وصفات ثانوية . أما الصفات الأولية فهى صفة الامتداد والشكل والصلابة والثقل والحركة والسكون وهم يذهبون إلى أن هذه الصفات قائمة قياماً واقعياً فى الأجسام ، أما الصفات الثانوية فهى تلك الصفات التى بحثتها معك سابقاً . وهى عبارة عن جميع الصفات المحسوسة خلا

الصفات الأولية . ويؤكد الفلاسفة أن هذه الصفات الثانوية لاوجود لها إلا فى العقل . وأنا أحيطك علماً الآن بأننى مصدق كلام الفلاسفة هذا . والحق أن هذا الكلام كان قد وصل إلىّ فيما مضى ولكننى لم أتبين صدقه ولم أقتنع بصوابه تماماً إلا الآن .

فيلونوس : ما زلت تعتقد إذن أن الإمتداد والشكل صفات قائمة فى الخارج فى الجواهر المادية ؟:

هيلاس : نعم .

فيلونوس : ولكن ما قولك إذا كانت نفس الحجج التى سقناها ضد قيام الصفات الثانوية فى الخارج صالحة أيضا لهدم فكرة قيام هذه الصفات الأولية فى الخارج .

هيلاس : ماالذى سيضطرنى إذن إلى التسليم أيضاً بأن الصفات الأولية موجودة هى الأخرى فى العقل ؟

فيلونوس : هل تدعى إذن أن ما تدركه من شكل وامتداد فى الشىء بواسطة الحواس قائم فى جوهرها المادى أو قائم فيها فى الخارج ؟ :

هيلاس : نعم

فيلونوس : ترى هل تعتقد جميع الحيوانات الأخرى نفس ما تعتقد فيما يتعلق بالشكل والامتداد اللذين يبصرانهما ؟ .

هيلاس : بدون أدنى شك ، إذا كان لدى هذه الحيوانات ذرة من التفكير .

فيلونوس . أجبنى إذن يا هيلاس . هل تعتقد أن الحيوانات جميعا قد زودت بالحواس لحفظ وجودها وتحقيق سعادتها فى الحياة ؟ أم أن الإنسان وحده هو الذى زود بها لتحقيق هذا الغرض .

هيلاس : لا شك عندى فى أن الحواس تؤدى عند جميع الحيوانات نفس المهمة .

فيلونوس : إذا كان ذلك كذلك ، أليس من الضرورى أن أول ما تقوم به الحيوانات هو أن تستخدم حواسها فى إدراك أعضائها نفسها ، وفى رؤية الأجسام التى قد تؤذيها لتتفاداها ؟

هيلاس : هذا صحيح .

فيلونوس : إن الحشرة البسيطة التى ندعوها بالعته Amite يجب أن نفترض أنها قادرة على رؤية أقدامها وما شابه ذلك من أعضائها بل حتى الأشياء الأقل حجما من ذلك ومع ذلك فإننا لا نستطيع تمييز هذه الأشياء إلا نادراً ، وفى أحسن الظروف نستطيع أن نقارن أحجامها بالنقط البسيطة .

هيلاس : لا أستطيع أن أنكر ذلك .

فيلونوس : وبالنسبة إلى الكائنات الأقل حجما من حشرة العتة ، فإن هــذه الأشياء التى تبدو لنا شبيهة فى حجمها بالنقط البسيطة تبدو أمامها أكبر حجماً من ذلك .

هيلاس : تماما .

فيلونوس : وهكذا فإن ما لا نستطيع تمييز حجمه إلا بصعوبة قد يبدو فى نظر حيوان صغير آخر وكأنه يشبه الجبل فى حجمه .

هيلاس : أوافقه على كل ذلك .

فيلونوس : والآن هل تستطيع أن تقول إن الشيء الواحد يبدو فى نفس الوقت فى أحجام مختلفة .

هيلاس : إن هذه ما يصعب تصوره .

فيلونوس : ولكن أقوالك التى أدليت بها تجعلنا نخلص إلى أن حجم أرجل العتة الذى تراه أنت وحجمها الذى تراه العته ، وحجمها التى تراه حيوانات

آقل حجماً من العثه ، يمثل كل منها الامتداد الحقيقى لأرجل العثة . ومعنى ذلك أن مبادءك نفسها تقودك إلى التناقض .

هيلاس : يبدو لى أن هناك صعوبة تتعلق بفهم هذه النقطة .

فيلونوس : ولكن ، ألم تذهب إلى أن الصفة الحقيقة لشىء ما ، باعتبارها قائمة فيه ، لا يمكن أن تتغير إذا لم يلحق هذا الشىء نفسه تغير ما ؟ .

هيلاس : بلى . ذهبت إلى هذا الرأى .

فيلونوس : ولكننا نرى أن إقترابنا من الشىء أو ابتعادنا عنه يؤثر فى حجمه أو إمتداده الذى نراه لأن حجمه يبدو على مسافة ما عشرة أو مائة أمثال حجمه على مسافه أخرى ، ألا يتبع ذلك أن صفة الإمتداد ليست قائمة فى هذا الشىء ؟

هيلاس : أعترف بأننى لم أعد أدرى ماذا أقول .

فيلونوس : ستتحدد إجابتك بخصوص هذه الصفة إذا لم تتحرج فى أن تنظر إليها كما نظرت إلى سائر الصفات الأخرى . ألم نتفق على أن الحرارة والبرودة ليست صفات فى الماء ، مادامت الماء تبدو ساخنة عند لمسها بهذه اليد وباردة عند لمسها باليد الأخرى ؟

هيلاس : بلى . إتفقنا على ذلك .

فيلونوس : ألا يقودنا هذا إلى الحكم بأن الامتداد أو الشكل ليس قائماً فى الشىء ، لأنه يبدو أمام هذه العين على أنه صغير ، أملس ، ومستدير فى حين أنه يبدو وفى نفس الوقت أمام العين الأخرى على أنه كبير ، غير مستو ومستطيل ؟

هيلاس : تماما . ولكن هل يحدث هذا حقيقة ؟

فيلونوس: لك أن تتأكد من ذلك بأن تنظر بنفسك إلى أى شىء بالعين المجردة وتنظر إلى نفس الشىء بالعين الأخري من خلال ميكرسكوب ؟

هيلاس : لا أدرى كيف أستطيع إجراء تجربة كهذه، ولكنى مستعد لصرف النظر نهائياً عن صفة الإمتداد بإعتبار أنها صفة قائمة فى الأشياء . لأن هذا قد جرنى إلى نتائج غاية فى الإغراب .

فيلونوس : تقول نتائج غاية فى الإغراب ؟ بعد كل ماسلمت به ، أرجو أن لاتتحدث عن أية غرابة فالإغراب حقا هو فى عدم تسليمك بأن ماقلناه بصدد الصفات المحسوسة الأخرى ينسحب كذلك على صفة الإمتداد فاذا كنت قد سلمت معى بأن أية صورة للشىء أو أية فكرة عنه لا يمكن أن توجد من الجوهر غير المدرك ، فينتج من ذلك بالتأكيد أن شكل الشىء أو أية صورة من صور إمتداده التى نستطيع تصورها أو إدراكها ، لا يمكن أن توجد وجودا واقعيا بإعتبارها قائمة فى المادة . ومصدر الإستحالة هنا هو صعوبة تصور جوهر مادى سابق على صفة الإمتداد ومستقل عنها ويمثل « الجوهر » الذى تقيم فيه صفة الإمتداد . وأيا ما كانت الصفة الحسية : شكلا أو صوتاً أو لونا ، فانه سيبدو أمامنا إستحالة قيامها فى جوهر غير مدرك .

هيلاس : أسلم لك بهذا الآن . ولكنى أحتفظ مع ذلك بحقى فى معاودة التفكير فيما قلته لك إذا ما اكتشفت فيما بعد أى خطأ فى تسلسل افكارى .

فيلونوس: هذا حق لا أستطيع أن أنكره عليك . والآن نستطيع أن نتقدم نحو بحث صفة أخرى [من الصفات التى ندعوها بالصفات الأولية]

هى صفة الحركة بعد أن كدت تسلم بدعواى فيما يتعلق بصفتى الشكل والإمتداد . فهل الحركة الحقيقية القائمة فى الجسم الخارجى تتصف فى نفس الوقت بانها حركة سريعة أو حركة بطيئة ؟ .

هيلاس : لا . لا نستطيع أن نصفها بذلك فى نفس الوقت.

فيلونوس :ولكن ألا نصف حركة أى جسم بأنها سريعة بالنسبة إلى الزمن الذى يقطعه هذا الجسم فى مكان ما ؟ فالجسم الذى يقطع ميلا فى ساعة واحدة يتحرك بسرعة أكبر ثلاث مرات مما لو قطع نفس المسافة فى ثلاث ساعات .

هيلاس : أوافقك على هذا .

فيلونوس: ولكن ماذا يحدد الزمن بالنسبة لنا إلا سرعة تتابع الصور أو الافكار فى عقولنا ؟

هيلاس : تماما

فيلونوس: أليس من الممكن أن الافكار قد تتابع فى ذهنك لضعف السرعة التى تتابع بها فى ذهنى ، أو فى ذهن أى حيوان أخر ؟ .

هيلاس : أقر ذلك .

فيلونوس: وتبعا لذلك ، فإن الجسم قد يبدو أنه يتحرك فى هذا المكان أمام هذا الشخص نصف المدة التى يتحرك فيها أمامك أنت . وهذا كلام ينسحب على علاقات أخرى قائمة بين المدة والحركة وتختلف فيها النسبة بينهما. ومعنى ذلك أنه تبعا لمبادئك أنت لما كانت الحركات المختلفة للجسم الواحد تمثل عندك حركات قائمة فى الجسم نفسه ، فإن من الممكن أن هذا الجسم الواحد يتحرك فى نفس الإتجاه بسرعة ويبطء فى نفس

الوقت . فكيف يتفق هذا القول مع المنطق أو مع ما سلمت به الآن منذ لحظة ؟

هيلاس : لا أجد ما أقوله لك بهذا الصدد .

فيلونوس : لنرى إذن ماذا عساك أن تقول فى صفة أخرى هى صفة الصلابة أمامنا أحد أمرين : إما أنك لا تعنى أى شىء على الإطلاق بهذه الكلمة وفى هذه الحالة لن تكون موضعا للمناقشة . وإما أنها تعنى عندك التماسك أو المقاومة . ولكن هاتين الصفتين لا وجود لهما إلا بالقياس إلى حواسنا . لأن من الواضح أن ما يبدو متماسكا بالنسبة إلى كائن قد يبدو رخوا أمام آخر له من قوة العضلات وصلابتها ما يفوق الكائن الأول . وليس بأقل وضوحا ما نلاحظه من أن المقاومة التى يتصف بها الجسم هى مقاومة أحسها أنا لأنها مقاومة بالنسبة لى ، وبالتالى فهى ليست قائمة فى الجسم أو الشىء .

هيلاس : أنا أوافقك على أن الإحساس بالمقاومة الذى يكون أول ما يطالعك مباشرة من الجسم ليس قائما فى الجسم ، ولكن مصدر هذا الإحساس بالمقاومة شىء آخر ، وهذا المصدر هو الذى يوجد فى الجسم .

فيلونوس: ولكنى أظن أنى قد أوضحت لك فيما سبق أن « مصادر احساساتنا » عبارة عن أشيـــاء لا نستطيع إدراكها . وبالتالى لا يمكن أن نحس بها .

هيلاس : حقا إنك قد أوضحت لى فيما سبق هذه النقطة ، ولكن معذرة إذا كنت ما زلت حائرا بعض الشىء بإزائها . وذلك لأنى لا أعرف كيف أتخلص من أفكارى القديمة .

فيلونوس : لكى أساعدك على الخروج من هذا المأزق ، وضع فى إعتبارك أنه مادمنا قد إتفقنا على أن الإمتداد لاوجود له بدون العقل فلابد أن ينسحب هذا الكلام على الحركة والصلابة والثقل لأن جميع هذه الصفات تفترض الإمتداد وعلى ذلك ، فمن السخف أن نكرس لكل من هذه الصفات بحثاً خاصاً . فبإنكارك لوجود الإمتداد خارج العقل ، قد أنكرت فى الوقت نفسه مالهذه الصفات من وجود واقعى .

هيلاس : وإذا كان كلامك هذا صحيحاً فإنى أعجب يافيلونوس لهؤلاء الفلاسفة الذين ينكرون على الصفات الثانوية أى وجود واقعى ، ولكنهم يضعونه فقط للصفات الأولية . فاذا لم يكن هناك فارق بينهما فعلام الفصل بينهما إذن ؟

فيلونوس : ليس من واجبى أن أناقش جميع ما قاله الفلاسفة : ولكن من بين الأسباب الكثيرة التى دعت الفلاسفة إلى هذه التفرقة بين الصفات الأولية والثانوية ، من الأرجح أن يكون الشعور بالسرور والألم أحد هذه الأسباب . فالحرارة والبرودة ، والطعوم والروائح تترك فى النفس آثاراً سارة أو بغيضة أكثر مما تتركه أفكار مثل الإمتداد والشكل والحركة . ولما كان من غير المعقول أن يضيف الانسان الإحساس بالسرور والألم إلى شىء آخر غير نفسه ويقول بوجودها فى جوهر مادى ، فقد كان من السهل على الإنسان أن ينفر من القول بوجود الصفات الثانوية خارج العقل ، ويقول على العكس من ذلك بقيام الصفات الأولية فى الخارج وستقتنع بصدق ما أقوله لك إذا إسترجعت التفرقة بين إحساسك بالحرارة المرتفعة والحرارة المنخفضة فستشعر بميل نحو أفراد وجود خارجى للأولى بينما ستنكر ذلك على الثانية .

ولكن مهما يكن من شيء ، فليس هناك ما يبرر هذه التفرقة على الإطلاق . وذلك لأن الإحساس الضعيف له من الوجود ما للاحساس الواضح بالسرور أو الالم . وتبعاً لذلك فلا وجود لأى من هذه الإحساسات فى الخارج فى جوهر غير مفكر .

هيلاس : ومضت فى ذهنى الآن يا فيلونوس تفرقة أخرى كنت قد سمعتها من قبل بين الامتداد المطلق والإمتداد المحسوس به . فاذا كان من المسلم به أن صفتى الكبير والصغير التى تضاف لبعض الأجسام والامتدادات لا تقال إلا بالنسبة إلينا أو بالنسبة إلى أجزاء من جسدنا ، وبالتالى لا وجود لها فى جواهر الأشياء نفسها ، فليس هناك ما يضطرنى إلى القول بأن هذا ينسحب على الامتداد المطلق ، وهو شيء مجرد لاعلاقة له بالكبير أو الصغير أو بهذا الحجم أو ذاك أو بهذا الشكل أو ذاك والأمر شبيه بذلك فيما يتعلق بالحركات فالسريع والبطيء صفات تقال فقط بالنسبة إلى سرعة حركة الأفكار فى أذهاننا . ولكن ليس معنى ذلك أنه مادامت هذه الأحوال التى للحركة لا يمكن أن توجد مستقلة عن العقل فإن الحركة المطلقة لا وجود لها كذلك مستقلة عن العقل . إذ أن لها وجوداً مستقلا عن هذا العقل .

فيلونوس : أمل أن توضح لى الفارق بين هذه الحركة أو تلك أو بين هـــذا الامتداد أو ذاك ؟ أليس الفارق بينهما هو شيء محسوس لنا كسرعة هذه الحركة أو بطئها ، أو كبر هذا الحجم أو الشكل أو صغره ؟

هيلاس : أعتقد ذلك .

فيلونوس : ومعنى ذلك أننا إذا جردنا هذه الصفات عن حقائقها المحسوسة ستصبح

أمامنا بلا فروق كمية أو كيفية إذا استخدمنا هنا اصطلاح المدارس الفلسفية .

هيلاس : نعم .

فيلونوس : وهذا معناه أن الامتداد سيكون امتداداً عاماً والحركة ستضبح حركة عامة .

هيلاس : ليكن ذلك .

فيلونوس : ولكن من الأقوال المأثورة المسلم بها من جميع الناس أن كل شيء موجود لابد أن يكون جزئياً ، فكيف سيتسنى إذن وجود وقيام الحركة العامة والامتداد العام فى هذا الجوهر المادى أو ذاك ؟ .

هيلاس : أمهلنى فترة من الوقت لأجد حلا لهذه المشكلة .

فيلونوس : ولكننى أعتقد أننا نستطيع حلها على عجل . فليس من شك فى أنك تستطيع أن تخبرنى إذا كنت قادراً على تصور هذه الفكرة أو تلك وسأجد مخرجاً لكل مناقشتنا إبتداء من هذا . فاذا كنت قادرا على تصور فكرة للحركة أو للامتداد ، مجرداً من كل أحواله أو صفاته الحسية ، كصفة السرعة أو البطء أو الكبير والصغير ، أو المستدير والمربع ، إلى آخر هذه الصفات التى سلمنا معا بأنها لا توجد مستقلة عن العقل ، فسأسلم لك بما تريده . أما إذا عجزت عن هذا فلن يكون معك أدنى حق إذا صممت على وجود شيء لا تستطيع أن تكون عنه فكرة ما .

هيلاس : أعترف لك ببساطة أننى لا أستطيع .

فيلونوس : هل تستطيع أن تجرد فكرتى الامتداد والحركة عن كل الصفات التى يطلقون عليها من يذهبون إلى التفرقة بين الصفات اسم الصفات الثانوية ؟

هيلاس : ماذا ؟ أليس من أيسر الأمور أن نفكر في الإمتداد أو في الحركة في ذاتهما ، مجردين من كل خصائصهما المحسوسة ؟ أرجو أن تخبرني إذن كيف يفكر علماء الرياضة في هاتين الصفتين ؟

فيلونوس : أقر يا هيلاس أنه ليس من الصعب أن تكون أحكاماً عامة أو تتحدث حديثا عاما عن هاتين الصفتين دون أن تتعرض لأية صورة حسيه لهما ، ومعنى ذلك أننا نستطيع كما تقول أنت أن نكون عنهما أفكارا مجردة ، ولكن كيف يتأتى تبعا لذلك أن أستنتج من أنني أستطيع أن أذكر كلمة « حركة » وحدها أنى أكون ستطيع أن عنها في ذهني فكرة عامة مجردة من ملابساتها الجسمانية ؟ أو كيف أستنتج من قدرة البعض على تكوين نظريات خاصة بالإمتداد والشكل دون تعرض « للكبير » « والصغير » أو للصفات الحسية الاخرى أنى أستطيع أن أكون في ذهني فكرة مجردة عن الامتداد دون أن تتعرض لاى حجم أو أى شكل خاص ومنفصلة عن كل هذه الصفات المحسوسة؟ حقا إن الرياضيات تعالج فكرة الكم دون النظر إلى الصفات الحسية الاخرى التى تصاحبها ، ودون أى التفات منها إلى مقاييس الكم . ولكنى أعتقد أنك ترى معى أن تفكير هذه العلوم في فكرة الامتداد بصرف النظر عن الكلمات المجردة التى تستخدمها بصددها ، ليس تفكيراً مجرداً تماما .

هيلاس : ولكن ما رأيك في العقل الخالص أو المجرد ؟ ألا يمكن أن يتم تكوين الأفكار المجردة عن طريقه ؟

فيلونوس : لما كنت أرى عجزى التام عن تكوين أفكار مجردة ، فمن الواضح أننى لا أستطيع أن أتصور أنى قادر على تكوينها عن طريق عقل

خالص أو أية ملكة تفهمها من هذه الكلمة . وبالاضافة إلى ذلك ، فاذا صرفنا النظر عن طبيعة هذا العقل النظرى الخالص وعن قدرته فى معالجة أفكار روحية خالصة مثل الفضيلة والعقل والله وما إلى هذه الأفكار ، فإن من الواضح أن الأشياء المحسوسة لا تدرك عن طريق الحواس ولانستطيع تصورها الا بمعونه المخيلة وعلى ذلك فإنه لما كنا نبدأ إدراك الأشكال والإمتدادات إدراكا حسياً فان هذه الأفكار لا يتعلق إدراكها بالعقل الخالص ولكى يزيد إقتناعك بصدد هذه النقطة ، حاول أن تكون فكرة عن الشكل مجردة من كل ملابساتها الجزئية التى تتعلق بالأحجام أو من كل خصائصها الحسية الأخرى.

هيلاس : دعنى أفكر قليلا - إنى لا أستطيع ذلك .

فيلونوس: وهل تعتقد أن فى الإمكان وجود أفكار فى الطبيعة تتنافى مع ماتقدمه لنا الطبيعة نفسها ؟

هيلاس : هذا غير ممكن بأى حال من الأحوال .

فيلونوس: وإذا كان من المتعذر أن نفصل — حتى فى نطاق العقل — أفكار الامتداد والحركة عن كل صفاتها الحسية ، الا ينتج من ذلك أن وجود أية فكرة منهما تقتضى بالضرورة وجود صفاتها الحسية ؟

هيلاس : يبدو أن من الضرورى أن يكون الامر على هذا النحو .

فيلونوس : وتبعا لذلك فان كل الحجج التى سلمت بها أثناء مهاجمتك لقيام الصفات الثانوية فى الخارج تنطبق — دون أدنى أفتعال — على الصفات الاولية ، وبالإضافة إلى ذلك فاذا كنت تثق بحواسك حقا ، أليس من الضرورى أن تؤمن بوجود جميع الصفات المحسوسة ، الثانوية

والأولية ، جنبا إلى جنب بإعتبار أنها توجد على قدم المساواة بالنسبة إليها ؟ وهل تصور لنا الحواس يوما ما الحركة أو الشكل مجردة عن كل صفاتها البصرية أو اللمسية ؟

هيلاس : لست بحاجة أن أسمع منك مزيدا فى هذا الباب . فأنا أعترف لك ، بمطلق حريتى ، اللهم إلا إذا كان ثمة خطأ فى إستدلالاتنا السابقة ، أن جميع الصفات المحسوسة لا توجد مستقلة عن العقل . ولكن أخشى ما أخشاه أن اكون قد تساهلت معك فى إعترافاتى السابقة ، أو نسيت حجة ، أو وقعت فى مغالطة أو أخرى ، وبإختصار أستطيع أن أقول لك أنه لم يكن عندى الوقت الكافى للتفكير فى جميع هذه المشاكل .

فيلونوس : تستطيع ياهيلاس أن تأخذ من الوقت ما يكفيك لمراجعة تسلسل الحجج التى قبلت فى هذه المناقشة ، ولك مطلق الحرية كذلك فى أن تسد ما يبدى لك من أوجه النقص أو تعود لتقرير ما حذفته من عناصر الفكرة التى بدأت بها المناقشة .

هيلاس : خذ مثلا فكرة من بين الأفكار التى نسيتها . فأنا لم أفرق تفرقة واضحة بين الموضوع أو الشيء object وبين الاحساس ensation فاذا كان من الواضح لدى أن الاحساس لا يوجد بدون العقل ، فانه لم يتضح لى بعد ضرورة إرتباط الموضوع أو الشيء بالعقل ؟

فيلونوس: أى موضوع تقصد ؟ هل هو موضوع الحواس ؟ .

هيلاس : الموضوع أو موضوع الحواس شيء واحد عندى .

فيلونوس: ومعنى ذلك أنك تسلم بأنه موضوع مدرك إدراكا مباشرا ؟

هيلاس : أجل .

فيلونوس: خبرنى إذن إذا كنت ترى فارقا بين الموضوع المدرك إدراكا مباشراً وبين الإحساس .

هيلاس : الإحساس عندى فعل من أفعال العقل المدرك . وإلى جانب هذا الفعل الذى يقوم به العقل يوجد شىء مدرك . وهو ماأسميه بالموضوع . مثال ذلك . ألوان الأحمر والأصفر التى أراها فى زهرة « التوليب » هذه موجودة أو قائمة فيها . ولكن إدراك هذه الألوان هو فعل أقوم به أنا ، وبالتـــالى فهو يتعلق بى ، وليس موجودا فى زهرة التوليب

فيلونوس: ماذا تدركه فى هذه الزهرة بجانب لونها وشكلها وإمتدادها ؟

هيلاس : لاشىء .

فيلونوس: هل تذهب إلى أن الأحمر والأصفر يوجد فى الزهرة مع إمتدادها ؟ أليس كذلك ؟ .

هيلاس : ليس هذا فحسب. بل إنى أذهب إلى أن لهذين اللونين وجودا مستقلا عن العقل وقائمين فى جوهر غير مفكر .

فيلونوس: لاأجادلك فى أن هذه الألوان قائمة أو موجودة فى زهرة التوليب التى أراها . وأنا لاأنكر أن هذه الزهرة قد يكون لها وجود مستقل عن عقلى وعن عقلك . ولكن مادامت أصبحت شيئاً مرئياً ، أى مادامت قد أصبحت موضوعاً مباشراً للحواس، وبمعنى آخر مادامت قد أصبحت « صورة » فان من التناقض الواضح أن تدعى إحتمال وجودها بعد ذلك خارج العقل فى جوهر غير مفكر . بل ولا أستطيع أن أتصور كيف تخلص إلى هذه النتيجة من مجرد كلامك الذى قلته الآن وهو أن

الاحمر والأصفر موجودان أو قائمان فى زهرة التوليب التى تراها .
ومعنى ذلك أنك لم تدع إمكانية رؤية هذا الجوهر غير المفكر .

هيلاس : إن لك طريقة فريدة يا فيلونوس فى إبعاد المناقشة عن موضوعها الرئيســـى .

فيلونوس: واضح لى أن عقلك لا يحتمل تحويل المناقشة على هذا النحو . لنعد إذن إلى تفرقتك التى ذكرتها بين الإحساس والموضوع . إذا كنت قد فهمت عنك ما تقول ، فانك تريد أن تفرق فى كل إدراك بين شيئين : أحدهما هو الفعل الذى يقوم به العقل لإدراك الأشياء ، والآخرى هو الشىء أو الموضوع الذى لا ينتمى إلى العقل .

هيلاس : هذا صحيح .

فيلونوس: فأنت تقول إن فعل الإدراك لا يمكن أن يوجد أو أن يتبع أى جوهر غير مفكر ، وكل ما ينتمى إلى هذا العقل لا بد أن يكون خاضعاً للإدراك بصورة أو بأخرى .

هيلاس : هذا هو ما قصدته تماماً .

فيلونوس: وعلى ذلك فإنه إذا وجد إدراك ما دون أن يكون هناك فعل العقل ، فسيكون من المحتمل أن هذا الإدراك يوجد فى جوهر غير مفكر .

هيلاس : أوافق على ذلك . ولكن يستحيل وجود إدراك كهذا

فيلونوس: خبرنى متى يقال عن العقل إنه عقل فعال أو أن له نشاطاً ما ؟

هيلاس : عندما يؤدى إلى إنتاج شىء أو عندما ينهى شيئاً ما أو عندما يؤدى إلى تغيير شىء ما.

فيلونوس : هل يستطيع العقل أن ينتج شيئاً أو يوقف حركته أو يغيره إلا إذا عاونته الإرادة فى ذلك ؟

هيلاس : لا . لا يستطيع .

فيلونوس : وعلى ذلك فإن العقل يقال عنه إنه يقوم بفاعليته فى مختلف الإدراكات فى حالة تعاون الإرادة معه فى ذلك .

هيلاس : فعندما أقتطف زهرة ، يقال إننى أقوم بفاعلية معينه أو بفعل ما . وذلك لأنى أقوم بهذا الفعل بحركة من يدى ، وحركة اليد هذه نتيجة لتدخل إرادتى . وهكذا الحال إذا قمت بتقريب هذه الزهرة إلى أنفى . وهذا الفعل الأخير هو الذى يطلق عليه فقط فعل الشم ، أليس كذلك .

فيلونوس : سلمت .

هيلاس : وعندما أقوم باستنشاق الهواء وبسحبه إلى أنفى ، أقوم بفعل أيضاً لأن التنفس هو توفر فعل من أفعال الارادة . ولكن هذا التنفس لا يقال عنه إنه فعل الشم . لأنه إذا كان ذلك كذلك ، فسيقال عنى انى ، أشم ، فى كل مرة أقوم بفعل التنفس .

فيلونوس : هذا صحيح . ففعل الشم إذن فعل يترتب على مجرد فعل التنفس أو الإستنشاق ، أليس كذلك ؟

هيلاس . بلى .

فيلونوس : ولكنك تريد أن تقول إن إرادتى تقف عند هـــذا الحد فلا دخل لارادتى فى إحساسى بهذه الرائحة المعينة مثلا ، ومن ثم تبدو ارادتى أمام هذا الإدراك المعين سلبية هل تريد أن تقول هذا يا هيلاس ؟

هيلاس : بلى .

فيلونوس : ففيما يتعلق بالنظر مثلا تشعر بأن فى إستطاعتك أن تفتح عينيك أو تتركهما مغلقتين ، وفى إستطاعتك أن توجههما هذا الاتجاه أو ذاك .

هيلاس : دون أدنى شك .

فيلونوس : وكذلك تريد أن تقول إن رؤيتك اللون الأبيض مثـــلا فى هذه الزهرة البيضاء ، وعدم رؤيتك لونا آخر ، لا يتوقف على إرادتك فإذا وجهت عينيك المفتوحتين شطر السماء مثلا هل تستطيع أن تتفادى إدراك الشمس ؟ ورؤيتك للضوء أو للظلمة لا يتوقف فى رأيك على إرادتك ؟

هيلاس : نعم . لا يتوقف على إرادتى بالتأكيد .

فيلونوس : ففى كل هذه الأحوال تريد أن تقول إنك تشعر بأن إرادتك سلبية .

هيلاس : هذا صحيح .

فيلونوس : أريد أن أعرف منك الآن هل فعل الإبصار معناه إدراك الضوء والألوان أو فتح وتوجيه العينين ؟

هيلاس : إ: معناه بلا شك إدراك الضوء والألوان .

فيلونوس : ولكن إذا كنت تذهب إلى أنك فى إدراكك الضوء والألوان تكون سلبيا فماذا عسى أن تكون وظيفة الفعل الذى كنت تتحدث عنه باعتباره ملازما للإحساس ؟ أو ليست تؤدى إعترافاتك السابقة إلى

أن إدراك الضوء والألوان إذا لم يكن فيها فعل أيجابي ، قد تكون قائمة في جوهر غير مفكر ؟ ألست معي أن هذا تناقض .

هيلاس : لا أدري كيف أتخلص من هذا التناقض .

فيلونوس : وبالإضافة إلى ذلك ، فاذا كنت تريد أن تفرق بين الإدراك الايجابي والادراك السلبي ، فلا بد أن تكون قادراً على هذه التفرقة في حالة الإحساس بالالم . ولكن كيف يمكن أن يوجد الالم أيا كانت ضآلة الفاعلية التي أبذلها في الإحساس به جوهر في غير مفكر ؟ وباختصار أريد منك أن تتدبر الامر ، وتعترف ببساطة ، أن الإحساس بالضوء والألوان والطعوم والأصوات . . الخ ليست إلا تأثرات ذاتية وإحساسات قائمة في النفس . حقا تستطيع أن تسمى هذه الإحساسات « موضوعات خارجية » ، وتعطيها أى أسم تريد كالجوهر أو خلافه ولكنى أريد منك أن تتأمل أفكارك وتخبرنى بعد ذلك إذا لم يكن الأمر كما أقول لك .

هيلاس : أعترف لك يا فيلونوس أنى عند ما أتامل ما يجرى في ذهنى لا أجد إلا أنني كائن مفكر ، خاضع لتأثيرات حسية أو لاحساسات مختلفة ، ولا أستطيع أن أتصور مطلقاً كيف يكون الإحساس قائماً في جوهر غير مدرك أو مفكر . ولكن — من ناحية أخرى — عندما أنظر إلى الأشيـاء المحسوسة من زاوية أخرى أى بإعتبار أن لها صفات وأحوالاً كثيرة متعددة ، أجد أنه من الضرورى أن أفترض وجود جوهر مادى تقوم فيه ولا أستطيع تصور وجودها بدونه .

فيلونوس : هل ذكرت إسم « الجوهر المادى » ؟ أرجوك إذن أن تخبرنى عن طريق أيه حاسة من الحواس تتم معرفتك لهذا الجوهر ؟ .

هيلاس : هذا الجوهر ليس حسيا . وإنما أحواله وصفاته هى وحدها التى تدرك بالحواس .

فيلونوس : أغلب الظن أنك تكون قد حصلت على صورته عن طريق التفكير .

هيلاس : أنا لا أدعى أنى أملك حقيقة أية فكرة إيجابية عنه ، ومع ذلك فإنى اقطع بأنه موجود ، لأن الصفات لا يمكن أن تصور أنها موجوده بدون تقوّم لها .

فيلونوس : يبدو إذن أنك لا تملك فكرة كاملة أو واضحة عن هذا الجوهر وأنك تصور وجوده إستنادا على العلاقة القائمة بينه وبين الصفات التى يحملها .

هيلاس : هذا حق .

فيلونوس : أكون مسرورا لو جعلتنى أعرف الأساس الذى تقوم عليه هذه العلاقة .

هيلاس : ألا يتضح هـــذا الأساس تماما من مجرد ذكرنا لكلمة جوهر أو مقوّم ؟ :

فيلونوس : أتقصد بذلك أن الجوهر معناه ما ينتشر تحت الصفات المحسوسة أو العرضية ؟ .

هيلاس : نعم .

فيلونوس : ومعنى ذلك أن الجوهر ينتشر تحت الإمتداد ؟

هيلاس : أقر ذلك .

فيلوس : وهذا لايتأتى إلا إذا كان لهذا الجوهر طبيعة مختلفة تماما عن طبيعة الإمتداد ؟ .

هيلاس : أقول لك إن الإمتداد ليس إلا مجرد صفة ، أما المادة أو الجوهر المادى فهو ما تتقوم به هذه الصفه وغيرها . ثم أليس من الواضح أن ما د يتقوم ، يكون مختلفا عما يقوّم الصفات ؟ .

فيلونوس : ومعنى ذلك أنه إذا كنا حتما بصدر شيئين مختلفين فإن صفة الإمتداد ستكون هنا متقوّمة بجوهر الإمتداد أو بالجوهر الممتد ؟

هيلاس : تماما .

فيلونوس : خبرنى إذن ياهيلاس إذا كان من الممكن أن ينتشر شىء فى المكان بدون إمتداد ؟ أريد أن أقول إن فكرة الإمتداد تدخل ضمن عناصر « الإنتشار » فى المكان . اليس كذلك ؟

هيلاس . بلى .

فيلونوس : وهذا يؤدى إلى أن الجوهر الذى نفترض أنه ينتشر تحت شىء أخر لا بد أن يكون له إمتداد آخر يتميز عن إمتداد الشىء الذى ينتشر هو تحته .

هيلاس . لا بد أن يكون الأمر على هذا النحو .

فيلونوس : وتبعا لذلك فان كل جوهر جسمانى ـ مادام يفترض فيه أنه مقوّم

للإمتداد — لا بد أن يكون له هو نفسه إمتداد آخر وأن هذا الإمتداد الآخر هو ما يجعلنا ندعوه « تقوم الصفات »، وهكذا إلى مالا نهاية . وأنا أتساءل عما إذا لم يكن هذا تناقضا، ويتنافى مع ما سلمت به الآن وأعنى به أن تقوم الصفات أو الجوهر شيء متميز عن مجرد الإمتداد ؟

هيلاس : أجل . ولكننى أخشى يا فيلونوس أنك لم تفهمنى . فأنا لم أكن أعنى أن المادة تنتشر إنتشاراً حرفيا تحت الإمتداد . لأن كلمة « تقوم الصفات » تستخدم لتدل بوجه عام على نفس المعنى الذى تدل عليه كلمة « جوهر » .

فيلونوس : دعنا إذن نحلل ما تقصده بكلمة « جوهر » أليس . الجوهر عندك شيئا آخر غير ما يقف أو ينتشر تحت الصفات .

هيلاس : هو ذلك .

فيلونوس : ولكن هذا الشيء الذى يقف تحت شيء آخر أو يقومه ، أليس من الضرورى أن يكون له إمتداد ما .

هيلاس : بلى . لا بد أن يكون له إمتداد .

فيلونوس : وسيؤدى هذا الإفتراض إلى نفس التناقض الذى أدى إليه الإفتراض السابق .

هيلاس : أرى أنك مازلت يا فيلونوس تفهم الامور فهما ضيقا حرفياً ، وهذا ليس عدلا .

فيلونوس : إننى لم أحمِّل كلماتك معنى لا تحتمله ، وأترك لك مطلق الحرية

فى شرحها كما يحلو لك . ولكنى أرجو منك أن تمهلنى أفهم المعنى
الذى ترمى إليه . إنك تزعم لى أن المادة تقف تحت الصفات أو تقومها
فكيف يكون ذلك ؟ هل يكون هذا على النحو الذى تقف به الأرجل
تحت جسم الانسان ؟

هيلاس : لا . هذا معنى حرفى .

فيلونوس : أرجوك إذن أن تدلنى على أى معنى تفهمه من هذا حرفيا كان أم
غير حرفى . خبرنى يا هيلاس اذا كنت سأ نتظر جوابك طويلا .

هيلاس . أصارحك القول بأننى لا أعلم بماذا أجيبك فقد مضى علىّ وقت
ما كنت أظن أننى أفهم تماما ما يقال عن المادة من أنها تقوم الصفات.
أما الآن فكلما فكرت مليا ، وجدت أننى لا أفهم معنى ذلك ،
وباختصار وجدت أننى لا أعلم شيئا عن هذا المعنى .

فيلونوس : يبدو لى أنه ليس عندك أية فكرة ايجابية أو سلبية عما تدعوه ،
بالمادة فأنت لا تعلم ماهية هذه المادة ، ولا تعلم كذلك ، ما هى
العلاقة القائمة بينها وبين الصفات .

هيلاس . أقر لك بذلك .

فيلونوس . ومع ذلك فقد سبق لك أن قررت أنه يتعذر عليك أن تتصور كيف
تستطيع الصفات أن توجد دون أن يكون ثمة تقوم مادى لها فى
نفس الوقت .

هيلاس . نعم قررت ذلك .

فيلونوس : معنى ذلك بعبارة أخرى أنك عندما تتصور الوجود الحقيقى للصفات
لابد أن تتصور فى نفس الوقت شيئا آخر لا تستطيع تصوره .

هيلاس : أقر بخطئى فى هذا . ولكنى ما زلت أخشى أن تكون هناك مغالطة وأرجوك أن تقول لى رأيك فى النقطة الآتية. لقد خطر ببالى الآن أن الخطأ فى تفكيري يرجع إلى أنى بحثت كل صفة من الصفات الحسية على حدة وأنا أسلم لك بأن الصفة الحسية - إذا أخذت وحدها منعزلة عن الصفات الأخرى - لا يمكن أن توجد مستقلة عن العقل . لكن اللون مثلا لا نستطيع أن نعزله عن الإمتداد ، ولا الشكل عن صفة من الصفات الحسية الأخرى . ولذلك فان الصفات الحسية المتعددة توجد مرتبطة بعضها بالبعض الآخر ، وتكون ما نسميه الأشياء الحسية ولا شيء يمنعنا من أن نفترض أن هذه الأشياء الحسية منظورا إليها من هذه الناحية قد توجد فى استقلال عن العقل .

فيلونوس : أحد أمرين يا هيلاس : إما أنك تهزأ ، أو أن لك ذاكرة ضعيفة جدا . فاذا كنا حقا قد قمنا ببحث الصفات الحسية كل على حدة وواحدة بعد الأخرى فان الحجج التى أدليت بها أو على الأصح - ما سلمت به لى لم يكن الغرض منها إثبات أن الصفات الثانوية كلها لا تقوم بدون العقل : حقا ، إننا عند بحثنا لصفة الشكل أو الحركة انتهينا إلى أن هاتين الصفتين لا وجود لهما فى استقلال عن العقل لأنه كان من المتعذر علينا - حتى فى نطاق الفكر - أن نفصل بينهما وبين سائر الصفات الثانوية الأخرى. إنه قد تعذر علينا أن نتصورهما قائمين فى وجود مستقل قائم بذاته . ولكن هذه لم تكن الحجة الوحيدة التى أدلينا بها فى هذا السبيل. ولنضرب صفحا عن كل ما قيل حتى الآن ، ولننظر إليه على أنه لم يكن شيئاً على الاطلاق إذا أردت ذلك وسأقنع فقط بمناقشتك فى هذه النقطة الأخيرة التى أثرتها . فاذا استطعت

أن تثبت لى وجوداً مستقلاً لأية مجموعة من الصفات أو لأى شىء حسى . فسأسلم الك بما تريد .

هيلاس : إذا كان هذا هكذا ، فستضح لنا المناقشة فورا ، فأى شىء أيسر من أن أتصور منزلا أو شجرة باعتبار أن له أو لها وجوداً قائماً بذاته ومستقلا عن إدراك أى عقل مهما كان؟ إننى فى هذه اللحظة أتصور وجودهما على هذه الصورة .

فيلونوس : كيف تقول يا هيلاس إنك تستطيع رؤية شىء لا يمكنك رؤيته فى الآن نفسه .

هيلاس : لا هذا تناقض .

فيلونوس : أليس من التناقض أيضا أن تتحدث عن تصور شىء لا يمكنك تصوره ؟ .

هيلاس : بلى

فيلونوس : لنبحث إذن الشجرة أو المنزل الذى تفكر فيه ، فهما لا يتصوران إلا بواسطتك أليس كذلك ؟

هيلاس : بلى . فكيف يتصور وجودهما على غير ذلك ؟

فيلونوس : والشىء الذى تتصوره لابد أن يكون وجوده فى الذهن ؟

هيلاس : ليس هناك شك فى ذلك،فان ماأتصوره لابد أن يكون قائما فى ذهنى

فيلونوس : كيف يتأتى لك إذن أن تقول ان بوسعك أن تتصور وجود منزل أو شجرة فى استقلال عن جميع العقول .

هيلاس : أعترف لك بأن هذه هفوة منى . ولكن أنتظر لأرى كيف تسنى لى أن أقول مثل هذا القول الذى يبدو لى الآن على أنه خطأ يثير الهزء . فيبدو لى أننى قلت ذلك عندما تصورت وجود شجرة فى مكان

منعزل لم تطأه قدم أى إنسان لبراها . فكنت إذن أفكر فى هذه الشجرة باعتبارها موجودة دون أن تكون مدركة أو موضوعا لتفكير أى إنسان . ولم يتطرق إلى ذهنى حينئذ التفكير فى نفسى باعتبارى أتصورها أو أفكر فيها . ولكن الأمر مختلف الآن . ذلك أنى ألاحظ أن كل ما ستطيع أن أقوم به هو أن أؤلف صوراً فى ذهنى أنا . فأستطيع مثلا أن أتصور فى ذهنى وجود صورة ما لشجرة أو لمنزل أو لجبل ما ولكن هذا هو كل ما أستطيعه . وهذا يختلف تماما عن إمكانية البرهنة على هذه الأشياء باعتبار أن لها وجوداً مستقلا عن كل المعقول .

فيلونوس : أنت تقر إذن أنك لا تستطيع تصور وجود أى جسم أو أى شىء حسى دون أن تتصور بالتالى وجود عقل يدركه .

هيلاس : أقر ذلك .

فيلونوس : ومع ذلك ، فانى أراك مستعداً أن تدافع بحرارة عن وجود الأشياء التى لا تستطيع تصورها وجودا واقعيا حقيقيا .

هيلاس : أعترف بأنى لا أدرى السبيل إلى التفكير فى هذا . ومع ذلك ، فإن ثمت بعض الشكوك التى ما زالت تؤرقنى . أليس من المؤكد مثلا أننى أرى الأشياء التى تقع على بعد منى ؟ ألا نرى النجوم والقمر مثلا على الرغم من وجودها على بعد شاسع منا ؟ أليس هذا أمر واضح للحواس ؟

فيلونوس : ولكن ألست تستطيع أيضا أن تدرك هذه الأشياء وما شابهها فى الأحلام أيضا ؟

هيلاس : بلى أستطيع .

فيلونوس : وعند رؤيتك لها فى الأحلام ، ألا تبدو هذه الأشياء على نفس البعد التى تبدو لك فى اليقظة تقريبا ؟

هيلاس : أجل

فيلونوس : ولكنك لا تستنتج أن رؤيتك لهذه الأشياء فى الأحلام من على بعد تتم بدون تدخل العقل .

هيلاس : لا فهذا مستحيل فى الأحلام .

فيلونوس : عليك اذن أن لا تستنتج امكانية وجود الأشياء المحسوسة فى استقلال عن العقل من الصورة القريبة أو البعيدة التى تبدو فيها عند إدراكها .

هيلاس : أعترف لك بهذا . ولكن أليس من المحتمل أن أكون فريسة لخداع الحواس فى هذه الحالات ؟

فيلونوس : لا فالصورة أو الشىء الذى تدركه إدراكا مباشر ، لا يستطيع الحس أو العقل أن يخبرك بوجوده إلا إذا تدخل العقل فى هذا . فالحس يدلك فقط على مجموعة التأثرات الحسية كالضوء واللون . . الخ . وهذه التأثرات لا تستطيع أن تقول عنها إنها قائمة خـــارج العقل مستقلة عنه .

هيلاس : هذا صحيح . ولكن ألا تعتقد معى بالرغم من هذا كله أن حاسة البصر تدلنا على شىء من قيام الأجسام فى الخارج أو على قيامها على بعد منا .

فيلونوس : عندما تأخذ شيئا فشيئا فى تقريب جسم بعيد ، فهل يتغير حجم هذا الجسم وشكله ، أم يظلان كاهما مهما تغيرت المسافة التى تفصلنا عن هذا الجسم .

هيلاس : يتغيران بإستمرار .

فيلونوس : وعلى ذلك فان حاسة الإبصار لا شأن لها مطلقا بأن تدلك على أن

الجسم الذى تدركه إدراكا مباشرا يوجد على بعد منك[1] . أو أنه سيتضح أمامك اذا اقتربت منه وانما كل ما يخبرك به هو حلقة متصلة من الوجودات الحسية للشىء تتعاقب بعضها أثر بعض طوال فترة اقترابك منه .

هيلاس : حقا ان البصر لا شأن له بهذا . ولكن عند رؤيتى لشىء ما قائم على بعد منى أكون على يقين بأننى سأدرك هذا الشىء نفسه كلما اقتربت منه . وليس من المهم أى يكون الشىء الذى أمامى هو هو أو يكون قد لحقه تغيير ما . وانما المهم أن ادراكى له فى هذه الحالة يكون مشتملا فى الوقت نفسه على ادراك البعد الذى يكون قائما فيه .

فيلونوس : هيلاس ، أيها الرجل الطيب ، تأمل قليلا ما تقول وخبرنى اذا كان الأمر يحتمل اكثر من هذا الذى سأدلى به . ان التجربة من شأنها أن تدلك على أن إبصارك لهذه الصورة المعينة أو لهذه المجموعة من الصور يكون مصحوباً عادة (تمشيا مع ما تقضى به الطبيعة) بهذه التأثرات المعينة ، وذلك بعد تكرار رؤيتك للصور الاولى وتكرار حركتها أمامك .

هيلاس : إنى لا أرى عموما فى الامر شيئا خلاف ذلك .

فيلونوس : والآن . لنفترض أن شخصـــا ولد أعمى واصبح فجأة قادرا على الإبصار أليس من الواضح أنه لن يكون لديه أول الأمر أية تجربة تتعلق بالابصار ؟

(١) أنظر كتاب المؤلف « نحو نظرية جديدة فى الإبصار » وكتابه الآخر « نظرية الإبصار معدلة ومشروحة » .

هيلاس : بلى

فيلونوس : ولن يكون لديه ـ تبعا لذلك ـ أية فكرة تتعلق بإدراك المسافة المقترن بأبصار الأشياء التي يراها ، بل سنظر إلى هذه الأشياء فقط على أنها مجموعة من الإحساسات القائمة في عقله هو أليس كذلك؟

هيلاس : بلى . دون أدنى شك .

فيلونوس : ولكي نوضح الأمر أكثر ، أريد أن أسألك هذا السؤال . أليست المسافة عبارة عن خط مستقيم متجه نحو العين .

هيلاس : بلى

فيلونوس : وهل يستطيع البصر أن يدرك خطا كهذا ؟

هيلاس : لا

فيلونوس : ألا يؤدي هذا القول إلى أن نقول إن البصر لا يستطيع أن يدرك المسافة إدراكا مباشرا وبالمعنى الصحيح لكلمة ادراك ؟

هيلاس : يجب أن يكون الأمر على هذا النحو .

فيلونوس : والآن هل ترى أن ادراكنا لألوان الأشياء ادراك على بعد ؟

هيلاس : لا . لابد أن أعترف بأن الألوان قائمة في العقل فقط .

فيلونوس : ولكن ألا تبدو الألوان للعين وكأنها قائمة هناك مع الامتداد والشكل ؟

هيلاس . أجل .

فيلونوس: ومادام الشكل واللون يظهران للعين معاً كأنهما ملتحمين ، فكيف نستنتج إذن أن الشكل موجود دون أن يكون معتمداً في وجوده على الإدراك البصري في حين أن اللون يعتمد في وجوده عليه.

هيلاس : لا أدرى كيف أجيب على هذه المشكلة.

فيلونوس: ولكن إذا إفترضنا أن إدراكنا للمسافة يتم عن طريق العقل ويدل على إدراك حقيقى ومباشر ، فلا يمكن أن نستنتج من ذلك أن المسافة موجودة فى إستقلال عن العقل وذلك لأن ما ندركه إدراكا مباشرا لابد وأن يكون «صورة» و «الصورة» لا يمكن أن توجد خارج العقل أليس كذلك؟

هيلاس : سأفترض معك إذن أن كل هذا خلط، ولكن ألا هل تجينى يافيلونوس على هذا السؤال : هل إدراكنا أو معرفتنا متوقفه على إدراك الصور، أم أننا نستطيع معرفة أشياء أخرى إلى جانب الصور ؟

فيلونوس: إذا أخذنا الاسباب بمسبباتها ، فإن هذا السؤال يبدو لى أنه لايدخل فى نطاق مناقشتنا . فتستطيع أنت وحدك أن تقرر إذا كنت قادراً — عن طريق الحواس — على إدراك شىء لاتستيطع إدركه مباشرة علما بأن ما تستطيع إدراكه مباشرة ليس شيئاً آخر إلا الإحساسات أو الصور ؟ لقــد أعلنت أكثر من مرة طوال مناقشتى لك أنك قد نفضت يديك من هذه النقطه وأمثالها ، ولكن يبدو لى من سؤالك هذا الاخير أنك قد عدلت عما كنت قد سلمت به .

هيلاس : إذا أردت الحق يافيلونوس . يبدو لى أن هناك نوعين من الاشياء : الاشياء التى تدرك إدراكا مباشراً ، وهو ما نسميه بالصور ، والاشياء الحقيقية أو الموضوعات الخارجية التى تدرك بواسطة الصور العقلية ، والتى ليست إلا نسخا منها . وأنا وإن كنت أعترفت بأن الصور لاوجود لها فى إستقلال عن العقل فإن الموضوعات الخارجية توجد فى رأيى مستقلة عنه وآسف لانى لم أستطع أن أهتدى إلى هذه التفرقة قبل ذلك فمن المحتمل أن تكون قد أنهت مناقشتنا عند حد .

فيلونوس: هل هذه الأشياء الخارجية تدرك بواسطة الحس أم بواسطة ملكة أخرى ؟

هيلاس : إنها تدرك بواسطة الحس .

فيلونوس: كيف ؟ هل هناك شيء يدرك بالحس ومع ذلك فهو غير مدرك إدراكا مباشرا ؟

هيلاس : أجل يافيلونوس . هناك شيء من هذا القبيل . خذ هذا المثال . عندما أنظر فى صور أو تمثال يوليوس قيصر ، فمن الجائز أن أقول إننى أدرك يوليوس قيصر عن طريق الحواس ، مع ذلك فإن ادراكى له ليس مباشرا .

فيلونوس: يبدو إذن أنك تنظر إلى « الصور » — وهى وحدها المدركة ادراكا مباشرا — على أنها مجرد صور أو نسخ للأشياء الخارجية وسيقال عن هذه الأشياء الخارجية إنها تدرك بالحواس فى حالة وجود شبه بينها وبين الصور .

هيلاس : هذا هو المعنى الذى قصدت إليه .

فيلونوس: وعلى هذا النحو ، يقال إننى أدرك يوليوس قيصر بالحس أو بالإبصار على الرغم من أنه هو نفسه ليس أمامى ، ومعنى ذلك أن الأشياء الواقعية غير المدركة فى حد ذاتها ، تدرك أو قابلة لأن تدرك بالحس .

هيلاس : تماما .

فيلونوس : قل لى ياهيلاس إذن عندما تمسك بصورة يوليوس قيصر هل ترى فيها بعينيك شيئا أكثر من بعض الألوان والأشكال المتناسقة فيما بينها والتى تكون كلا منسجما ؟ .

هيلاس : لاشيء غير ذلك .

فيلونوس : وإذا أحضرنا شخصا آخر لايعرف شيئا مطلقا عن يوليوس قيصر فهل سيرى فى صورته أقل عما تراه أنت أم أنه سيرى نفس ماتراه ؟

هيلاس : نفس ما أراه .

فيلونوس : ومعنى ذلك أنه يتمتع بملكة إبصار ويحسن إستخـدامها بنفس الدرجة التى تتمتع بها أنت وتحسن إستخدامها ؟

هيلاس : أنامتفق معك فى هذا .

فيلونوس : كيف تقول إذن أن ماتراه أنت يدل عندك على الإمبراطور الرومانى وأن مايراه هو لايدل على ذلك ؟ إن هذا لا يمكن أن ينتج من مجرد الإحساسات أو الصور الحسية التى تدركها أنت كما يدركها هو ، مادمت قد سلمت بأنك لاتفوقه فى هذا بل لابد أن مصدر هذا الاختلاف فى الإدراك هو العقل أو الذاكرة التى تقول لك إن هذا هو يوليوس قيصر ولاتقول له هذا ؟

هيلاس : لابد أن يكون كذلك.

فيلونوس : وينتج من ذلك أن هذا المثال لايدلنا إطلاقاً على أن الشيء الذى لاندركه إدراكا مباشرا نستطيع مع ذلك أن ندركه بالحس . ومع ذلك فانى أسلم بأن هناك وجها واحدا من الجائز أن نقول فيه إننا ندرك الاشياء المحسوسة عن طريق الحواس [على الرغم من عدم رؤيتنا لها] مثال ذلك . عندما تدرك شيئين أو سلسلتين من الاشياء إدراكا مرتبا بحيث أن الإدراك المباشر لصور إحدى السلسلتين توحى الى العقل صور السلسلة الاخرى التى قد تكون تابعة لحاسة أخرى غير الحاسة التى تتبعها سلسله الصور الأولى ولكننا أعتدنا أن نراها

عند رؤيتنا لها . كلا فعندما أسمع هدير عربة تسير فى الشارع فإن ما أدركه ادراكا مباشر هو الصوت ، ولكن عن طريق التجربة السابقه أستطيع أن أقول إن هذا الصوت صوت عربة أو أننى أسمع عربة تسير . ومع ذلك ، فإن من الواضح أننا إذا أردت الدقة فإن ما أسمعه حقا ليس شيئاً آخر الا الصوت أما « صوت العربة » فأننى لا أسمعه أبدا عن طريق حاسه السمع ، بل توحى به إلىّ التجربة والأمر شبيه بهذا عندما نرى قضيبا من الحديد متوهج اللون ، فإنى استنتج أن هذا القضيب لابد أنه يكون على حرارة مرتفعة ولابد كذلك أن يكون قد فقد كثيرا من صلابته ولكن هذا كله ليس إلا مجرد إستنتاج أوحت به المخيلة عن طريق لون وشكل الحديد ، وبالتالى فهو ليس مما تدل عليه ملكة الإبصار . أما مايتعلق بالادراك البصرى فى هذه الحالة فليس لون الحديد وشكله فقط ، وإذا أخذنا أمثلة أخرى فمن الواضح أن التجربة هى التى توحى إلى العقل بها ، عن عن طريق تكرار المشاهدات السابقة ، وقياسا على ذلك ، لنعد إلى « صورة يوليوس قيصر » وهو المثال الذى ضربته لى فلابد أن تقرنى بسهولة على أن « يوليوس قيصر » وهو الموضوع الواقعى « للصورة » لا يمكن أن يكون مدركا بالحس بل بواسطة ملكة داخلية هى العقل أو الذاكرة.

أود بسرور أن أعرف بعد هذا كله أى الحجج تستطيع أن تستدل بها عقليا على وجود ما تدعوه بالأشياء الواقعية أو الموضوعات المادية . وإذا كنت تتذكر أنك رأيت هذه الاشياء فى ذاتها أو إذا كنت قد سمعت عن شخص رآها أو قرأ عن وجودها فقل لى .

هيلاس : أرى يا فيلونوس أنك تهزأ بى ، ولكن هذا الهزء لن يقنعنى بما تحاول أن تجعلنى أسلم به .

فيلونوس : كل ما أهدف إليه أن أعرف منك كيف وصلت إلى معرفة وجود أشياء مادية . ذلك أن ما ندركه إمـــا أن ندركه بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر ، أى أن ما ندركه بواسطة الحس أو بواسطة العقل والتأمل العقلى . ولكن إذا كنت قد استبعدت الحس ، فأرجوك أن تخبرنى عن طريق أية وسيلة يتم لك إدراك الأشياء المادية ، وذلك لتتضح هذه الفكرة أمامى وأمامك أنت أيضاً .

هيلاس : أخبرك بإخلاص يا فيلونوس أننى عندما أفكر فى الامر الآن لا أجد نفسى قادراً على إجابتك . ولكن شيئا واحدا يبدو أمامى بوضوح وهو أن وجود أشياء مادية أمر محتمل على الأقل وما دام افتراض وجودها لا يؤدى بنا إلى تناقض فأنا مصر على الاعتقاد فيها حتى تقدم لى أدلة حقيقية تثبت العكس .

فيلونوس : ماذا ؟ هل وصل بك الأمر إلى أنك تعتقد فى وجود الأشياء المادية وأنك تبنى إعتقادك هذا على احتمال صحة وجودها ؟ إليك إذن ما يقوّض إعتقادك هذا ، ولو أن شخصا آخر غيرى قد يرى أن من الأوفق أن يلقى عليك أنت تبعة إقامة الدليل على ما تؤكد صحته .

وأيا ما كان الأمر فهذه النقطة التى تصمم على الإستمساك بها ، دون أدنى حق ، هى عين ما عدلت عنه أكثر من مرة طوال هذه المناقشة . ولكن لنسقط كل ما تقدم من حسابنا . وإذا كنت قد فهمت جيدا ما تريد ، فأنك وإن كنت تقول إن الصور العقلية لا وجود لها بدون العقل ، فانك تزعم أن هناك نسخا أو صوراً أخرى لبعض

الأشياء التى تمثل عندك الأصل وتقول إن هذه النسخ هى التى توجد مستقلة عن العقل .

هيلاس : لقد فهمت قولى فهما جيداً .

فيلونوس : وستكون هذه النسخ فى رأيك شبيهة بالأشياء الخارجية ؟

هيلاس : نعم .

فيلونوس : هل تتمتع هذه النسخ بطبيعة أو وجود دائم ثابت مستقل باستمرار عن الحواس ، أم أن لها طبيعة متغيرة ، تتغير بتغير تحركات أجسامنا أو تعطل ملكاتنا وأعضاء حواسنا عن العمل أو — على العكس من ذلك - بحث نشاطها وفاعليتها ؟

هيلاس : من الواضح أن الأشياء الواقعية تتمتع بوجود أو بطبيعة ثابتة ، تظل هى هى أثناء جميع التغيرات التى تطرأ على حواسنا أو على موضع وحركة أجسامنا . حقا إن هذا كله قد يؤثر فى صورنا العقلية ، ولكن من الخطأ أن يظن أنه سيكون له تأثير على الأشياء المستقلة عن عقلنا .

فيلونوس : كيف يتأتى إذن أن تكون الأشياء المتغيرة تغير صورنا العقلية نسخا أو صورا من أشياء أخرى ثابتة مستقرة ؟ وبعبارة أخرى ، إذا كانت جميع الصفات المحسوسة كالحجم والشكل واللون . . . الخ (أى صورنا العقلية) تتغير دائما تبعا لكل تغير يطرأ على المسافة أو على حقل الادراك أو على وسائل الحس ، فكيف نقول إن ثمة شيئا ماديا ثابتا باستمرار يظل هكذا على الرغم من إختلاف الوسائل التى نصطنعها فى ادراكه إختلافا بيّنا بحيث أن ما تدلنا عليه حاسة واحدة يختلف عما تدلنا عليه الأخرى ؟ وإذا ذهبت إلى أن هذا الشىء الثابت

لابد أن يشبه صورة واحدة من صورنا العقلية ، فكيف نستطيع أن نميز بين النسخة الصحيحة والنسخ المزيفة ؟

هيلاس : أعترف يا فيلونوس بأننى فى حيرة من أمرى . ولا أعرف ما أقوله فى هذا .

فيلونوس : ولكن دعنا من هذا كله . وأريد منك أن تجيبنى على هذا السؤال : هل الأشياء المادية أو الأشياء فى ذاتها ، قابلة للإدراك أو غير قابلة ؟

هيلاس : إذا أردت الدقة فان الصور هى وحدها القابلة للإدراك المباشر . وعلى ذلك . فان الأشياء المادية جميعها فى ذاتهـا ليست قابلة للإدراك الحسى ، وإنما تدرك فقط بواسطة الصور .

فيلونوس : فالصور إذن فى رأيك هى القابلة للادراك الحسى ، أما نموذجها أو أصلها المادى فغير قابل لهذا الإدراك ؟

هيلاس : هذا صحيح .

فيلونوس : كيف يتأتى إذن أن يكون ما هو قابل الإدراك الحسى شبيها بما هو غير قابل لذلك ، هل من الجائز أن يكون الشىء الواقعى ، وهو غير مرئى فى حد ذاته ، شبيها باللون المرئى مثلا ؟ أو هل من الجائز أن يكون هذا الشىء الواقعى ، وهو غير مسموع فى حد ذاته ، شبيها بالصوت ؟ وفى كلمة واحدة ، هل من الجائز أن يكون شىء ما شبيها باحساس ما أو بصورة حسية معينة ، ولكنه فى حد ذاته يتبع احساسا آخر أو ينتمى إلى شىء آخر !

هيلاس : لابد أن أعترف بأن هذا مالا أعتقده ؟

فيلونوس : هل من الممكن أن يكون هناك ظل من الشك حول هذه النقطة ! ألست عارفا تماما بكل الصور العقلية الخاصة بك ؟

هيلاس : بلى ، فأنا أعرفها جيدا لأن مالا أدركه أو مالا أعرفه لا يمكن أن يكون جزءا من صورى العقلية.

فيلونوس : تأمل هذه الصورة جيدا ، وقل لى إذا كان من الممكن أن يكون هناك بينها صورة مستقلة عن العقل ، أو قل لى إذا كنت تستطيع أن تتصور شيئا بها قائما فى إستقلال عن العقل ؟

هيلاس . أقول لك بعد البحث إن من المتعذر علىّ أن أتصور شيئا شبيها « بالصورة » العقلية ، إلا الصورة المقلية نفسها . ومن باب أولى ، يتضح لى الآن أن الصورة عقلية المستقلة عن عقل ، لا وجود لها على الإطلاق .

فيلونوس : ترى إذن أنك مضطر من تلقاء نفسك إلى عدم الإعتراف بالوجود الواقعى للأشياء المحسوسة ، إذا فهمت هذا الوجود على أنه وجود مطلق قائم خارج العقل وسينتهى بك هذا الموقف إلى أن تكون شاكا . وعلى ذلك ، فقد ربحت منك هذه الجولة التى سعيت من ورائها إلى إثبات أن دعواك [فى الإعتقاد بوجود جوهر مادى] تقودك إلى الشك .

هيلاس : إن لم أكن مقتنعا تماما بهذا الآن ، فقد نجحت على الأقل فى إلزامى الصمت .

فيلونوس : أكون سعيدا لو أفصحت لى عما تطلبه منى بعد ذلك لإقناعك أكثر وأكثر . ألم تكن مطلق الحرية فى توضيح أفكارك بجميع الوسائل، ألم نسد جميع الثغرات البسيطة التى تكشفت لنا أثنـــاء مناقشتنا

وأوضحناها بما لا يقبل المزيد ؟ ألم أسمح لك بالعودة إلى ما تكون قد سلمت به لتقوّى مركزك وتدافع عن غرضك ، ألم استمع إلى كل ما أستطعت أن تذكره لى بكل سعة صدر ؟ ألم نعرضه معا على بساط البحث ، وفى كلمة واحدة ، ألم أطرق فى الحقيقة كل نقطة أبهرت ، تخرج من فمك ، أنت ، وإذا عَنّ لك الآن أى ثغرة فى إعترافاتك السابقة ، أو وقفت على أية مغالطة أو أية تفرقة أو أى ظل من الشك أو أى تعليق مهما كان ، فلماذا تحجم عن تذكيرى به .

هيلاس : صبرا قليلا يا فيلونوس . أجد نفسى الآن وقد وقعت فى المأزق ، ولا أجد فكاكا من جميع المتاهات التى سقتنى إليها . ومن أجل ذلك فأنا أكتفى الآن بتأمل نفسى فى هذا الموقف . ومن الطبيعى أن لا أجد مخرجا لنفسى من هذا كله الآن. فلتمطنى إذن فرصة لاسترجع نفسى وأعود إلى تأمل ذاتى .

فيلونوس : أنت السمع . أليس هذا هو جرس الكلية ؟

هيلاس : بلى . إنه يدق للصلاة .

فيلونوس : لندخل إذن -- إذا سمحت بذلك . ولنتقابل باكر صباحا هنا وفى الوقت نفسه تأمل الأفكار التى تحدثنا فيها هذا الصباح ، ولتحاول أن تضع أيديك على أية مغالطة فيها لتجد لك مخرجا منها .

هيلاس : إتفقنا على هذا .

المحاورة الثانية

هيلاس : معذرة يافيلونوس لأنى لم أستطع أن أبكر فى الحضور لمقابلتك أكثر من هذا فقد كانت رأسى طوال هذا الصباح تضطرب بكل ما دار بيننا فى مناقشتنا الأخيرة حتى أنه لم يعد لى من الفراغ ما أحسب به حساب الزمان أو أى شىء آخر .

فيلونوس: يسرنى أن أسمع منك أنك مهتم بهذه المناقشة . وكلى أمل أن تكشف لى عن كل ما عسى أن تكون قد وجدته من أخطاء فيما سلمت لى به أو من مغالطات فى الاستـــدلالات التى أدليت بها إليك .

هيلاس : أوكد لك أنى لم اجد شيئاً مما تبحث عنه من أخطاء ومغالطات فقد عكفت على كل مادار بيننا أمس من مناقشة وبحثته بحثا دقيقا ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح وذلك لأنه جميع الأفكار التى ناقشناها معا بدت لى بعد إعادة التأمل فيها انها مازالت واضحة لا تشوبها شائبة . وكلما أمعنت النظر فيها حـــازت قبولى بقوة وصلابة لامقاومة لهما .

فيلونوس: ألست ترى معى أن هذا دليل على عبقرية هذه الأفكار ، على أنهـا تتفق مع طبيعة الأشياء وتتمشى مع العقل الصحيح ؟ ان هذا هو شأن أفكار مثل فكرتى الحق والجمال فكل معالجة جدية لها لا يمكن إلا أن تكون فى صالحهما فى حين أن محاولة إخفائها فى ثوب براق من

الأفكار الزائفة الخاطئة لا تلبث أن تنكشف ولا تحتمل النظرة الفاحصة أبداً .

هيلاس : أقر لك بأن حديثك هذا فيه الكثير مما يروقنى . وليس هناك من يستطيع أن يقتنع بصدق النتائج الغريبة التى وصلنا إليها أكثر منى لأن جميع الإستدلالات التى قادتنا إليها حاضرة كلها أمام ذهنى ولكننى حتى لو طرحت هذه الاستدلالات جانبا فأنا أعترف - من ناحية أخرى بأن الطريقة الحديثة التى أتبعتها معى فى الشرح طريقة فيها كثير من الإقناع وتبدو لى أنها طبيعية ومعقولة بحيث لا أستطيع مناقضتها .

فيلونوس: لا أعرف عن أى طريقة تتحدث .

هيلاس : أقصد الطريقة التى أتبعتها فى شرح الإحساسات أو الصور .

فيلونوس: كيف ؟

هيلاس : من المسلم به أن النفس تحتل مكانها فى جزء من المخ ، وهذا الجزء عينه يكون مركز الأعصاب الذى تنتشر منه النفس فى سائر أجزاء الجسم : وهذه الأجسام الخارجية القائمة فى العالم الخارجى تؤثر آثاراً مختلفة على أعضاء الحس ، من شأنها أن تحدث تحركات إهتزازية خاصة تنتقل إلى الأعصاب . ولما كانت هذه الأعصاب مليئة بالأرواح فإن هذه الأرواح تنتقل بدورها من الأعصاب إلى المخ أو مركز النفس وينتج عن طريقة تأثيرها التى تحدثها فى المخ الصور المختلفة التى تختلف الآثار التى تحدثها فى المخ .

فيلونوس: أتسمى هذا الوصف شرحا للطريقة التى تؤثر بها الصور فنيا ؟

هيلاس : ولم لا يافيلونوس ؟ هل لديك إعتراض توجهه إلى هذا الشرح ؟

فيلونوس: أود أن أعرف أولا إذا كنت قد فهمت عنك هذا الوصف . فأنت

تذهب إلى إن أصل الصور التى تظهر فنيا هو تلك الآثار التى ترسم فى المخ . فأرجوك أولا أن تحدد لى ماتفهمه من المخ . فهل المخ عندك شيء محسوس ؟

هيلاس : ماذا عساك أن تظن أنى أعنى به خلاف ذلك ؟

فيلونوس: الأشياء المحسوسة جميعها قابلة للإدراك المباشر ، والأشياء القابلة للادراك المباشر هى ما نسميه بالصور ، والصور لا وجود لها إلا فى العقل . أظن ـ إذا لم اكن مخطئا ـ أنك قد إتفقت معى على هذا كله قبل ذلك .

هيلاس : لا أنكر هذا .

فيلونوس: وعلى ذلك ، فلما كان المخ ـ كما تقول ـ شيئاً محسوساً فلابد من وجوده فى العقل والذى أتطلع إلى معرفته منك بعد ذلك هل إذا كان من الحكمة أن تذهب إلى وجود صورة أوشيء قائم فى العقل يؤدى إلى إحداث جميع الصور الأخرى ؟ وإذا كنت ترى ذلك فعلى أى نحو تتصور أصل هذه الصورة الأولية التى هى المخ ؟

هيلاس : إننى لم أذهب إلى تفسير نشأة الصور بهذا المخ القابل للإدراك عن طريق الحواس بل بمخ آخر أتخيل وجوده ، لأن المخ الأول الذى تتحدث عنه ليس شيئاً آخر إلا مجموعة من الصور الحسية

فيلونوس : ولكن أليس وجود الأشياء التى تتمثلها قائما هو الآخر فى العقل كقيام الأشياء المدركة ؟

هيلاس : لابد أن أعترف بذلك .

فيلونوس: الأمر سيان إذن (المخ الذى تتخيله يشابه المخ المدرك بالحواس) . فكيف إذا تفكر ـ منذ أن تناقشنا هذا الصباح فى البحث عن أصل

الصور بإرجاعها إلى الآثار الحسية المطبوعة فى المخ ، أى بإرجاعها إلى بعض التغيرات التى تطرأ على الصورة سواء كانت محسوسة أو متخيلة .

ميلاس : لقد بدأ الشك يتسرب إلى فيما يتعلق بصحة هذا الإفتراض .

فيلونوس: إن كل مانعرفه أو نتصوره ـ ما عدا الارواح ـ ليس إلا صورنا . فعندما تقول إذن إن جميع الصور ترجع إلى هذه الآثار الحسية المرسومة فى المخ ، أريد أن اعرف منك إذا كنت تتصور هذا المخ أم لا ؟ فاذا كنت تتصوره فإن حديثك عن المخ سيفسر على النحو التالى: وجود صور مطبوعة [وهى الآثار الحسية] فى صورة معينة [وهى المخ] وتؤدى إلى ظهور هذه الصورة عينها [وهى المخ] والتناقض واضح. أما إذا لم تكن تسلم بتصور المخ فإن حديثك لن يكون له معنى على الاطلاق وسيكون افتراضك بعيداً عن العقل .

ميلاس : الآن قد إتضح لى أن إفتراضى لم يكن إلا مجرد حلم وأنه لم يكن يحتوى على شىء إطلاقاً .

فيلونوس. الحق إنك لم تكن بحاجة إلى أن تلقى أى بال لهذا الإفتراض لأن طريقتك هذه فى الشرح لم تكن لتعجب أى رجل عاقل . فأية علاقة من الممكن أن تقوم بين حركة الاعصاب وبين إحساساتنا الذاتية بالصوت أو باللون ؟ أو كيف يكون من الممكن أن ننظر إلى هذه الإحساسات على إنها نتيجة لتلك الحركات ؟

ميلاس : لم يكن يخطر لى ببال قبل الآن أن هذه الفكرة تشوبها ذرة من الشك .

فيلونوس: حسنا ياهيلاس . هل إقتنعت بعد هـذا بأن الأشياء المحسوسة ليست موجودة وجودا واقعياً وأنك في الحقيقة شاك ضليع .

هيلاس : أصبح هذا من الوضوح بحيث لا يمكن إنكاره .

[برهان على وجود الله]

فيلونوس : أنظر يا هيلاس : ألا ترى إلى هذه الحقول وقد اكتست بخضرة جميلة ؟ أليس في رؤية الغابات والخمائل، والأنهار والجدوال الرقراقة ما يقر العين ويثلج الصدر ويسبح بالروح في آفاق بعيدة؟ وعند رؤيتنا للمحيط الواسع العميق أو للجبل الضخم الذى تختفى قمته بين السحب أوحتى للغابة الكثيفة ، ألا تمتلىء نفسنا بنوع من الخوف المشوق ؟ وحتى في رؤيتنا للصخور والصحارى ألا نشعر بأننا أمام طبيعة متوحشة ولكنها ممتعة في الوقت نفسه ؟ فهل هناك إذن سرور أعمق من السرور الذى نشعر به عند تأملنا لنواحى الجمـال الطبيعى الذى تزخر به الأرض ؟ ولكى نحتفظ دائما بشعورنا هذا نحو الطبيعة ونجدده يجىء الليل كل يوم فينشر ستاره على الكون يحجب الطبيعة عنا ثم يعود ضوء اليها فيظهرها لنا ؟. والطبيعة ، فضلا عن ذلك، لا تكف عن تغيير ثيابها في كل فصل من الفصول وتلبس لنا حلة جديدة . ثم أية قدرة تلك التى تتجلى في تجمع عناصر الطبيعة ؟ وأية فائدة متنوعة نحصل عليها من تلك الطبيعة عن طريق استقلالها ؟ وأية رقة وأى جمال وإنسجام يطالعنا عند

النظر إلى أجسام الحيوانات وتكوين النباتات ؟ وأية روعة تلك التى تأخذ بنا عندما نرى كل شىء فى الوجود وقد وضع موضعه ، ويهدف إلى الغاية التى خلق من أجلها ويساهم فى نهاية الأمر فى خلق كل منسجم وإن تفاوتت أجزاؤه ؟ ثم أنظر إلى الموجودات فى تعاونها المتبادل وتآزرها المشترك أليست بهذا تخدم بعضها بعض ويساهم كل منها فى توضيح وجود الآخر ؟

وإذا تركت الآن هذه الكرة الأرضية، وتأملت النجوم المضيئة التى تتلألأ فى كبد السماء ، فهلا ترى معى أن حركة الكواكب المختلفة وأوضاعها التى تتخذها فى السماء تفيدنا فائدة عظمى فى تنظيم شئوننا وتدبير الكون معا ؟ هذه الأجرام السماوية التى يطلق عليها خطأ الأجرام الضالة ، هل تضل طريقها أبدا فى هذه الرحلات اليومية التى تقوم بها فى الفضاء اللانهائى ؟ أليست هذه الأجرام تستطيع وحدها قياس المسافات حول الشمس قياساً يتمشى تماما مع الزمن الذى تحتاجه فى قطعها ؟ فأى ثبات إذن تتصف به هذه القوانين الدقيقة التى يُسَيِّرُ بها خالق الكون الطبيعة ؟ وأية حيوية تشع من تلك المشكاة السماوية مشكاة النجوم الثابتة . وهذا العدد الهائل من النجوم الذى يبدو فى القبة الزرقاء مبعثرا بشىء كبير من الإهمال ، ألست ترى معى على الرغم من ذلك أن رؤيته رؤية حبيبة إلى النفس وتملؤها بالروعة . وإذا أمسكت بالتلسكوب وأدرته نحو السماء ، فإنه يطلعك على عدد هائل آخر من النجوم لم تستطع العين المجردة أن تكتشفه وبالعين المجردة تبدو هذه النجوم

متلاصقة وصغيرة ، ولكنها تبدو أمام المقراب أجراما مضيئة متباعدة ، غارقة فى الفضاء المتسع . وحينئذ تشعر بالحاجة إلى معاونة الخيـــال فى الإدراك . ذلك لأن الحس المجرد الضعيف لا يستطيع بمفرده أن يكتشف هذه العوالم العديدة التى تنشر حول هذه المراكز المضيئة ، والتى تنطق بوجود عقل مطلق الكمال ، يدبرها بحكمة تتعدد صورها وأشكالها . ومع ذلك فإنه لا الخيال ولا الحس يستطيعان أن يدركا عظمة هذا الفضاء اللامتناهى بكل ما يشتمل عليه من أجرام مضيئة . فعلى الرغم من أن العقل المتأمل اليقظ يبذل قصارى جهده فى تقريب الأشياء إليه ، إلا أنه سيظل أمامه ميادين هائلة تتصدى طاقته . ولكن على الرغم من إنفصال هذه الأجسام التى يشتمل عليها هـذا الإطار فى داخله بعضها عن البعض الآخر ، إلا أنها تتعاون بعضها مع البعض الاخر ، وتتعاون كذلك مع الأجسام التى فى الكرة الأرضية التى كنت قد نسيتها فى غمرة التفكير فى السماء عن طريق ضرب من الآلية الخفية أو من القوة والقدرة الإلهين . أليس هذا النظام شاملا وجميلا ورائعا بحيث يتعذر علينا أن نحيط به أو نلم بأطرافه . وبأى شىء يستحق أن ننعت هؤلاء الفلاسفة الذين يجردون هذه المناظر الجميلة الرائعة من كل حقيقة . وكيف نحكم على هذه المبادىء التى تجعل من هذا الجمال الواضح للكون المخلوق مجرد مناظر وهمية خيالية . وإذ أردت صراحة أكثر ، ألست تتوقع أن ينظر كل من عنده شىء من الإدراك إلى مذهبك الشكى هذا على أنه خرق عمن .

هيلاس : لكل أن ينظر إليه حسب ما يشتهي، ولكنك لن تستطيع أن تلومني على شيء . إذ أنني أرى أنك لست أقل شكا مني .

فيلونوس : هنا يا هيلاس ، ولابد أن أستمحيك في لفت نظرك إلى أنني أختلف معك تمام الإختلاف في هذا .

هيلاس : ماذا : ألم تتفق معي في جميع المقدمات . لماذا أراك إذن تتخلص من النتيجة وتتركني وحدي أتحمل مغبة هذه الأغاليط التي قدتني أنت إليها . إن هذا عمل يجانب الحق بكل تأكيد .

فليونوس : إنني أنكر اتفاقي معك في تلك الأفكار التي قادتك إلى الشك . فقد ذهبت إلى أن حقيقة الأشياء المحسوسة قائمة في وجود مطلق يوجد خارج عقولنا ونفوسنا ويتميز عن كونها مدركة بواسطتنا . وتبعا لهذه الفكرة التي كونتها عن الحقيقة اضطررت إلى أن تنكر الوجود الحقيقي للأشياء المحسوسة . ومعنى ذلك أن مبادئك نفسها ، هي التي تجعلك تعترف بأنك شاك . أما أنا . فلم آمل أبداً أو لم أظن مطلقا أن حقيقة الأشياء المحسوسة من الممكن تعريفها على هذا النحو . فمن الواضح أن الأشياء المحسوسة . بالنسبة إلى ، وتبعا للحجج التي سقتها لك وسلمت أنت بها ، لا وجود لها إلا في العقل أو النفس .

ولكنى لا أستنتج من هذا أن هذه الأشياء المحسوسة ليس لها وجود حقيقى . ولكنى أسلم أن لها وجوداً لايتوقف على تفكيرى، ومستقلا عن كونها مدركة بواسطتى . وأقول إنه لا بد من وجود عقل آخر تقوم فيه هذه الأشياء ، وعلى ذلك فكما أنى على يقين من أن دنيا الأشياء المحسوسة لها وجود حقيقى كذلك فإنى على يقين من أن وجود عقل لا نهائى كلى يحتوى هذه الأشياء المحسوسة ويضمها ويحفظها .

هيلاس : إن هذا ليس شيئا مختلفا عما أعتقده أنا ويعتقده معى جميع المسيحين، لا بل عما يعتقده سائر الناس الذين يسلمون بوجود إله عليم ومحيط بكل شىء .

فيلونوس : لا ، بل هناك فارق بيننا . فالناس جميعا يعتقدون بأن الله هو الذى يعرف ويدرك الأشياء لأنهم يعتقدون بوجود الله ابتداء من القضيـــة التى تقول إن جميع الأشياء المحسوسة يجب أن تدرك به .

هيلاس : ولكن مادمنا نؤمن جميعا بهذا فالبحث عن الطريقة التى توصلنى إلى هذا الإعتقاد لا يعنينى .

فيلونوس : ولكننا لسنا جميعا متفقين فى هذا الإيمان فالفلاسفة مثلا على الرغم من أنهم يسلمون بأن الأشياء الجسمانية يدركها الله إلا أنهم يقولون إن لهذه الأشياء وجودا مطلقا ، مستقـــلا عن ادراك أى عقل . وبالاضافة إلى ذلك ، أليس الفارق واضحا بين أن أقول : إن هناك

إلها ، ولذلك فهو قادر على إدراك جميع الأشياء وبين أن أقول : إن الأشياء المحسوسة لها وجود حقيقي ، وإذا كانت كذلك فلابد أن تكون مدركة بواسطة عقل لامتناه ، ولذلك فإن هنـــاك عقلا لامتناهيا أو إلها ؟ فهذا القول الثاني يمدنا ببرهان مباشر .. قائم على أساس واضح : على وجود الله . وهو قول يختلف عما قدمه لنا الفلاسفة ورجال الدين ، من خلال مناقشاتهم العديدة كدليل على وجود الله عندما يتخذون نقطة بدئهم من جمال المخلوقات وفائدتها، ثم رتبوا على ذلك ضرورة وجود صانع أو إله لهذا الجمال .

ولكن استنتاج وجود عقل لامتناه ابتداء من مجرد وجود العالم المحسوس أمامنا لايقدر عليه إلا هؤلاء الذين يؤمنون بصحة المبدأ البسيط الذي يقول بأن العالم المحسوس ليس إلا ما ندركه بحواسنا العديدة وبأنه لا وجود لشيء وراء الصور التي تدركها بالحواس وبأنه لا وجود لأية صورة أو لأي نموذج الصور مستقـــل عن العقل ، ضاربين صفحا عن الإستعانة بعلوم كعلم الفلك أو الفلسفة الطبيعية ، غير مبتدئين من توافق الأشياء في الكون وما يشير إليه من نظام وانسجام . واعتمادا على هذا المبدأ البسيط ، تستطيع — دون أي جهد تبذله في البحث العلمي، ودون الاعتماد على الحجج الدقيقة أو الالتجاء إلى المقالات المسهبة الثقيلة تستطيع أن تُسَخِّفه كل دفاع الملاحدة وتنقضه من أساسه ، سواء كان هذا الدفاع مستنداً إلى فكرة الارتباط القديم الازلي الآلي للعلل بالمعلولات أو إلى اجتماع ذرات الأشياء بالصدفة إلى آخر هذه الحجج التي تثير الرثاء وهذه الشطحات المغرقة التي

قدمها لنا فلاسفة من أمثال فانينى Vanini [1] وهوبز واسبينوزا وفى كلمة واحدة ألا تستطيع أن تنقض كل المذهب الإلحادى من أساسه إبتداء من نقضك للفكرة القائلة بعدم وجود الكون المرئى أو أى جزء منه مهما كان هذا الجزء خاليا من الجمال والإنسجام فى إستقلال العقل؟ ليتأمل أى فرد من هؤلاء الباذرين للفساد المحرضين على الفساد أفكاره الخاصة ليرى إذا كان فى إمكانه أن يتصور وجود صخرة أو صحراء أو خلاء أو مجموعة مختلطة من الذرات وباختصار وجود أى شىء سواء كان محسوسا أو متخيلا فى استقلال عن العقل. ولن يكون بحاجة إلى المضى بعيداً فى فكرته الخرقاء هذه ثم هل هناك أعدل من أن ندع المناقشة تنتهى بهذه الفكرة، لنترك للانسان نفسه حرية الحكم على تصوراته هو ليرى أياً منها يطابق الواقع ولينتقل بها من الوجود التصورى إلى الوجود الواقعى.

هيلاس: ليس من شك فى أن أقوالك هذه فيها ما يخدم الدين. ولكن ألا ترى معى أنهـــا شديدة الشبه بفكرة قال بها بعض الفلاسفة الجهابذة من المحدثين عندما قرروا أنهم يرون كل الأشياء قائمة فى الله؟

فيلونوس: أكون شاكرا لو عرضت هذه الفكرة بالتفصيل لتتفضل إذن بشرحها لى.

هيلاس: إنهم يقولون إن النفس نظراً لطبيعتها غير المادية لا تستطيع أن تتحد بالأشياء المادية أو تطلع على وجودها فى ذاتها وإنما تدرك هذه الأشياء عن طريق اتحادها بالجوهر الإلهى، وهو جوهر روحانى، وعقل محض، وبهذا يصلح لان يكون موضوعاً مباشراً لتفكير النفس وفضلا عن ذلك، فان الجوهر الالهى يضم جميع الكمالات التى

---

(١) هو الفيلسوف الإيطالى لوشيليو فانينى الذى حكم عليه بالحرق فى تولوز لترويجه مبادىء الإلحاد والشعوذة (١٥٥٨ — ١٦١٩).

يقابل كل منها موجودا واحداً بعينه ولهذا فإن إدراك العقل لهذه الموجودات يتم عن طريق تأمله لهذه الكمالات القائمة فى الجوهر الإلهى .

فيلونوس : أنا لا أفهم كيف أن صورنا بإعتبار أنها أشياء سلبية لا حركة فيها من الممكن أن تكون ماهية الله أو جزءاً من ماهيته ، بإعتبار أن الله هو الكائن الذى لا أثر للسلب فيه ، الفعل المحض ، غـير المنقسم . وهناك صعوبات وإعتراضات كثيرة أخرى من الممكن أن توجهها لأول وهلة ضد هذا الإفتراض من تناقضات ترجع إلى الافتراض الأول الذى يقول بوجود العالم فى استقلال عن العقل أو الروح المطلقة ثم إن هذا الافتراض له هذه الخاصة الفريدة التى تجعل العالم المادى عالماً لاهدف له . وإذا سلمنا بصحه بعض الحجج التى يستخدمها بعض العلماء فى البرهنة على أن العناية الالهية تؤدى بعض الأحيان أفعالا لا طائل من ورائها أو أنها تؤدى بطرق أقصر ، فماذا يكون موقفنا بالنسبة إلى هذا الافتراض الذى يريد أن يجعل من الكون كله كونا لا طائل من ورائه ؟

[باركلى ومالبرانش]

هيلاس : ولكن ما رأيك أنت فى الرأى الذى يقول بأننا نرى جميع الأشياء الأشياء فى الله ؟ إذا لم أكن مخطئا فى ظنى فإن ما تقوله هنا قريب الشبه بهذا الرأى .

فيلونوس : إن الآراء كثيرة ، ولكن قلة من الناس هم الذين يفكرون فى آرائهم . ولذلك فان آراء الناس كثيراً ما تجىء سطحية مختلطة فليس بمستغرب

بعد ذلك أن المذاهب المتباينة أشد التباين يختلط بعضها بالبعض الآخر نتيجة لتدخل هؤلاء الذين لا يتعمقونها . ولذلك، فإن أدهش إذا ظن بعض النـــاس أنى أكرر هنا أقوال فيلسوف معين هو مالبرانش مع أنى - والحق يقال - بعيد عنه كل البعد . فهو قد أقام مذهبه على مجموعة من الأفكار المجردة، فى حين أنى لا أعترف بالأفكار المجردة إطلاقا . وهو قد سلم بوجود عالم خارجى مستقل مطلق، وأنا أنكر ذلك . وهو يذهب إلى أن حواسنا تخدعنا وكثيرا ما تحجب عنا طبيعة الأشياء الحقيقية أو الصور الواقعية للأشياء الممتدة، وأنا ضد هذا كله . وفى الجملة ليس هناك أشد تناقضا مع مبادئى من أقواله . ويجب أن أعترف هنا بأنى متفق تماما مع ما يقوله الكتاب المقدس : « إننا نحيا ونتحرك ونشعر بوجودنا فى الله ». ولكن القول بأننا نرى الأشياء قائمة فيه، على نحو ما شرحت ذلك آنفاً، فهو قول بعيد عما اعتقده. فكل ما أقصد إليه باختصار هو الآتى : من الواضح أن الأشياء التى أدركها هى صورى أنا، وأنه لا وجود لصورة ما إلا فى عقلى أنا . وليس بأقل وضوحاً من هذا أن هذه الصور أو الأشياء المدركة بواسطتى، سواء هى فى ذاتها أو نماذجها لها وجود مستقل عن عقلى، لأنى أعلم أنى لست مصدرها وليس فى وسعى أن أحدد بسهولة أى الصور ستؤثر فى عندما أقوم بفتح عينى أو بإرهاف إذنى . فلا بد إذن أن تكون هذه الصور قائمة فى عقل آخر، يملك من الإرادة ما يجعله يعرضها أمامى . وأنا أسمى الأشياء التى أدركها إدراكا مباشراً بالصـــور أو الإحساسات، سمها كما تشاء . ولكن كيف يمكن للصورة أو للإحساس أن يوجد فى شىء آخر غير العقل أو الروح وكيف يمكن

أن ينشأ إلا منه ؟ أن هذا لا نستطيع تصوره ، والتمسك بما لا نستطيع تصوره ، ضرب من الخرق . أليس كذلك ؟

هيلاس : بلا شك .

فيلونوس : ولكن من ناحية أخرى من المعقول أن الصور توجد وتنشأ فى روح مطلق ، ما دام هذا أمر أشاهده يوميا لأنى أدرك فى اليوم الواحد عدداً هائلا من الصور ، وأضم بعضها إلى البعض الآخر من طريق إرادتى ثم أقوم بعرضها على مخيلتى . ولكن يجب أن نسلم بان ما تنتجه مخيلتى من صور لا يكون فى وضوح وقوة وحيوية وثبات الصور التى أدركها بالحس ، وهى الصور التى يطلق عليها الأشياء الواقعية ، والنتيجة لهذا كله أن هناك عقلا كلياً يؤثر فى عقلى ، فى كل لحظة من اللحظات ، بجميع الآثار الحسية التى أدركها ، ولما كانت هذه الآثار تبدو أمامى منظمة منوعة أستنتج أن مصدرها أو خالقها لابد أن يكون حكيما ، قوياً ، خيرا ، لا أستطيع الإحاطة به .
ولكن عليك أن تلتفت تماماً إلى ما أقول : فأنا لا أذهب إلى أنى أرى الأشياء عن طريق إدراكى لما يمثلها عقلى الجوهر الإلهى ، فهذا قول لا أفهمه ، بل أذهب إلى أن الأشياء التى أدركها تعرف عن طريق عقلى ، وبتأثير إرادة الروح اللامتناهى . أليس هذا كله واضحا سهلا ؟ أليس هذا ما نصل اليه عن طريق الملاحظة البسيطة لما يجرى فى عقولنا مما يسهل لنا تصوره ويضطرنا إلى الاعتراف بصحته ؟ هل من الممكن وجود مادة إلى جانب وجود الله ؟

هيلاس : اعتقد أننى قد فهمتك الآن بوضوح ، واعترف أن البرهان

الذى قدمته الدلالة على الالوهية يبدو واضحا وطريفاً معا ، ولكن إذا سلمنا بأن الله هو علة العالم أو العلة العامة لكل شىء فهل معنى ذلك عدم وجود شى ثالث إلى جانب النفوس والصور ؟ أليس من الجائز أن نسلم بوجود علة أخرى ثانوية محدودة للصور الى جانب علة العالم ؟ وفى كلمة واحدة ، أليس من الجائز أن نسلم بوجود المادة كعلة مباشرة لجميع الصور ؟

فيلونوس : كم مرة أكرر لك نفس الشىء ؟ أنت تسلم بأن الاشياء التى تدرك عن طريق الحس لا وجود لها مستقلة عن العقل ، ولما كانت الاشياء التى تدرك بالحس لابد أن تدرك مباشرة ينتج من ذلك أنه لا وجود لشىء مستقل عن العقل . فلا بد أن تكون المادة التى ما زلت تصر على وجودها شيئا عقلياً ، أى شيئا يكتشف بالعقل وليس بالحس .

هيلاس : أنت على حق .

فيلونوس : أرجوك إذن أن تشرح لى الاسباب العقلية التى تقيم على أساسها اعتقادك بوجود المادة وأن تفسر لى ماذا عسى أن تكون المادة كما تتراءى لك.

هيلاس : إننى أجد نفسى مسرحا لافكار كثيرة أعرف أننى لست مصدرها ، ولا هى مصدر نفسها ، وليست إحداها مصدراً لها ، وليس لها وجود قائم بذاته لأنها جميعها أشياء سلبية ، عابرة ، تعتمد على غيرها فى وجودها . وعلى ذلك ، فلا بد أن يكون لها مصدر مستقل عنى وعنها ، وهذا المصدر لا أزعم أننى أعرف عنه إلا أنه مصدر أفكارى أو صورى . وهو ما أطلق عليه إسم « المادة » .

فيلونوس : خبرنى يا هيلاس ، هل كل شخص له من الحرية ما يجعله يغير المعنى

الخاص بكلمة ما من الكلمات المستخدمة في لغة ما . لنفرض مثلاً أن سائحاً أخبرك أن الناس في قطر ما من الأقطار يستطيعون أن يمروا وسط النار دون أن يصابوا بأذى ثم اكتشفت أخيراً أنه يعني بكلمة النار ما نعنيه نحن بالماء ، أو لنفترض أنه قال لك إن هناك أشجاراً تسير على رجلين . وكان يقصد بالأشجار الناس ، فهل ستنظر إلى كلامه هذا على أنه كلام معقول ؟

هيلاس : لا . بل سأنظر إلى كلامه هذا على أنه نوع من الخلط فالعرف هو المعيار الذي نحكم به صحة اللغة . والإنسان الذي يستخدم الألفاظ استخداماً غير صحيح يسيء إلى الغرض من الحديث ، ولن يفيدنا إلا في إطالة المناقشات والمشاحنات حول الفكرة الواضحة في ذاتها .

فيلونوس : ثم أليست كلمة « المادة » في استخدامها الشائع تدل على جوهر ممتد صلب متحرك غير مفكر وخال من الفاعلية ؟

هيلاس : بلى

فيلونوس : ألم يتضح لك أن هذا الجوهر بصفاته هذه لا يمكن أن يوجد ؟ ولكن لنفترض جدلاً أنه موجود فكيف يمكن أن يكون ما هو خال من الفاعلية سبباً أو علة لما به فاعلية ؟ أو كيف يمكن أن يكون ما هو غير مفكر علة للفكر ؟ حقاً ، قد تكون تقصد بكلمة المادة معنى آخر يناقض المعنى المتعارف لها . فقد تدل عندك على الفكر غير الممتد أو على الوجود الفعال ، مصدر الصور . ولكن إذا كان هذا صحيحاً ، فلن يكون هذا إلا لعباً بالألفاظ وارتكاباً لنفس الخطأ الذي اتفقت معي الآن — بحق — على مقاومته . فانا أوافقك على البحث عن العلة بين الظواهر ، ولكني أنكر أن تكون هذه العلة إسمها « المادة » .

هيلاس : هناك وجه حق فيما تقول . ولكنى أخشى ان تكون قد أخطأت فهم ما أريد . فأنا لا انكر أن الله أو الروح المطلق هو علة جميع الأشياء . ولكنى أذهب إلى أن هناك - إلى جانب علة العلل هذه - علة ذات طبيعة محدودة وأثرها أقل من أثر علة العلل ، وهذه العلة المحدودة هى التى تؤثر فى إيجاد الصور لا على أى نحو روحى ، ولكن بهذا النوع من التأثير الذى يتعلق بالمادة ألا وهو الحركة .

فيلونوس: إنى أجدك فى كل مرة تعود إلى فكرتك القديمة البالية ، التى تقول بوجود جوهر متحرك ، وبالتالى ممتدا ، قائما خارج العقل . هل نسيت بهذه السرعة ما كنت قد اقتنعت به ؟ أم إنك تريد منى أن أكرر ماسبق أن قلته لك فى هذه النقطة ؟ الحق انه ليس عدلا منك أن تفترض وجود شىء سلمت معى دائماً بأن لا وجود له . ولكن ، لكيلا نعود إلى مناقشة ماسبق أن عرضناه تفصيلا ، أو أن أسألك سؤالا واحداً : هل جميع صورك أو أفكارك سالبة سلبية تامة ولا أثر فيها للفاعلية على الإطلاق أم لا ؟

هيلاس : هى كذلك ، سلبية خالصة .

فيلونوس: أليست الصفات المحسوسة شيئاً آخر إلا الصور ؟

هيلاس : كم مرة أقول لك إنها ليست شيئاً آخر سوى ذلك ؟

فيلونوس: والآن ، أليست الحركة صفة محسوسة ؟

هيلاس : بلى

فيلونوس: وبالتالى فليس فيها أية فاعلية ؟

هيلاس : أنا متفق معك إذ أن هذا حق بدليل أنى عندما أحرك إصبعى فن

الواضح أنه يظل سلبيا ، أما إرادتى التى تتدخل فى إحداث الحركة فهى وحدها ذات الفاعلية .

فيلونوس: أريد أن أعرف الآن ثلاثة أمور . أولا ، إذا كنت قد سلمت بأن الحركة لا تحتوى على أية فاعلية ، فهل ترى فاعلية أخرى إلى جانب فاعلية الإرادة ؟ وثانيا ، إذا كنت لا ترى هذه الفاعلية ، وتصر مع ذلك على وجودها ، فهل تتفق معى فى أن هذا سيكون كلاما لا معنى له ؟ وأخيراً ، إذا كنت سلمت بهذه المقدمات ، ألا ترى معى أن افتراض أية علة للصور غير الروح يكون افتراضـــا غير معقول ولا معنى له ؟

هيلاس : المادة آلة أو اداة . ولكن لم تكن المادة علة ، فأى شىء يمنع من أن تكون آلة أو إداة تساعد الفاعل الأكبر : علة العلل ، فى إنتاج الصـور ؟

فيلونوس: تقول إنها آلة ؟ خبرنى بربك إذن ماعسى أن يكون شكل هذه الآلة ؟ وماهى « تروسها » وعجلاتها وحركاتها ؟

هيلاس : هذه أمور لا أزعم إنى أعرف عنها شيئاً ما دام الجوهر المادى نفسه وصفاته كلها مجهولة منى .

فيلونوس: أنت ترى إذن أن هذه الآلة مكونة من أجزاء غير معروفة ، وأن لها حركات مجهولة ، وشكلا غير معروف أيضاً ؟

هيلاس : إنى اعتقد أن هذه الآلة لا شكل لها على الإطلاق وليست لهـا حركة أيضـا مادمنا قد اقتنعنا بأنه لا وجود للصفـات المحسوسة فى جوهر خارجى غير مدرك .

فيلونوس: ولكن أية فكرة نستطيع أن نكونها عن آلة مزعومة ليس لها أية صفة محسوسة ، حتى صفة الامتداد نفسها ؟

هيلاس : إننى لم أدع أن لدى فكرة ما عنها . ـ

فيلانوس: ولكن ما الذى يدعوك إذن الى الاعتقاد بوجود هذا المجهول ، أوهذا الشىء الذى لا نستطيع تصوره ؟ هل تعتقد بوجوده لاعتقادك أن عمل الله سيكون بدون هذا الشىء فعلا محدودا غير كاف ؟ أم ان اعتقادك بوجوده يرجع إلى ان التجربة قد دلتك على فائدة وجود مثل هذا الشىء ، عندما تأخذ فى تمثل الصور فى عقلك ؟

هيلاس : أراك دائماً تبحث عن أسباب أبرر بها اعتقادى بوجود هذا الشىء . فأرجوك أن تخبرنى من جانبك عن الأسباب التى تجعلك لا تعتقد بوجوده .

فيلونوس: إننى أرى أن فشلى فى العثور على سبب واحد يبرر اعتقادى بوجود شىء هو فى حد ذاته سبب كاف للاعتقاد بعدم وجوده . ومن ناحية أخرى ، إذا تركنا جانباً البحث عن الأسباب التى تجعلنا نعتقد بوجود هذا الشىء ، فإنك لن تستطيع أن ترشدنى عما يجب على أنا أن اعتقده [أو لا اعتقده] مادمت أنت نفسك ليست لديك أية فكرة عن هذا الشىء الذى تتحدث عنه وأرجوك بعد هذا كله أن تخبرنى إذا كان من اللائق بك كفيلسوف أو حتى كرجل له عقل أن تدعى الاعتقاد بوجود شىء لا تدرى ماهو ، ولا تدرى حتى لم تعتقد بوجوده .

هيلاس : إسمع يا فيلونوس . عندما أقول لك إن المادة آلة أو أداة ، فليس

معنى ذلك أنى أعرف شيئا عنها . فأنا لا أعرف أى نوع من الآلة هى ، ولكن لدى على كل حال فكرة ما عن الآلة بوجه عام . وهذه الفكرة العامة هى التى أقول إنها تتعلق بالمادة .

فيلونوس : ولكن ما رأيك فى أن وجود مثل هذه الآلة ، حتى فى معناها العام الذى تتحدث عنه ، باعتبار أنها مجرد أداة مساعدة وليست علة بجعل وظيفتها غير متفقة مع وجود الله وصفاته ؟

هيلاس : وضح لى فكرتك فى هذه النقطة وأنا مستعد أن أسلم لك بوجهة نظرك كلها .

فيلونوس : ماذا تقصد بالطبيعة العامة أو بالفكرة العامة التى لديك عن المادة ؟

هيلاس : أقصد بذلك ماهو مشترك بين سائر الآلات الجزئية وما يكون فكرتنا العامة عن كل آلة .

فيلونوس : أليست الآلة بمعناها العام تدل على الشىء الذى نستخدمه فى أداء أفعال نعجز عن فعلها بإرادتنا وحدها ؟ فمثلا إننى لا ألجأ إلى الآلة لتحريك إصبعى لأن هذه عملية أستطيع أن أقوم بها بالإستعانة بإرادتى وحدها ولكنى استخدم آلة عندما احتاج إلى رفع صخرة أو نزع شجرة من جذورها ، ألا توافقنى فى هذا ؟؟ أريد منك مثالا واحدا تستطيع أن تثبت لى فيه أنك تستعين بالآلة فى فعل يتعلق بإرادتك وحدها ؟؟

هيلاس : اعترف بأنى لا أستطيع .

فيلونوس : كيف يتسنى لك إذن أن تفترض أن الروح الكاملة كمالا مطلقا التى يعتمد عليها سائر الأشياء اعتمادا رئيسيا ومباشرا ، يكون فى حاجة إلى أداة أو آلة فى الإتيان بأفعاله أو فى استخدامها فقط إذا سلمنا بعدم

حاجته إليها ؟ يبدو لى إذن أن افتراضك هذا سيضطرك إلى الإعتراف بأن فائدة هذه الآلة التى لا حياة ولا حركة فيها لا معنى لها أو لا تتفق مع كمال الله المطلق ، ســـلم لى إذن بوجهة نظرى ما دمت قد وعدتنى بذلك .

هيلاس : لا أعرف بماذا أجيبك الآن . .

فيلونوس : ولكننى اعتقد أنه يجب عليك أن تظهر استعدادك لقول الحق مادمت قد برهنت لك عليه . حقا ، إن الكائنات المحدودة القوى مثلنا مضطرة لأن تستعين بالآلات . ولكن استخدام الآلة يظهرنا على أن الإنسان مقيد بقوانين معينة وعلى أنه لا يستطيع أن يحقق أهدافه إلا بالتزامه بهذه القوانين وإتباعه لهذه القواعد . والنتيجة الطبيعية لهذا أن الخالق الأكبر اللامتناهى القدرة لا يمكن أن يحتاج إلى أية أداة أو آلة . فهذا الخالق أو هذه الروح اللامتناهية القدرة إذا أراد شيئا نفذه فى الحال دون أن يستعين بوسيلة ما . ولكن المخلوقات الأخرى هى التى تلجأ إلى الوسائل ، وهى عندما تفعل ذلك فلا يكون ذلك تحقيقا لأية فاعلية كامنة فيها أو استجابة لما بها من رغبة فى إثبات وجودها بل لكى تتمشى فقط مع قوانين الطبيعة أو النواميس التى رسمتها لها العلة الأولى التى هى فوق كل قانون وكل اتجاه مرسوم أيا كان .

هيلاس : لن أصف المادة بعد ذلك بأنها آلة أو أداة . ومع ذلك ، فان هذا يجب ألا يفسر بأنه إنكار لوجودها لأنه إذا راعينا ما سبق أن قلته فى هذا الصدد ، فمن الجائز أن نستمر فى النظر إليها على أنها فرصة أو « مناسبة » للفعل .

فيلونوس : كم صورة تتشكل فيها هذه المادة التى تتحدث عنها ؟ وكم من مرة

سأحتاج إلى أن أثبت لك عدم وجودها قبل أن تقتنع أخيرا برفضها ؟ أنني آخذ عليك عدم إتباعك لقواعد المناقشة والتجاءك مرارا إلى أن تلبس نفس الشيء الرئيسي معان متعددة . ومع ذلك فدعنا من هذا . أكون سعيدا لو عرفت منك الآن ما الذى تقصده حين تقرر أن المادة مناسبة أو فرصة للفعل ، علما بأنك قد سبق أن أنكرت أن تكون علة ؟ وإذا أوضحت لى ذلك ، عليك بعد ذلك - إذا سمحت - أن تبين لى الدافع الذى دفعك إلى الاعتقاد بان المادة مناسبة أو فرصة الفعل .

هيلاس : فيما يتعلق بالنقطة الأولى ، فانا أقصد بالفرصة أو المناسبة موجودا غير مفكر وغير فعال يتيح الله فرصة وجوده أو حضوره أمامه ليعرض الصور علينا من خلاله .

فيلونوس : وماذا عسى أن تكون طبيعة هذا الموجود غير المفكر غير الفعال ؟

هيلاس : إننى أجهل كل شيء عن طبيعته .

فيلونوس : تقدم إذن نحو النقطة الثانية وأذكر لى سببا واحدا فقط يحملك على الاعتقاد بوجود هذا الشيء غير المفكر غير الفعال غير المعروف لك .

هيلاس : عندما أرى الصور فى عقلى تعرض أمامى بنظام واستمرار ، أجد نفسى منساقا إنسياقا طبيعيـــا فى التفكير بوجود « فرص » أو « مناسبات » ثابتة منظمة تعرض من خلالها وتحت تاثير وجودها الدائم .

فيلونوس : أنت تذهب إذن إلى أن الله وحده هو علة الصور ، ولكنه يتسبب فى إيجادها عن طريق هذه « المناسبات » .

هيلاس : هذا هو ما اعتقد .

فيلونوس : هذه الأشياء التى تقول عنها إنها موجودة أو حاضرة أمام الله ، لا بد أن الله يراها . أليس كذلك ؟

هيلاس بكل تأكيد ، وإلا فلم يكن من الممكن أن تكون المادة مناسبة ، لفعله .

فيلونوس : لن أناقشك الآن فى المعنى الذى تفهمه من هذا الافتراض ، ولن أثير جميع الصعوبات والإشكالات التى يقودنا اليها . ولكننى اكتفى بان أسالك إذا كانت حكمة الله وقدرته ليستا بكافيتين فى نظرك لكى نعزو إليهما النظام والدقة المشاهدين فى سلسلة الصور . ثم ألا يؤدى افتراضك هذا إلى أن يكون الله متأثرا على نحو ما بهذا الجوهر اللامادى أو يراعيه فى أفعاله بحيث يكون عليه أن يسأل نفسه متى يبدأ الفعل وما الذى سيقوم بفعله . ثم أليس فى هذا كله انتقاص لقدرته . وبعد هذا كله ، فلو سلمت معك جدلا بما تريد ، فأنا لا أرى مع ذلك كيف ستخدمك أقوالك الأخيرة هذه فى البرهنة على الشىء الرئيسى الذى تريد إثباته وهو وجود جوهر مادى فى الخارج مستقل عن الفكر . فليس من الواضح أمامى أن وجود مثل هذا الجوهر شىء يمكن استنتاجه من قولنا بأن الله يدرك الأشياء المادية ، أو بأن هذه الأشياء المادية فرص ومناسبات يعرض لنا الصور من خلالها ؟

هيلاس : إننى فى حيرة من أمرى . يبدو لى الآن أن فكرة المادة باعتبارها فرصة أو مناسبة للفعل فكرة لا أساس لها كسابقاتها .

فيلونوس : ألم يتضح لك أخيراً أنك فى كل ما قدمته من أفكار حول المادة قد افترضت شيئاً تجهله تماماً ولسبب تجهله أيضاً وتحقيقاً لهدف تجهله كذلك .

هيلاس : اعترف بأنى سرعان ما أتخلى عن أفكارى بعد أن أبحثها معك هذا البحث الدقيق . ومع ذلك ، فأنى مازلت اعتقد بأن لدى فكرة ما ، مشوهة ، عن وجود شىء يسمى «المادة».

فيلونوس : أحد أمرين : إما أن تكون قد وصلت إلى هذه الفكرة عن طريق الإدراك المباشر فأرجو أن تخبرنى عن طريق أية حاسة من الحواس يكون هذا الإدراك . وإذا كان عن طريق الإدراك غير المباشر ، فخبرنى كيف وصلت إلى هذا وابتداء من أى إدراك مباشر ؟

هذا من ناحية احتمال الوصول إلى وجود المادة عن طريق الادراك أما من ناحية المادة نفسها ، فأريد أن أعرف إذا كانت شيئاً، أو جوهراً ، أو علة ، أو آلة ، أو فرصة الفعل ؟ حقاً لقد قدمت لى حججا بصدد كل وصف من هذه الاوصاف ، وجعلت المادة تظهر بهذه الصفة حيناً وتلك حيناً آخر . ولكنك ما لبثت أن تقضت وتخليت عما دافعت عنه . وإذا كان لديك الآن شىء جديد تقدمه، فأكون سعيداً لو سمعته منك.

هيلاس : اعتقد أنى قدمت كل ما أردت أن أقوله فى هذا الصدد ، ولا أظن أنى استطيع تقديم شىء جديد .

ولكى اساعدك على التخلى — دون أسف وببساطة - عنها ، أود — بالاضافة إلى ما تقدم — أن تنظر مرة أخرى فى افتراضك الذى يقول بوجود المادة لتبحث عن تأثير هذا الوجود فيك . ثم تعود لتفترض أنها غير موجودة وترى إذا كنت ستستمر فى إدراك نفس الصور التى تدركها الآن وبالتالى فى الإعتقاد بوجودها على نفس الاسس التى تعتقدها الآن .

هيلاس : اعترف بأن ادراكنا للأشياء لن يتأثر إذا كانت المادة غير موجودة فى العالم كما أن وجودها لا يغير من واقع إدراكنا للصور شيئاً. واسلم لك فوق ذلك بأنك قد اقنعتنى تماماً بأنه يستحيل وجود « المادة » فى أية صورة من هذه الصور التى افترضتها . ومع ذلك، فإنى مازلت مقتنعاً بأن ثمة مادة فى العالم ، فى صورة أو فى أخرى . أما إذا سألتنى عن ماهية هذه المادة ، فسأجيبك بأننى لا استطيع تحديد شىء بصددها .

فيلونوس : إننى لا أتوقع منك أنك ستستطيع أن تحدد طبيعة هذا الشىء المجهول ولكننى أرجوك فقط أن تخبرنى إذا كانت هذه المادة جوهراً أم لا فإذا كانت جوهراً فــلا بد أن تفترض أن لها أعراضاً . وإذا افترضت وجود أعراض لها فاود أن تدلنى على هذه الاعراض أو تخبرنى على الأقل عن كيفية حمل المادة لهذه الاعراض ؟

هيلاس : لقد سبق أن ناقشنا كل هذه النقط . ولا أجد ما أضيفه لما قلته بصددها . ولكن لكى امنعك من الاسترسال فى أسئلة أخرى ، أخبرك أن المادة كما أفهمها الآن ليست جوهراً وليست أعراضاً ، وليست شيئاً ممتداً

أو مفكراً ، وليست علة أو آلة أو مناسبة ، بل هي شيء مجهول تماماً منا ومختلف عن كل ما ذكرت .

فيلونوس : يبدو لى إذن أن فكرتك الحالية عن المادة لا تحتوى على شيء آخر سوى الفكرة المجردة عن الذات المادية للشيء entity .

هيلاس : نعم ليست المادة إلا هذا . واضيف إلى ذلك أن مفهوم المادة لا يكتمل عندى إلا إذا جردتها من جميع الأشياء الجزئية والصفات والصور التى ادركها أو اتخيلها أو اتصورها

فيلونوس : أرجوك إذن أن تخبرنى عن المكان الذى تفترض فيه وجود هذه المادة .

هيلاس : إنك تعتقد يا فيلونوس أنك بهذا السؤال قد ضيقت على الخناق . لأنى إذا قلت لك إنها موجودة فى مكان فستستنتج من ذلك أنها لا بد موجودة فى العقل مادمنا قد اتفقنا على أن المكان أو الامتداد موجود فى العقل فقط . ولكنى لا أخجل إذا قلت لك أننى أجهل مكانها . فانا لا أعرف فى أى مكان تكون هذه المادة موجودة ، ومع ذلك فانى متأكد أنها موجودة لا فى مكان معين . فهناك إذن جواب بالسلب لسؤالك . ولا تتوقع منى غير تلك الإجابة السلبية فى كل ما ستسأله فى المستقبل بخصوص المادة .

فيلونوس : مادمت قد عجزت عن اخبارى عن المكان الذى توجد فيه المادة ، فاكون شاكراً لو أخبرتنى عن الصورة التى تفرضها لوجودها أو ماذا تقصد بوجود المادة على الإطلاق .

هيلاس : إنها وجود لا يفكر ولا يفعل ، ولا يدرك وليس مدركاً .

فيلونوس : ولكن أى عنصر إيجابى يدخل فى تركيب هذه الفكرة المجردة عن الوجود ؟

هيلاس : فيما يتعلق بهذه النقطة فأنا لا أعثر على أية فكرة ايجابية فى معناها . وأكرر لك أننى لا أخجل من أن أعلن جهلى بهذا الخصوص . فأنا لا أعرف معنى وجود المادة ولا أدرى كيف يكون هذا الوجود .

فيلونوس : أراك ياهيلاس مستمراً فى تمثيل دور « الساذج » ولكن خبرنى إذا كنت تستطيع بحق أن تحدد فكرة واضحة عن الذات المادية للشىء فى صورتها العامة تلك ، مادمت قد جردتها عن كل الأشياء المفكرة والجسمانية وعن كل الصفات الجزئية أيا كانت .

هيلاس : دعنى أفكر قليلا — اعترف يافيلونوس أننى لا استطيع . فقد هيىء لى أول الأمر أن لدى فكرة غير محددة ، ومجردة ، عن الذات المادية للأشياء ، ولكنى أرى الآن — بعد أن أمعنت النظر قليلا فيها — أن هذه الفكرة قد تبخرت . وكلما أمعنت التفكير فى المادة صممت تصميماً قاطعاً بأن لا أقدم عن المادة إلا صورة سلبية وأن لا أدعى معرفة أى شىء ايجابى عنها ، سواء ما يتعلق بأينها ، أو بكيفها ، أو بذاتها أو بأى شىء آخر يتعلق بها .

فيلونوس : عندما تتحدث عن وجود المادة إذن ، فلا يكون لديك أيه فكرة فى عقلك .

هيلاس : أية فكرة على الإطلاق .

فيلونوس : أستطيع — بعد استئذانك — أن أصور موقفك هكذا : فقد

ذهبت أول الأمر إلى أنك تعتقد بوجود جوهر مادى ، وفسرت ذلك بقيام الأشياء فى استقلال عن العقل ، ثم رأيت أن ذلك معناه وجود نماذج ، مستقله للأشياء ثم رأيت أن ذلك معناه وجود علل ، ثم أدوات ، ثم مناسبات ، وأخيراً ذهبت إلى إن المادة معناها وجود شىء عام ، فسرته بأنه لا شىء ومعنى ذلك فى نهاية الأمر أن المادة تقابل عندك « لا شىء » أليس هذا ياهيلاس ملخصاً لأفكارك عن المادة ؟

هيلاس : ليكن ذلك . ولكنى مازلت مقتنعاً بان عدم استطاعتنا تصور شىء لا ينهض حجة ضد وجوده .

فيلونوس : عندما أعجز عن إدراك شىء ما إدراكاً مباشراً ، فإننى أستطيع مع ذلك أن استنتج وجوده عن طريق قولى إنه علة ، أو معلول ، أو عنصر أو رمز أو أية صفة أخرى وأنا اسلم معك بأنه من غير المعقول أن يستنتج الإنسان عدم وجود شىء ما من مجرد عجزه عن ادراكه ادراكاً مباشراً ولكن إذا كنت لا أستطيع أن أصف هذا الشىء بأية صفة من هـــذا القبيل ، إذا كان العقل أو الوحى يعجزان عن أن يدلانى بشىء ما عن وجوده ، بل وإذا لم تكن لدى أية فكرة نسبية عن وجوده . وإذا كان وجوده قد جرده من فعل الإدراك ومن قابليته لأن يدرك ، وإذا كان لا يتبع فى وجوده الروح المطلقة أو الصورة الذهنية ، وإذا لم يكن لدى عنه إلا تلك الصورة الغشية للوجود التى أزعم أنها ملازمة له . وإذا كان هذا كله هو خلاصة

فكرتك عن هذا الشيء ، فلن استنتج أن هذا الشيء غير موجود .
ولكنني لن أقول ذلك ، بل سأستنتج فقط أن كلامك عنه لا يعني شيئاً
على الإطلاق ، وأن حديثك عنه ليس إلا مجرد حديث في الهواء ،
لا يحمل أي معنى ولا يرمي إلى أي غرض . وسأترك لك حرية الحكم على
مثل هذه الرطانة .

هيلاس : إذا أردت الصراحة يافيلونوس فإن حججك تبدو لي مفحمة ومع ذلك
فليس لها علىّ هذا التأثير الذي يجعلني اقتنع تماماً وأسلم تسليماً بعدم
وجود المادة ، وهو ماتريد أن تقودني إليه ببراهينك إذ مازلت أجد
نفسي مصراً على وجود هذا الشيء الغامض الذي لا أدري عنه شيئاً
وهو المادة .

فيلونوس: ولكن ألا تشعر معي يا هيلاس أن هناك أمرين لابد أن يمحوا كل
شيء من ذهنك وأحصل منك بسببها على موافقة تامة على دعواي ؟
تصور أننا عرضنا جسماً مرئياً لضوء كاف، ومع ذلك ، فإنه إذا كان
هناك أي خلل في الإبصار أو إذا لم تكن العين متجهة نحو الجسم
فلن يتم لنا رؤية هذا الجسم، أو تصور أن هناك حجة متماسكة عرضت
أمامك عرضاً جيلا ومع ذلك ، فإذا كان لديك بصددها فكرة سابقة
تشوبها أو اكتشفت أساساً خاطئاً لها ، فهل تتوقع أن تسلم بها تسليماً
مفاجئاً وتعترف بصوابها ؟ لا . لابد أن يحتاج الأمر إلى كثير من
الوقت ومزيد من الإجهاد . ولابد كذلك بخصوص الجسم المرئي أن
توقظ انتباهك أكثر من مرة ولا تكف عن تكرار عرض الجسم
المرئي أمامك في نفس الضوء وفي أضواء أخرى كذلك . وفيما يتعلق
بموقفك من المادة ، فقد قلت لك سابقاً وأجد نفسي مضطراً لإعادة

ماقلت: إن إدعاءك معرفة هذا الشيء الذى تجهله ، وتجهل سبب إدعائك هذا وتجهل الغرض الذى تتمسك من أجله بهذا الإدعاء قضية خاسرة. وهل تستطيع أن تقارن موقفك هذا بأى موقف لعالم من العلماء ، أو بأى موقف لأى انسان من أية مهنة أو من أية طائفة ؟ أى شيء أمعن فى الخرق وعدم المعقولية من الإصرار على القول بأشياء تلقى معارضة فى حديث أشد الناس سذاجة وجهلا ؟

ولكن قد تستمر مع ذلك فى الإصرار على أمثال وجود المادة على الرغم من جهلك التام بمعناها وبوجودها . وهذا مايدهشنى حقاً لأن رأيك هذا لم يكن نتيجة لأى نوع من الاستدلال ، وأتحداك فى فى أن تدلنى على وجود شيء واحد فى الطبيعة يحتاج فى وجوده إلى المادة أو يفتقر فى تفسيره إليها .

هيلاس : إن حقيقة الأشياء جميعها لا يمكن أن نسلم بها دون أن نفترض وجود المادة . ألا تظن معى أن هذا سببا كافيا يجعلنى أدافع عن وجودها بحرارة ؟

فيلونوس: حقيقة الأشياء ؟ أى أشيـــاء تقصد ؟ هل الأشياء المحسوسة أم المعقولة ؟

هيلاس : أقصد الأشياء المحسوسة .

فيلونوس: قفازى هذا مثلا . .

هيلاس : قفازك أو أى شيء محسوس آخر .

فيلونوس: لكن دعنا نوجه انظارنا إلى شيء محدد : القفاز . أليست رؤيتى لهذا القفاز ولمسى له ولبسى إياه بسبب واضح وضوحاً كافياً يجعلنى اعتقد بوجوده ؟ وإذا لم يكن هذا سبباً كافياً فى نظرك ، فهل يكون تأكدى

من حقيقة هذا الشيء الذى أراه الآن فى هذا المكان عن طريق افتراض شيء آخر مجهول ، لم أره مطلقاً ولا استطيع أن أراه ، افتراض وجوده على صورة ما ، فى مكان غير معروف ، أو فيما لا أعلم من مكان ؟ كيف تكون الحقيقة التى افترضها لهذا الشيء غير المرئى دليلا على وجود الشيء المرئى وجوداً واقعياً ؟ كيف تكون الحقيقة غير المرئية أو غير المدركة بوجه عام دليلا على ما هو مرئى وما هو مدرك ؟ فسر لى كيف يكون ذلك وسأسلم لك بمقدرتك .

هيلاس : إن حجتى تتلخص فى أن وجود المادة عندى أمر بعيد الاحتمال ، ومع ذلك ، فإن استحالة وجودها استحالة مباشرة مطلقة أمر لا أسلم به .

فيلونوس: لا أسلم معك بأن وجود المادة وجود محتمل فقط ، ولكن هذا لا يجعل وجودها أكثر يقينا من وجود جبل من ذهب ، أو من وجود هذا الحيوان الخرافى الذى نصفه إنسان ونصفه فرس .

هيلاس : اعترف بذلك . ومع ذلك مازلت عاجزاً عن البرهنة على استحالة وجودها وأنت تعلم جيداً أن الشيء المحتمل الوجود يصبح وجوده الواقعى ممكناً .

فيلونوس: لا . أنا أنكر إمكانية هذا الوجود . وقد برهنت لك بوضوح . إذا لم أكن مخطئاً — على أن هذا الوجود غير ممكن ، وذلك بالاستعانة باعترافاتك نفسها . فكلمة المادة فى معناها الشائع لا تعنى شيئاً آخر إلا جوهراً ممتداً صلباً له شكل محدد ، متحرك ، موجوداً وجوداً مستقلا عن العقل . أليس كذلك ؟ ولكنك قد انكرت مرة بعد أخرى إمكانية وجود هذا الجوهر . أليس كذلك ؟

هيلاس : حقاً . ولكن هذا ليس إلا معنى واحد لكلمة « المادة »

فيلونوس : ولكن أليس هذا هو المعنى المعترف به لهذه الكلمة ؟ وإذا كان وجود المادة بهذا المعنى أمرا مستحيلا ، ألا نكون محقين تماماً بعد ذلك فى القول باستحالة وجود المادة إطلاقاً ؟ وإلا فكيف سيتسنى لنا البرهنة على استحالة وجود شىء ما ؟ أو كيف سيكون فى وسعنا أن نستخدم الحجة والمنطق أمام شخص يغير المعانى المعترف بها للكلمات بحرية يحسد عليها ؟

هيلاس . كنت أظن أنه يحق للفلاسفة أن يستخدموا الألفاظ استخداماً أدق عما يستخدمه رجل الشارع . والحق أنهم لم يقيدوا أنفسهم البتة بالمعنى الدارج للألفاظ .

فيلونوس: ولكن هذا المعنى للمادة هو المعنى الشائع بين الفلاسفة أنفسهم ولكن ولندع هذا المعنى جانباً . ألم أترك لك حرية فهم المادة بأى معنى شئت ؟ ألم تتمادى فى استخدام هذا الحق ، تارة لتغير المعنى المعترف به للمادة ، وتارة لتضيف إلى تعريفها عناصر جديدة لتخدم أغراضك مخالفاً بذلك كل قواعد العقل والمنطق ؟ ثم ألم يؤد منهجك العقيم هذا إلى إطالة مناقشتنا فيما لا طائل تحته ؟ ألم نبحث المادة بحثاً دقيقاً وقد اعترفت لى أثناء هذا البحث بأنك عدلت عن كل معنى اعطيته لها ؟ وإذا أردنا إثبات استحالة وجود شىء ، ألا نحتاج إلى برهان أكثر وضوحاً من البرهنة على استحالة استخدامه فى أى معنى من المعانى تفهمه أنت أو يفهمه غيرك منه ؟

هيلاس : ومع ذلك فلم اقتنع بعد بأنك برهنت لى على استحالة وجود المادة فى صورتها العامة المجردة التى حددتها لك أخيرا .

فيلونوس: قل لى متى نسلم باستحالة وجود شيء ما ؟

هيلاس : إذا برهنا على وجود تناقض فى المعنى الذى تفهمه منه .

فيلونوس: ولكن إذا لم تكن هناك صورة ما ، أو معنى ما للشيء ، فكيف سنبرهن على وجود تناقض بإزائه ؟

هيلاس : أنا متفق معك..

فيلونوس: ولكن فى هذا المعنى العام غير المحدد الذى اعطيته للمادة ، من الواضح باعترافك أنت ، أنك لم تصل إلى أية فكرة عنها ، ولم تصل إلى تحديد أى معنى اللهم إلا هذا المعنى غير المعروف، وهو ما يقابل «لا شيء» وعلى ذلك ، فلا تتوقع منى أن أبرهن على تناقض فى معنى شيء لا معنى له ، أو على استحالة وجود « المادة » وأنت تجهل معناها تماماً ، وبعبارة أخرى لا تتوقع منى أن أبرهن على استحالة وجود شيء لا معنى له على الإطلاق ، لقد كان واجبى محصوراً فقط فى أن أبين لك أن معنى المادة عندك هو « لا شيء » الأمر الذى اعترفت به بنفسك . وفى كل المعانى المختلفة التى قدمتها أنت للمادة ، أوضحت لك إنك لا تعنى شيئاً أو انك تعنى شيئاً غير مفهوم . وإذا لم يكن هذا غير كاف فى نظرك للبرهنة على استحالة وجود شيء ما ، فأرجوك أن تعرفنى ماذا عسى أن يكون هذا الشيء .

هيلاس . اعترف بأنك قد أقمت الدليل على استحالة وجود المادة ، واعترف بأنى لا أرى دفاعاً آخراً استطيع أن أضيفه إلى التمسك بوجودها . ولكن تسليمى لك بهذا يجعلنى أتشكك فى الوقت نفسه فى أفكار كثيرة . لأن فكرة المادة التى تبدو لى على أنها فكرة خاطئة غير مفهومة كانت تبدو لى فيما مضى على أنها أوضح الأفكار .

ولكنى أظن أننا قتلنا فكرة المادة بحثاً فى هذا الجزء من النهار وسأمضى وقت مابعد الظهيرة فى استعادة الخطوط الرئيسية لمحادثتنا التى استغرقت كل هذا الصباح . أما باكر ، فأكون سعيداً لو قابلتك مرة أخرى هنا وفى نفس الزمان .

فيلونوس: ستجدنى فى انتظارك حتماً .

انتهت المحاورة الثانية

المحاورة الثالثة

فيلونوس : قل لى يا هيلاس : ما هى النتائج التى حصلنا عليها من مناقشتنا بالأمس؟
هل خرجت منها بنفس الأفكار التى بدأتها بها ؟ أم أنك وجدت فى نهايتها ما حدى بك إلى تغيير أفكارك ؟

هيلاس : الحق أن فكرتى عن هذه المناقشة كعقيدتى فى جميع أفكارنا : كلها أفكار مشكوك فيها ولا طائل من ورائها . ما يجوز موافقتنا اليوم ننقضه غدا . وهكذا نستمر فى تقييب الحقيقة حتى تفنى أعمارنا فى استقصائها . ولكنى اعتقد أنه يستحيل علينا الوصول إلى معرفة شىء فى هذه الحياة . فإمكانياتنا محدودة وملكاتنا قليلة . والطبيعة لم تهىء لنا فرصة التأمل النظرى كما ينبغى .

فيلونوس : ماذا تقول يا هيلاس ؟ هل تقول إننا لا نستطيع معرفة شىء ؟

هيلاس : ليس هناك شيء واحد فى الكون نستطيع أن نقول عنه إننا نعرف طبيعته أو حقيقته ، أو ما يكون عليه فى الواقع .

فيلونوس : هل تقول لى إننى لا أعرف الماهية الحقيقية للنار أو الماء مثلا .

هيلاس : إنك تعلم بالتأكيد أن النار تبدو لك حارة ولكن الماء سائل ولكن هذا لا يمثل إلا مجرد معرفتك بطريقة استخدامك الحسى لهذه الأشياء . أما الطبيعة الداخلية للنار أو الماء ، والماهية الحقيقية لكل منهما فإنك تجهل تماما كل شىء عنهما .

فيلونوس : ألست أعرف أن ما أقف عليه الآن هو حجر حقيقى وأن ما أراه أمامى هى شجرة حقيقية ؟

هيلاس : أنت تعرف ذلك . لا يستحيل عليك وعلى أى إنسان أن يعرفه . إن لديك هذه الصورة المعينة أو هذه الفكرة الظاهرة فى ذهنك عن الحجر أو الشجرة ، ولكنى أؤكد لك أن لون هذه الأشياء وشكلها وصلابتها ، وكل هذه الصفات التى تدركها لا تمثل الطبائع الحقيقية لها ، بل ولا تمثل شيئاً قريباً منها . وهذا كلام ينسحب على كل الأشياء الواقعية أو الجواهر الجسمانية التى يزخر بها هذا العالم . فهى فى ذاتها غير ما ندركه من صفات لها ، ولذلك فمن واجبنا أن لا ندعى معرفة شىء يتعلق بطبيعتها فى ذاتها .

فيلونوس : لكن يا هيلاس أستطيع بكل تأكيد أن أميز الذهب من الحديد . وكيف يتسنى لى ذلك إذا لم أكن على علم بالطبيعة الحقيقية لكل منهما

هيلاس : صدقنى يا فيلونوس إنك لا تميز إلا بين صورك أنت فحسب فهذا اللون الأصفر وهذا الوزن ، وهذه ، وهذه الصفات الحسية الأخرى التى تدركها فى الذهب ، هل هى قائمة فيه حقيقة . كلا إنها ليست إلا صفات بالنسبة لحواسنا ، لها وجود مطلق فى الطبيعة . وإذا زعمت بأنك تستطيع التمييز بين الطبيعة الحقيقية للأشياء اعتمادا على ما يبدو لك منها فى عقلك فإن موقفك فى هذا سيكون شبيها بموقف من يقارن بين رجلين أمامه ويزعم أنهما متمايزان اعتماداً على أن ملابسهما مختلفة .

فيلونوس : أنت ترى إذن أنه قد فرض علينا أن نعرف مظاهر الأشياء فقط ، ومظاهرها الكاذبة بنوع خاص . فقطعة اللحم التى آكلها ، والقماش الذى أرتديه لهما طبيعة مختلفة عما أراه وعما ألمسه منهما .

هيلاس : تماماً .

فيلونوس : ولكن أليس يبدو غريبا أن الناس جميعهم مخدوعون ، بلهاء لأنهم يثقون في حواسهم . ولكنى لا أدرى كيف تكون الأمور على هذا النحو . فالناس يأكلون ويشربون وينامون . ويؤدون واجباتهم في الحياة بسهولة وببساطة يجعلانا نعتقد بأنهم يعرفون حقيقة الأشياء التي يمارسونها .

هيلاس : حقا إنهم يقومون بهذا كله . ولكنك تعلم أن الحياة العملية الدارجة لا تتطلب معرفة نظرية رفيعة . ولذلك فإن رجل الشارع لا يتخلى عن أخطائه ، وهو يسير أموره في حياته العملية بطريقة عشوائية . أما الفلاسفة ، فمعرفتهم بالأشياء أكثر عمقاً .

فيلونوس : هذا يعنى أن الفلاسفة هم الذين يعرفون أنهم لا يعرفون شيئا .

هيلاس : إن هذه المعرفة هي أسمى درجة في المعرفة الإنسانية .

فيلونوس : ولكن هل أنت جاد فى هذا الكلام يا هيلاس ؟ وهل أنت تقتنع تماما بأنك لا تعلم شيئا عن حقيقة الأشياء في هذا العالم ؟ لنفرض مثلا أنك تريد أن تحرر شيئا ، ألست تطلب قلما ومداداً وورقاً ، كما يفعل سائر الناس ؟ ثم ألست تعرف الأشياء التي تطلبها ؟

هيلاس : كم مرة أجد نفسى مضطراً إلى أن أخبرك بأنى لا أعرف الطبيعة الحقيقية لأى شيء في هذا الكون ؟ فقد استخدم القلم والمداد والورق عندما يروق لى ذلك . ولكن إذا سألتنى عن حقيقة أى من هذه الأشياء فسيكون جوابى : لا أدرى عنها شيئا . وهذا كلام يصدق على جميع الأشياء الجسمانية التى فى هذا الكون . وأكثر من هذا

إننا نجهل ليس فقط الطبيعة الحقيقية للأشياء . بل إننا لا نعلم إذا كانت الأشياء موجودة أم لا . فنحن ندرك حقا ما يبدو لنا من الأشياء ، أو صورها . ولكن هذا لا يدل على أن هذه الأشياء موجودة حقاً وجوداً واقعياً . وإنى كلما تأملت وجود هذه الأشياء لا أجد حرجاً فى أن أعلن — متفقاً فى ذلك مع مبادئى — أنه يستحيل أن تكون الأشياء الجسمانية موجودة وجوداً واقعياً فى الطبيعة .

فيلونوس : إنك تمتعنى بكلامك هذا وأنا أبحث عن أقـــوال تفوق أقوالك غرابة وشذوذاً فلا أجد . ومن الواضح أن استعمالك لهذه الأقوال الغريبة يرجع إلى اعتقادك بوجود الجوهر المادى ، أليس كذلك ؟ ولذلك أراك تحلم دائما بوجود هذه الطبائع المجهولة فى كل شىء . ولهذا السبب نفسه ، تميز بين حقيقة الأشياء وبين ما يبدو لنا منها عن طريق الحواس . وهذا هو ما يجعلك تعتقد بجهلك لكل ما يعلمه سائر الناس علما أكيداً . وليس هذا فحسب فأنت لا تدعى فقط جهلك بالطبيعة الحقيقية للأشياء بل تدعى كذلك أنك لا تعلم إذا كانت الأشياء موجودة أم لا ، وتدعى عدم وجود شىء حقيقى على الإطلاق . وذلك لأن حقيقة الأشياء فى رأيك قائمة فى هذا الوجود المطلق الخارجى الذى تعزوه للأشيـــاء المادية . ولما كنت قد اضطررت فى نهاية الأمر إلى التسليم بأن هذا الوجود المادى شىء لا معنى له ، أو أنه لا يعنى شيئا على الإطلاق ، فكان من الطبيعى بعد ذلك أن تتخلى عن افتراضك هذا ، وتنتهى إلى إنكار حقيقة جميع الأشياء فى هذا الكون . وهكذا ، انتهيت إلى مذهب من أقوى المذاهب الشكية وأكثرها دعوة للأسف . قل لى ياهيلاس . أليس موقفك على نحو ما أصفه لك ؟

هيلاس : أنا متفق معك . القول بوجود جوهر مادى لم يكن إلا مجرد فرض ، وقد اتضح أنه فرض خاطىء لا أساس له . ولن أدافع عن قيامه بعد اليوم . ولكنى على يقين من أن أى فرض تقدمه أو أية فكرة تقول بها لتحل محله لن تبدو بأقل خطأ منه . واترك لى حرية سؤالك عنه.. قم بتقديم الطبق الذى يروق لك وسأقوم أنا بدورى بخدمتك بالأسئلة وسيجرك هذا فى نهاية الأمر إلى نفس حالة الشك التى أنا عليها الآن ، بعد أن تكون قد مررت بكثير من التناقضات والصعوبات .

فيلونوس : أؤكد لك ياهيلاس أننى لا أبغى تقديم أى فرض جديد . إننى ذو طبيعة بسيطة تجعلنى أثق فى حواسى وأترك الأشياء كما هى . ولزيادة الإيضاح، أقول لك أننى اعتقد أن الأشياء الواقعية هى نفس الأشياء التى أراها وأحسها وأدركها بحواسى . فهذه الأشياء هى التى أعرفها وأجد فى معرفتها ما يحقق كل مطالبى وأغراضى فى الحياة ، ولذلك إنى لا أجد ما يدفعنى إلى البحث عن أشياء أخرى وراءها ، مجهولة منى تماماً . فقطعة الخبز التى إدركها مثلا خير عندى فى سد رمقى ألف مرة من ذلك الخبز الحقيقى الذى تحدثنى عنه ، وهو الخبز غير المعقول كذلك . وعلى هذا النحو ، أرى فى ألوان الأشياء وسائر صفاتها أنها ألوان وصفات واقعية حقيقية . ولن استطيع طوال حياتى أن أمنع نفسى من أن اعتقد أن الثلج أبيض وأن النار ساخنة . أما أنت ، فلك الحق فى أن تنكر بياض الثلج وحرارة النار وان تنظر إليهما على أنهما صفتان غير قائمتين فيهما مادمت تعتقد أن « الثلج » و « النار » يدلان على جواهر خارجية غير مدركة ولا مدركة . أما أنا ، فهذه الكلمات

لا تدل عندى على شيء آخر غير ما آراه منهما وما أحسه . ولذلك فأنا مضطر إلى أن انظر إليهما كما ينظر سائر العوام . وكما أنى لست شاكا فى طبيعة الأشياء ، كذلك فإنى لا أشك فى وجودها ولا أتصور مطلقاً أن شيئاً ما يمكن أن يدرك بالحواس إدراكا صحيحاً ، ويكون فى نفس الوقت غير موجود ، فان هذا تناقض واضح إذ إنى لا أستطيع أن أجرد أو أعزل — حتى عن طريق مجرد التفكير — وجود الشىء المحسوس عن كونه مدركاً . فالخشب والاحجار ، والنار ، والماء ، واللحوم ، والحديد وماشابهها من الأشياء التى أعرفها وأتحدث عنها أشياء أعرفها حق المعرفة . وما كنت لا عرفها لولم أدركها عن طريق حواسى والأشياء المدركة بالحواس هى التى تدرك مباشرة ، والاشياء التى تدرك مباشرة هى الصور ، والصور لا توجد فى استقلال عن العقل ، لذلك فان وجودها قائم فى كونها مدركة . ومعنى هذا أنه فى الوقت الذى تدركها ، لا يكون لدينا أدنى شك فى وجودها .

لنترك إذن جانباً كل أقوال الشكاك . وجميع الاشكالات المضحكة التى يثيرها الفلاسفة ، وفضلا عن ذلك فالفيلسوف الذى يعتقد فى الله وفى صدق العناية الإلهية لا يستطيع مطلقاً أن يضع وجود الأشياء المحسوسة موضع الشك ، ولا يستطيع كذلك أن يذهب إلى أن معرفتنا لها يعوزها البرهان . وإلا فسيمتد الشك لا إلى وجود الأشياء التى آراها وألمسها حالياً ، بل إلى وجودى كذلك .

هيلاس : رويدك يافيلونوس . تقول إنك لا تستطيع أن تتصور كيف توجد الأشياء الحسية مستقلة عن العقل أليس كذلك ؟

فيلونوس : بلى .

هيلاس : لنفرض أنك قد تلاشيت من الوجود . الا تستطيع أن تتصور أن الاشياء المدركة بالحس قد تستمر فى الوجود ؟

فيلونوس: نعم استطيع . ولكن فى هذه الحالة ستكون قائمة فى عقل آخر غير عقلى . وعندما أنكر وجود الاشياء المحسوسة مستقلة عن العقل ، فإنى لا أقصد بذلك أنها موجودة فى استقلال عن عقلى أنا بالذات ، بل عن جميع العقول . ولكن من الواضح أن لهذه الاشياء وجوداً خارج عقلى مادمت أجدها فى التجربة الحسية مستقلة عنى تماما . فلابد أن يكون هناك عقل آخر تكون موجودة فيه فى الفترات التى انقطع خلالها عن إدراكها . وفى الفترة التى سبقت مولدى وفى الفترة ستأتى بعد تلاشىَّ من الوجود . ومادام هذا الأمر ينطبق على جميع العقول المتناهية الاخرى ، فلابد من وجود عقل آخر ، أزلى حاضر حضوراً دائما ، ومحيطا بكل شىء . وهذا العقل هو الذى يعرف ويدرك جميع الاشياء ويعرضها علينا بصورة تتفق مع مارسمه هو من قوانين ، وهى القوانين التى نسميها نحن بقوانين الطبيعة .

هيلاس : قل لى يافيلونوس . هل جميع صورنا موجودات خالية تماما من الفاعلية ؟ أعنى اليست تشتمل على أية فاعلية تذكر ؟

فيلونوس: إنها جميعا خالية من الفاعلية وسلبية الوجود .

هيلاس : اليس الله هو الموجود ذو الفاعلية الخالصة ؟

فيلونوس: أقر ذلك تماماً .

هيلاس : ومعنى ذلك أنه ليس هناك صور ما من تشبه الله أو تمثل طبيعته ؟

فيلونوس: لا وجود لهذه الصورة البتة ؟

هيلاس : ما دمت غير قادر على تصور صورة ما لله أو لعقله ، فكيف يتأتى أن تتصور قيام الأشياء فى عقله ؟ وإذا إستطعت أن تتصور عقل الله دون أن يكون لديك صورة عنه ، فكيف لا تسمح لى بأن أتصور وجود المادة دون أن يكون لدى صورة عنها ؟ .

فيلونوس : فيما يتعلق بسؤالك الاول ، فأنا اعترف بأنه ليس لدى أية صورة لا عن الله فحسب بل عن أى روح آخـــر ، لأن الله والأرواح موجودات تتميز بفاعليتها المحضة ، ولذلك فلا يمكن أن تدرك بالصور وهى أشياء لافاعلية فيها . وأنا وإن كنت كاتنا قوامه الروح أو الجوهر المفكر ، إلا أننى أعلم مع ذلك أننى موجود ، وأعلم كذلك أن « صورى » موجودة ، وفضلا عن ذلك ، فانا أعلم ما أقصده من كلمات « الأنا » و « النفس » علماً مباشراً حسيا ، على الرغم من أنى لا أدرك هذا كما أدرك المثلث أو اللون أو الصوت . فالعقل أو الروح أو النفس هو الشىء غير المنقسم ، غير الممتد الذى يفكر ويفعل ويدرك . وهو غير منقسم لأنه غير ممتد ، وغير ممتد لأن الإمتداد والشكل والحركة صور حسية ، أما الشىء الذى يدرك الصور ويفكر ويريد فمن الواضح أنه لايكون صورة وليس شبيها بالصورة . ذلك أن الصور أشياء مدركة وخالية من الفاعلية ، أما الأرواح أو النفوس فأشياء مختلفة تمام الاختلاف عنها . ومن أجل هذا ، فانا لا أقول إن النفس صورة أو شبيهة بالصورة .
ومع ذلك ، فإذا أخذت كلمة الصورة فى معناها الواسع ، لاستطعت أن أقول إن النفس ، تمدنى بصورة ما ، أى بصورة مماثلة لله ، على الرغم من اختلاف الصورتين تماما : وذلك لأن كل مالدى من فكرة

عن الله أحصل عليها عن طريق التأمل فى ذاتى أو نفسى ، مع الإمتداد بقدراتها إلى حد لا نهائى ، وإزالة عنها كل ما يعيبها من مناقص . وعلى ذلك ، فلدىّ فى نفسى صورة ما عن الله، وهى صورة ليست سلبية خالية من الفاعلية شأنها شان كل الصور الحسية ، بل صورة مليئة بالفاعلية والتفكير . وعلى الرغم من أنى لا أدرك الله عن طريق الحس ، إلا أن لدى لمحة عقلية a notion عنه وأعرفه عن طريق التأمل والتفكير . ولدىّ كذلك عن عقلى أنا وعن صورى الذاتية هذا النوع من المعرفة نفسها . وعن طريق هذه المعرفة المباشرة أستطيع أن أتصور وجود النفوس الأخرى والصور الأخرى .وأستطيع كذلك ، إبتداء من التأمل فى وجودى الخاص ، بإعتباره وجوداً ناقصا يحتوى على صور ناقصة كذلك ، أن أصل إلى وجود الله بالضرورة ، عن طريق التفكير العقلى . هذا فيما يتعلق بسؤالك الأول ، أما فيما يتعلق بالسؤال الثانى . فلا بد أنك ستستطيع الإجابة عليه من تلقاء نفسك . وذلك لأن إدراكك للمادة ليس إدراكا موضوعيا شبيها بإدراكك للموجودات الخالية من الفاعلية ، أى الصور . وليس إدراكا شبيها بإدراكك لنفسك ، عن طريق التأمل العقلى وليس إدراكا غير مباشر تعتمد فيه على إحدى هاتين الطريقتين ، أو على أية معرفة مباشرة أخرى . فكل ما يتعلق بالتفكير فى المادة يختلف اختلافا شاسعا عن التفكير فى الله .

هيلاس : لقد قلت إن التأمل فى النفس يوصلك إلى صورة ما عن الله . وفى نفس الوقت ، تذهب إلى أنه لا وجود لديك لصورة ما ، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، عن النفس . بل تؤكد أن النفوس موجودات مختلفة تمام

الاختلاف عن « الصور » وتبعا لذلك ، هناك صورة ماشبيهة بالنفس ولكن يكون لدينا صورة ما عن النفس . وعلى الرغم من أنك تعترف بأنه ليس لديك صورة ما عن النفس ، إلا أنك مع ذلك تقول بوجود جوهر روحى . وهذا فى الوقت الذى تنكر فيه قيام جوهر مادى لأنه ليس لديك أية صورة عنه ، هل هذا عدل منك ؟ إذا أردت أن تكون عادلا حقا ، فأمامك أحد أمرين إما أن تعترف بوجود المادة أو تنكر وجود الروح . ما قولك فى هذا الكلام ؟

فيلونوس : أقول أولا إنى لا أنكر وجود الجوهر المادى لمجرد أنه ليس لدىّ فكرة عنه بل لأن أية فكرة عنه غير متماسكة ، وبعبارة أخرى إن فكرة جوهر مادى فكرة متناقضة . فهناك — فيما أعلم — أشياء كثيرة موجودة ، وليس لدى أنا ولا لدى إنسان آخر أية فكرة عنها ، بل وقد يستحيل التفكير فيها على الإطلاق ، ومع ذلك فهذه الأشياء ممكنة الوجود لأن فكرتنا عنها أو تعريفنا لها لا يشتمل على تناقض ما . وأقول ثانيا إنه على الرغم من أننا نعتقد أحيانا بوجود أشياء لا ندركها إلا أننا يجب أن لا نتخذ ذلك ذريعة للتسليم بوجود الأشياء دون أن يكون لدينا ما يحملنا نعتقد بوجوده وأنا ليس لدى ما يحملنى اعتقد بوجود المادة فلست أدركها عن طريق الحدس ، ولا عن طريق الإحساس المباشر ، أو الصور ، أو اللمحة العقلية ، أو العاطفة ، كل هذه وسائل لا توصلنى إلى استنتاج وجود جوهر غير مدرك ، لا فاعلية فيه ، سواء أكان وجوداً ممكنا أو ضروريا .

أما فيما يتعلق بوجود نفسى أو روحى أنا أو مبدئى المفكر ، فمن الواضح أننى أصل إليه عن طريق التأمل العقلى . واستميحك عذراً

فى أنى مضطر لتكرار نفس الكلام عند الرد على نفس الاعتراضات .
فهناك تناقض واضح فى الفكرة أو التعريف الذى لدينا عن الجوهر المادى . وهذا لا يصدق على اللمحة العقلية التى لدينا عن النفس ، وعلى العكس من ذلك فإن قولنا إن الصور توجد أو تقوم فى شىء لا يدرك ، أو إنها تظهر لنا بفعل ما لا فاعلية فيه ، تناقض . أما قولنا بأن الشىء المفكر أو المدرك يكون موضوعا للصور ، أو أن الصور معلولة لعلة أو لشىء ، فلن يكون فى هذا أى تناقض . ومن المسلم به أنه لا يوجد لدينا معرفة مباشرة أو استدلالية بوجود النفوس الأخرى الفانية ، ولكن هذا لا يستتبع بالضرورة أن وجود النفوس شبيه بوجود الجواهر المادية لأنه وجود يشتمل فى داخله على تناقض على عكس وجود النفوس الذى لا يشتمل على أى تناقض . وذلك أولا لأننا نصل إلى وجود النفس مباشرة دون التجاء إلى البرهان والحجة . أما وجود المادة فوجود مشكوك فيه ، وثانيا لأننا نرى علامات ورموزاً تدلنا على وجود جواهر فاعلة شبيهة بنفوسنا فى حين أننا لا نرى أية دلالة تقنعنا من الناحية العقلية بوجود المادة ، وثالثا وأخيراً لأن لدينا لمحة عقلية عن النفس على الرغم من أنه ليس لدى أية صورة عنها . بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ولأننى لا أدركها مطلقا على أنها « صورة » أو بواسطة « صورة » ما ، بل عن طريق التأمل العقلى .

هيلاس : يبدو لى أننا لو أخذنا بكلامك هذا واتبعنا طريقتك فى التفكير وتمشينا بالتالى مع مبادئك ، فإن هذا سيؤدى بنا إلى القول بأن النفس الإنسانية عبارة عن مجموعة من الصور العائمة دون أن يكون ثمة « جوهر » يقومها .. وما دامت الكلمات لا تقال عادة إلا لكى تدل

على معانى ، وما دام لم يعد هناك معنى لوجود جوهر روحى ، تماماً كما حكمنا سابقا بعدم وجود معنى لجوهر مادى ، فلا بد أن تنكر وجود الأول كما أنكرنا وجود الثانى .

فيلونوس : كم مرة أعيد لك القول إننى أعرف وجودى وأشعر به بطريقة مباشرة ، وأن نفسى تبدو لى على أنها شىء مختلف عن الصور التى فيها لأنها مبدأ مفكر فعال يدرك ، يعرف ويريد ويكون الصور . وأنا أعرف كذلك أن نفسى بها وحدة وأنها تدرك الألوان والأصوات وأن اللون لا يستطيع إدراك الصوت أو أن الصوت لا يستطيع إدراك اللون ومن أجل ذلك ، فأنا مبدأ له فردانيته الخاصة واختلف بذلك عن سائر الأشياء المحسوسة وعن الصور الخالية من الفاعلية ومن ناحية أخرى ، فلا أشعر بهذا الشعور مطلقـــا أمام وجود المادة وماهيتها . بل على العكس من ذلك ، أعلم أنه لا وجود لشىء متناقض تناقضا داخليا ، وأعلم أن وجود المادة يشتمل على هذا النوع من التناقض وفضلا عن ذلك ، فأنا أعرف ما أقصده حين أؤكد وجود جوهر روحى مقوم للصور ، وأعلم أن النفس هى التى تعرف وتدرك الصور . وعلى العكس من ذلك ، فأنا لا أعلم معنى ما يقال من أن الجوهر غير المفكر يحتوى فى داخله على صور أو نماذج للصور يقوم بتقويمها . وفى الجملة ، فليس هناك أى وجه للمقارنة بين النفس والمادة

هيلاس : اعترف بأننى قد اقتنعت بخصوص هـذه النقطة . ولكن هل تعتقد اعتقاداً جاداً بأن الوجود الحقيقى للأشياء المحسوسة قائم فقط فى مجرد كونه وجوداً مدركا ؟ إذا كان ذلك كذلك ، فكيف تأتى أن جميع الناس يفرقون بين هذين الوجودين ؟ سل أول إنسان تقابله ،

وسيخبرك بأن الوجود المدرك للشيء مختلف عن وجوده .

فيلونوس: أنا سعيد ياهيلاس أن احتكم إلى الرأى الشائع فى صحة افكارنا . سل البستانى لم يعتقد بوجود أشجار الكريز هناك فى الحديقة ، وسيخبرك لإنه يراها ويحس بها ، وفى كلمة واحدة ، لأنه يدركها بحواسه، وسله لم يعتقد بعدم وجود شجرة البرتقال فى الحديقة، وسيخبرك لأنه لا يدركها . إن مايدركه بالحواس . هو مايعبر عنه بالوجود الحقيقى ، ومن أجل ذلك يحكم بأن الشيء موجود . أما مالا يدركه فيحكم بعدم وجوده .

هيلاس : أجل يا فيلونوس أنا أسلم بأن وجود الشيء الحسى قائم فى قابليته لان يدرك، ولكن ليس معنى ذلك أن وجوده ينحصر فيما أدركه منه فى هذه اللحظة .

فيلونوس: والآن ، أى شيء يكون وجوده قابلا للإدراك غير الصورة ؟ وهل من الممكن أن نحكم بوجود الصورة إلا إذا كانت مدركة فى هذه اللحظة بواسطتنا ؟ لقد سبق أن اتفقنا على هذه الأمور .

هيلاس : لكن إذا فرضنا جدلا بأن أفكارك هذه صحيحة ، فليس من شك فى أنها أفكار غريبة ، تناقض الفكرة الشائعة فى وجود الأشياء . سل البستانى إذا كانت هذه الشجرة التى يراها هناك لها وجود مستقل عن عقله ، لترى إجابته . أى إجابة تتوقع منه على هذا السؤال ؟

فيلونوس: إنه سيجيب كما أجيب أنا لو أن هذا السؤال وجه إلىّ ، بأن الشجرة لها وجود خارج العقل . ولكن من المؤكد ، أن الرجل المؤمن بديانته المسيحية لن يدهش إذا قلت له إن الشجرة الحقيقية القائمة خارج عقله

موجودة فى عقل الله اللامتناهى الذى يعرفها ويدركها . وقد لا يفطن أول الأمر إلى البرهان المباشر على وجود الله الذى يحتويه هذا القول. كما لا يفطن أول الأمر إلى أن وجود الشجرة أو أى شىء محسوس آخر يحمل فى طياته برهاناً على وجود عقل يدركه . ومع ذلك فلن يستطيع أن ينكر هذا البرهان .إن نقطة الخلاف بينى وبين الفيلسوف المادى ليست قائمة فى الاعتقاد بأن الأشياء لها وجود حقيقى قائم خارج عقل هذا الشخص أو ذاك الآخر ، بل فى الاعتقاد بأن للأشياء وجوداً مطلقاً مستقلا عن كونه مدركا بالعقل الإلهى ، وبالعقول الأخرى . بعض الفلاسفة والمشركين قد ذهبوا إلى جواز هذا الوجود المطلق للأشياء ، أما الفيلسوف الذى يراعى أن تكون أفكاره عن الألوهية متفقة مع أقوال الكتاب المقدس فيرى رأياً آخر .

هيلاس : ولكن ماذا عسى أن يكون الفارق فى رأيك بين الأشياء الواقعية والأشياء المتخيلة التى تخترعها المخيلة . وتتراءى لنا فى الأحلام . مادام وجودها كوجود الأشياء الواقعة تماماً هو الآخر فى العقل ؟

فيلونوس: إن صور المخيلة ضعيفة خافته غير متميزة ، وفضلا عن ذلك ، فهى تعتمد فى وجودها اعتماداً تاماً على الإرادة . أما الصور الحسية أو صور الأشياء الواقعية فتمتاز بأنها أكثر وضوحاً وحيوية منها ، وفضلا عن ذلك ، فلما كان العقل اللامتناهى هو الذى يقوم بطبعها فى عقولنا ، فهى لا تعتمد على إرادتنا اعتماد صور المخيلة عليها . فليس هناك ما يضيرنا إذا تحدثنا عن الصور الحسية وصور المخيلة فى معرض واحد مادامت صور المخيلة شبيهة بالصور التى تتراءى لنا فى الأحلام ، فى خفوتها واختلاطها وعدم تميزها ، الأمر الذى يجعل احتمال الخلط بينها وبين الصور الحسية بعيداً ، وبالإضافة إلى ذلك فمن السهل أن نميز

بين الصور الحسية الواقعية لأن الأولى تكون عادة خالية من الحيوية بعيدة عن الطبيعة ، غير متماسكة ، مقطوعة الصلة بالحياة ومجرياتها وباختصار فإن كل ماتراه من فروق تميز الأشياء ، من « الخيالات » يتفق تماماً مع رأيي . وذلك لأن الفروق التي بينهما لابد أن تكون فروقاً واضحة تدركها بالحس ، ولست أنا الذي يحرمك من إقامة الفوارق بين الأشياء على أساس ماتدركه بالحس .

هيلاس : ولكنك مازلت تصر يا فيلونوس على القول بأنه لا يوجد في هذا العالم إلا النفوس والصور . وعليك أن تعلم أن هـــذا قول يبدو أمامي غريباً .

فيلونوس: أنا اعترف بأن كلمة « الصورة » التي استخدمها بدلا من كلمة « الشيء » ليست مألوفة ، ولذلك فهي تبدو غريبة بعض الشيء . ولكن استخدامي لها يرجع إلى أن علاقة الشيء بالعقل تبدو واضحة في هذا المصطلح ، وهي تدل الآن عند الفلاسفة على الموضوعات المباشرة للعقل . وعلى الرغم من غرابة هذا المصطلح ، إلا أنه لا يدل على شيء غير مألوف لأنه يدل في نهاية الأمر على أن هناك أشياء تدرك ، وأشياء تدرَك ، أو على أن كل شيء غـير مفكر لابد أن يتطلب مجرد وجوده في الطبيعة شيئاً يدركه إن وجوده لابد أن يكون مدركا إما عن طريق عقل متناه ، أو عن طريق عقل الله اللامتناهي الذي « فيه نحيا ونتحرك ونوجد » أليست غرابة هذا القول أقل بكثير من القول بأن الصفات المحسوسة الواقعية للأشياء ليست هي تلك التي ندركها في الأشياء ، أو القول بأننا لا نعلم إذا كانت الأشياء موجودة حقيقة أم لا ، أو القول بأننا نجهل ماعليه الأشياء في طبيعتها على الرغم من رؤيتنا لها وإحساسنا بها وإدراكنا لكل ماتشتمل عليه عن طريق الحواس ؟

هيلاس : وتبعا لذلك ، ألسنا مضطرين إلى أن ننكر وجود جميع الأشياء الفيزيائية والعلل الجسمانية وأن لا نعترف إلا بالروح باعتبار أنها العلة الوحيدة لجميع مظاهر الطبيعة ؟ وهل هناك شيء أكثر غرابة من هذا القول ؟

فيلونوس : أجل . ولكن الأغرب من هذا أن تقول بوجود شيء لا فاعلية فيه وتزعم أنه يؤثر فى العقل أو تدعى وجود شيء غير مدرك وتذهب إلى أنه العلة فى جميع إدراكاتنا(١) . وفضلا عن ذلك ، فإن ما يبدو لك غريباً هو عين ما تؤكده الكتب المقدسة فى مواضيع كثيرة ، فهذه الكتب تقول لنا إن الله هو الخالق الوحيد المباشر لجميع الأشياء التى عزى المشركون والفلاسفة وجودها إلى الطبيعة أو المادة أو الصدفة أو ما شابه ذلك من مبادىء غير مفكرة . هذا هو ما يقرره الكتاب المقدس بصفة دائمة ولست بحاجة إلى أن أذكر لك الآيات والنصوص التى تستطيع الرجوع إليها فى ذلك .

هيلاس : أراك يا فيلونوس لست واعياً للخطر الذى يهدد فكرتك عن الله ، وذلك لأنك عندما تقول إن الله هو الخالق الوحيد المباشر لجميع ما فى الكون ولجميع حركات الطبيعة فأنت تجعل منه بهذا خالق الجريمة والمسئول عن الكفر والزنا وما شاكل ذلك من الرذائل الشائنة .

فيلونوس : لكى أجيبك على هذه النقطة ، أود أن ألفت نظرك أولا إلى أننا

---

(١) فى الطبعتين الأخيرتين للمحاورات ، أضيفت الجملة الآتية بعد كلمة « إدراكاتنا » « مع ما فى هذا من تناقض وعدم مراعاة للحكمة القائلة بأن فاقد الشيء لا يعطيه » .

ناصق الإجرام بالشخص سواء ارتكب جريمته بيديه أم استخدم فيها آلة . فإذا افترضت بعد ذلك أن الله يفعل أفعاله مستعيناً بواسطة تطلق عليها إسم المادة ، فسيؤدى قولك هذا إلى أن تعتبر الله خالقاً تماماً مثلى عندما أقرر أن الله هو العلة المباشرة لجميع الأفعال التى فى الطبيعة . وألفت نظرك ثانياً إلى أن الرذيلة أو الإنحراف الأخلاقى لا يتمثل فقط فى هذا الفعل أو الحركة الخارجية التى يتم بها تنفيذ الرذيلة ، بل فى الإنحراف الباطنى للإرادة الذى يبعدها عن قوانين العقل والدين . وهذا واضح لأن قتل العدو فى المعركة أو إعدام المجرم لا ينظر إليه على أنه جريمة على الرغم من أن الفعل الخارجى هو نفس الفعل الذى تتم به الجريمة . وعلى ذلك ، فإذا كانت الرذيلة أو الشر ليس قائماً فى الفعل الخارجى ، فان إعتبارنا الله العلة أو المصدر المباشر لجميع أفعالنا لا يجعل منه مصدر الشر . حقاً إننى قد أنكرت وجود علل أخرى بجانب الأرواح ولكن هذا لا يتعارض مع منحنا الموجودات العاقلة حق استخدام ملكاتها فى تنفيذ أعمالها . وهذه الملكات وإن كانت مستمدة من الله ، إلا أنها تكون دائماً تحت تصرف الإرادة الإنسانية الأمر الذى يجعل الإنسان مسئولا مباشرة على جميع أفعاله الشريرة .

هيلاس : ولكن إنكارك وجود المادة أو الجوهر الجسمانى يا فيلونوس هو مالا أستطيع أن أسلم به ، فلن تقنعنى أبداً بأن هذا الإنكار يتنافى تماماً مع ما يقول به البشر جميعاً ، وإذا قدر لمناقشتنا أن تؤخذ فيها أغلبية الأصوات فأنا واثق من أنك ستخسر المعركة اللهم إلا إذا لجأت إلى جمع الأصوات قسراً .

فيلونوس : لا أرغب فى شىء أكثر من عرض وجهتى نظرنا أمام الناس العاديين الذين يتمتعون بادراك بسيط لم يفسده التعليم ومحفوظاته لنحتكم إليهم . وسأمثل أنا جانب الرجل الذى يثق فى حواسه والذى يعتقد أنه يعرف الأشياء التى يراها ويلمسها معرفة صحيحة ، ولا يثير أى شكوك حول وجودها . أما أنت فسأترك لك حرية إثارة الشكوك، والإشكالات حول وجودك ووجود الأشياء ، وسأرتضى بعدذلك حكم أى رجل عادى . إن شيئاً واضحاً تماماً أمامى ، ألا وهو عدم وجود جوهر تتقوم فيه الصور . والنظر إلى الأشياء المدركة على أنها صور هو كذلك من الأمور التى يسلم بها الجميع واعتبار الصفات المحسوسة من الموضوعات المدركة مباشرة أمر لا ينكره أحد . وينتج عن ذلك بوضوح أنه إذا كان ثمة جوهر لهذه الصفات المحسوسة فلن يكون إلا النفس أو الجوهر الروحى ، ففيه توجد لا باعتبارها حالا من أحواله أو صفة من صفاته بل باعتبارها أشياء مدركة قائمة فى الشىء الذى يدركها . وعلى ذلك ، فأنا أنكر وجود جوهر غير مفكر تقوم فيه موضوعات الحس . وبهذا المعنى لا وجود عندى لجوهر مادى. ولكن إذا كنا نقصد بالجوهر المادى الجسم المحسوس فحسب ، أو الشىء الذى يرى ويلمس [أى الشىء الذى يسلم بوجوده كل من لم يدرس الفلسفة إن صح هذا القول] ، فأنا أكثر تأكداً منك ومن جميع الفلاسفة فيما يتعلق بوجود المادة ، فأغلب الناس لايفهمون المعنى الذى أقصده من معارضتى لوجود الأشياء المسوسة ، وهذا هو السبب الذى يجعلهم ينفضون من حولى ويعارضون أفكارى . ولكن معارضتهم يجب أن توجه إليك لا إلىّ ، لأنك أنت الذى تشك فى وجود هذه الأشياء وليس أنا . ولذلك فأنا أعلن أنى واثق من وجود

الأجسام المادية أو الجواهر الجسمانية تقتى من وجودى نفسه [علماً بأنى لا أقصد بها الا الأشياء التى أدركها بالحواس] وهذا أمر يسلم به جميع الناس ولا يستوقفهم لأنهم لا يريدون أن يجهدوا أنفسهم فى البحث وراء طبائع خفية وجواهر فلسفية تبدو الشغل الشاغل لبعض الفلاسفة الآخرين .

هيلاس : أود أن آخذ رأيك فيما يلى : اذا كان الناس عندك يحكمون على حقيقة الأشياء عن طريق حواسهم ، فكيف يفطن الرجل العادى الى خطئه حين ينظر الى القمر فيعتقد أنه ذو شكل مسطح أملس ، قطره قدم ، أو حين ينظر من بعيد الى برج مربع فيعتقد أنه مستدير ، أو حين ينظر الى المجداف المنغمس بعضه فى الماء فيراه منكسراً ؟

فيلونوس : ان خطأه ليس قائماً فى الصور التى يدركها فى هذه اللحظة عن هذه الاشياء بل فيما يستنتجه من هذه الإدراكات . ففى حالة المجداف المنغمس بعضه فى الماء ، فلا شك أن ما يدركه بالبصر منه يكون منكسراً ، وهو مصيب فى هذا . ولكنه اذا استنتج من ذلك أنه سيظل يدرك هذا الإنكسار فى حاله خروج المجداف من الماء ، أو أنه سيلمس هذا الإنكسار بيديه فى حالة خروج المجداف . فهو مخطىء . وعلى هذا النحو ، فانه اذا استنتج أنه سيستمر فى رؤية القمر أو البرج على نحو ما يراهما فى موضعهما الاول ، مهما تقدم نحوهما أو اقترب منهما ، فسيكون مخطئاً . ولكن خطأه ليس قائماً فيما يدركه مباشرة وفى هذه اللحظة [إذ أن من التناقض الواضح أن نفترض أنه يخطىء فى هذا] بل فى الحكم الخاطىء الذى يجعله يربط إدراكاته الحالية للأشياء بصورها الحسية الدائمة ، أو يتوهم أن صور الاشياء التى يدركها فى هذه اللحظة هى صورها الخاصة بها فى اللحظات الأخرى .

وهـذا هو نفس ما نشاهده في مذهب كوبرنيكس [في الفلك] فكوبرنيكس قد رأى أننا غير قادرين إدراك حركة الأرض ولكنه اخطأ إذ ذهب أيضاً إلى أننا لن نستطيع إدراك هـذه الحركة حتى ولو كنا بعيدين عن الأرض بعدنا عن الكواكب الأخرى .

هيلاس : لقد اتضح لي ما تعنيه ، واعترف لك بأنى استحسن طريقتك في عرض الأشياء . ولكن اسمح لي أن أقول لك شيئاً ـ ألم تكن يا فيلونوس فيما مضى مقتنعاً بوجود المادة بنفس الدرجة التي تقتنع بها الآن بعدم وجودها ؟

فيلونوس: أجل كنت مقتنعاً بوجودها . ولكن هذا هو الفارق بين الموقفين . فقد كنت مقتنعاً فيما مضى بوجود المادة اقتناعاً على غير أساس ومتأثراً في ذلك بفكرتي السابقة عنها ، أما الآن فاقتناعي بعدم وجودها قائم على أساس واضح .

هيلاس : وأيا ما كان الأمر ، فيبدو لي أن الخلاف بيننا ليس خلافاً حول أفكار بقدر ما هو خلاف حول ألفاظ . فنحن متفقان في الفكرة مختلفان في تسميتها . فمن المسلم به أن عقلنا يتأثر بالصور القائمة في الخارج . ومن المسلم به كذلك أنه لابد من وجود ، لا أقول نماذج بل قوى مستقلة عن العقل ، تقابل هذه الصور . ولما كانت هذه القوى لا تستطيع أن تقوم بنفسها فلابد من التسليم بوجود « موضوع » يقومها . وهذا الموضوع اسميه أنا بالمادة وتسميه أنت بالنفس . وهذ هو الخلاف بيننا .

فيلونوس: اسمع لي ياهيلاس . هل هذا الموضوع الذي يقوِّم القوى ، ممتد أم لا ؟

هيلاس : إنه ليس ممتدا . ولكن لديه من القوة ما يجعلك تعتقد بأنه ممتد .

فيلونوس: ومعنى ذلك أنه ليس ممتداً فى حد ذاته .

هيلاس : أجل . أنه ليس ممتداً .

فيلونوس: ألا يحتوى هذا الموضوع على فاعلية ؟

هيلاس : بلاشك ، وإلا فكيف نقول إنه يشتمل على قوى معينة ؟

فيلونوس: دعنى الآن أوجه إليك سؤالين . أولا هل من اللائق فى عرف الفلاسفة والناس العاديين على السواء أن يطلقوا إسم المادة على الموجود أو الشىء غير الممتد الذى يحتوى فى داخله على فاعلية ؟ وثانياً ألا تتفق معى فى أنه من المضحك ومن غير المفهوم على السواء أن نسمى الأشياء بأسماء لا تتفق مع ما يفهمه الناس عادة منها ؟

هيلاس : حسناً إذن . دعنا من تسمية هذا الموضوع بالمادة مادامت هذه التسمية لا ترضيك . لنسميه مثلا بالطبيعة الثالثة ، وهى طبيعة مختلفة عن المادة والروح على السواء . وذلك ، لأنه ، بأى حق ستسمى هذا الموضوع بالروح ؟ ألا تتضمن فكرة النفس أنه موضوع مفكر ، فضلا عن كونه غير ممتد وبه فاعلية ؟

فيلونوس: إننى أدعوه بالروح لسبب ظاهر : وهو أنه يوجد فى عقلى فكرة عن معنى النفس . وذلك لأنه لا وجود لفكرة ما فى عقلى إلا إذا كانت متصلة بالإرادة ، ولا وجود للإرادة إلا فى النفس وعلى ذلك فعندما أتحدث عن شىء ذى فاعلية ، فلابد أن أقصد بذلك الروح . ثم أليس هناك أوضح من قولى إن الشىء فاقد الصور لا يمكن أن ينقل الصور إلىّ ، بينما إذا افترضت وجود الصور فيه فلابد أن يكون

روحاً . وإذا أردت أن أوضح لك هذه النقطة أكثر لقلت : إنى أذهب ، كما تذهب أنت ، إلى أننا ما دمنا خاضعين للتأثير الخارجى فلا بد أن نقول بوجود قوى خارج نفوسنا ، ولا بد أن نقول بقيام هذه القوى فى شىء مستقل عنا . وكلانا متفق فى هذا . ولكننا نختلف بعد ذلك فى ماهية هذا الشىء القوى . فأنا أقول إنه النفس وأنت تقول إنه المادة أو لا أدرى [ولا أنت تدرى] أية طبيعة ثالثة . ولكنى أبرهن على أنه النفس ، وذلك عن طريق الإبتداء من المعلومات أو الآثار انتهى إلى ضرورة وجود أفعال ، وعن طريق وجود الافعال المريدة انتهى إلى ضرورة وجود الإرادة . وإذا كان لابد أن يكون للأشياء التى أدركها أو نماذجها وجود خارج العقل ، وإذا كان هذا الوجود محصوراً فى الوجود المدرك أو الصور ، فمن المستحيل أن يقوم هذا الوجود فى شىء غير العقل أو الذهن . وعلى هذا النحو ، نستنتج وجود الذهن . ولكن الإرادة والذهن من المقومات الرئيسية للنفس . فلا بد إذن أن يكون هذا الشىء القوى مصدر الافعال والصور ، النفس بمعناها الدقيق .

هيلاس : بعد أن أوضحت لى هذه النقطة ، ربما يكون قد غاب عنك أنك وقعت فى تناقض . أليس من التناقض أن تسلم بوجود نقص فى الله ؟

فيلونوس : دون أدنى شك .

هيلاس : أليس الشعور بالالم نقصاً ؟

فيلونوس : بلى

هيلاس : ألا نشعر فى بعض الاحيان بالالم وعدم الارتياح بفعل موجود أو شىء آخر ؟

فيلونوس : أجل

هيلاس : ألم تقل بأن هذا الموجود يسمى روحاً ، وأليس هذا الروح هو الله ؟

فيلونوس : أسلم بذلك

هيلاس : ولكنك ذهبت إلى أن الصور المدركة فى الخارج تكون قائمة فى العقل الأكبر الذى يؤثر فينا . وعلى ذلك فإن صور الألم وعدم الارتياح تكون قائمة فى الله ، وهذا يؤدى إلى تألم الله ، الأمر الذى يدل على نقص فى الطبيعة الآلهية . وهذا تناقض ، كما ترى . ذلك خلاصة ما وقعت فيه من تناقض .

فيلونوس : لا جدال فى أن الله يعرف ويدرك جميع الأشياء . ومن بين هذه الأشياء التى يدركها الألم ، بل وحتى أى إحساس صغير بالألم ، وهو يعلم أيضاً كيف تتألم مخلوقاته . ولكن على الرغم من أن الله يعلم الألم ، وفى بعض الأحيان ، يسببه لنا ، إلا أننى أنكر إنكاراً تاماً أنه يتألم . إنما نحن الذين نتألم ونشعر بعدم الإرتياح باعتبار أننا كائنات متناهية وأرواح تستمد كيانها من غيرها ، وباعتبار أننا نكون معرضين للتأثيرات الحسية التى تأتينا من الخارج والتى قد تنطبع فينا رغم إرادتنا وتوانا لهذه السبب عينه . أما الله فنظراً لأنه لا يتأثر بأى مؤثرخارجى ، ولا يلجأ فى إدراكه للأشياء إلى الحواس كما نحن ، ونظراً لأن إرادته مطلقة ولا تعتمد على شىء آخر ، ولأنه علة جميع الأشياء ولا يعترض طريق إرادته شىء ، أقول إنه نظراً لهذا كله فمن الواضح أنه كائن لا يتأثر ولا ينتهره أى إحساس بالألم ، وإذا أردت الحقيقة فلا يشبهه أى إحساس على الإطلاق . إنه قد

كتب علينا نحن البشر أن نظل مقيدين بالجسد ، ولذلك ، فإن إدراكاتنا تكون مصحوبة بالتحركات الجسمانية ، ونتأثر بكل تغير يطرأ على جهازنا العصبى القائم فى الجسم . وهذا الجسم نفسه ليس فى حقيقة الامر إلا مجموعة من الصفات الحسية أو الصور التى لا وجود لها مستقلة عن كونها مدركة عن طريق العقل . ولذلك فإن كل إحساس يقابله تحركات جسمانية خاصة . وهذا التقابل خاضع لقانون الطبيعة وهو ليس فى حقيقة الأمر إلا تقابلا بين مجموعتين من الصور المتشابهة أو الأشياء المدركة إدراكا مباشراً . أما الله فهو روح خالصة ولذلك فهو غير مقيد بهذه الروابط الجسمانية ويتعالى عن هذه التأثرات ولا يوجد به أية تحركات جسمانية ولا تكون هذه التحركات مصحوبة فى عقله بإحساسات الألم أو السرور . إن الله يعرف كل شىء قابل للمعرفة ، وهذا كمال . ولكنه لا يخضع للآلام أو للإحساسات الأخرى لأنها نقص . فالله يعرف الصور ولكن الصور الخاصة بمعرفته لا تحمل إليه عن طريق الحواس كما هو الشأن معنا . إنك إذن تخلط بين هذين النوعين من الصور مع أن الفارق بينهما واضح . وهذا هو ما يجعلك تتوهم أن هناك تناقضاً مع أنه ليس هنا أى تناقض فى أفكارى .

هيلاس : ولكنى الاحظ أنك فى ثنايا كلامك هذا قد برهنت على أن كل حركة فى أجسامنا يقابلها كمية معينة من المادة . وهل بعد برهانك دليل ؟

فيلونوس : اعرض على مسامعى هذا البرهان .

هيلاس : من المبادىء التى أسلم بها أن تحركات أجسامنا لا تتم إلا إذا كانت تشتمل على كتل معينة من المادة ذات سرعة معينة . وعلى ذلك ، فإذا تساوت سرعة كتلتين من المادة ، فلا بد أن نتوقع أن التحركات

الجسمانية التى تقابلها ستكون متساوية هى الأخرى أى ستكون من نفس النوع ، ولكن التجربة قد أثبتت لنا أن جميع الأجسام ، أيا كانت كتلتها [باستثناء هذه الفوارق البسيطة التى تتولد عن مقاومة الهواء للاجسام] تنزل إلى الأرض بسرعة واحدة ، وفى هذا برهان على على أن حركة الأجسام التى تنزل إلى الأرض ، وبالتالى مقدار جاذبيتها ، وهى مصدر الحركة فيها ، تتناسب مع كتلة المادة . وهذا برهان غير مباشر على وجود المادة . مع أنك قد أنكرت وجودها .

فيلونوس : إنك تضع كمبدأ مسلم به أن حركة الجسم لابد أن تتناسب مع سرعة وكتله المادة . وابتداء من هذا المبدأ ، وصلت إلى ملاحظة استنتجت منها ضرورة وجود المادة . أليس هذا دوراً ؟ [ما دمت قد بدأت بالتسليم بوجود المادة ، مع أن هذا هو عين ما تريد البرهنة عليه] .

هيلاس : إنى لم أبدأ فى المقدمة إلا بالتسليم بالتناسب القائم بين الحركة والسرعة التى تكون ملازمة لصفتى الامتداد والصلابة .

فيلونوس : وحتى لو افترضنا صحة هذا ، فإنه لا يترتب على ذلك أن مقدار جاذبية الجسم أو حركته متناسبة مع المادة ، بالمعنى الفلسفى الذى نعطيه لهذه الكلمة . اللهم إلا إذا فهمت من هذا الجوهر المجهول أنه لا يعنى شيئاً آخر إلا هذه الصفات المحسوسة وهذا هو ما بدأت به مناقشتى معك به . فأنا أسلم بوجود حجم وصلابة ومقاومة ، وأسلم بأن هذه صفات تدرك بالحس ، وأسلم كذلك بأن حركة الأجسام أو مقدار جاذبيتها تتناسب مع هذه الصفات المحسوسة . ولكنى أنكر أن تكون هذه الصفات المدركة بواسطتنا أو القوى الكامنة فيها ، قائمة فى جوهر مادى . وهذا هو ما تؤكد وجوده . وقمت الآن

بتقديم برهان على وجود المادة ، ومع ذلك ، فلم تفلح فى إثبات وجودها .

هيلاس : لن أصر على هذه النقطة بعد ذلك . ولكن هل تعتقد أن جميع الفلاسفة الطبيعيين الذين يعتقدون بوجود المادة واهمون ؟ وبربك ما هو مصير أقوالهم فى وجود « الظواهر » ، ووجود الظواهر لا يكون إلا إذا افترضنا وجود المادة ؟

فيلونوس : ماذا تقصد يا هيلاس بقولك « الظواهر » ؟ .

هيلاس : أقصد المظاهر الحسية التى أدركها بالحواس .

فيلونوس : وهل المظاهر الحسية التى تدركها بالحواس شيئاً آخر إلا الصور ؟

هيلاس : لقد قلت لك مائة مرة أنها هى هى الصور .

فيلونوس : وعلى ذلك ، فإن فهمنا للظواهر يتوقف على كيفية تأثرنا بالصور ، بالطريقة التى تنطبع بها على حواسنا . أليس كذلك ؟

هيلاس : بلى .

فيلونوس : والآن ، إذا أثبت لى أن فيلسوفاً واحداً قد فسر لنا ظهور الصور فى عقلنا عن طريق المادة ، فسأسلم لك برأيك واعتبر كل ما قلته لك كأن لم يكن . أما إذا لم تثبت لى ذلك ، فمن العبث أن تلجأ بعد ذلك إلى كلمة « الظواهر » فأنا أفهم أن الموجود الذى يتمتع بإرادة وعقل هو الذى يستطيع أن يعرض علينا الصور . ولكنى لا أفهم مطلقاً كيف أن موجوداً لا يتمتع بشىء من هذا يستطيع إنتاج الصور أو التأثير فى عقولنا ، فإذا افترضنا جدلا أن لدينا فكرة عن المادة وأننا نعرف خواصها وأن وجودها واضح أمامنا ، فلن تصلح لتفسير وجود الأشياء فما بالك إذا كانت المادة هى أغمض شىء فى

الوجود على الإطلاق . ولكن على الرغم من كثرة ما قاله الفلاسفة حول وجود المادة ، فيجب علينا أن لا ننظر إلى كلامهم على أنه شيء لا طائل تحته ، فقد استطاعوا عن طريق ملاحظتهم للصور ومحاولتهم الربط بينها أن يقفوا على قوانين الطبيعة . وهذا جزء من المعرفة الإنسانية لا يخلو من الفائدة والمتعة .

هيلاس : ولكن من المعقول أن نفترض أن الله يخدع الناس جميعاً هل تتصور أن الله أدخل فى روع الناس جميعاً أن ثمة مادة ليكتشفوا فيما بعد أنه لا وجود مطلقاً لهذا الشىء ؟

فيلونوس : إنى أربأ بك أن تنسب إلى الله جميع الأفكار السابقة التى لم تمحص تمحيصاً كافياً واعتقدها الناس لمجرد ميلهم إلى التصديق بها فالأفكار التى ننسبها إليه إما أن يكون هو الذى أوحى بها إلينـــا وإما أن وضوحها أمام ملكاتنا كان من اليقين بحيث أصبحت نسبتها إلى الله أمراً لا مفر منه وبحيث أصبح من المستحيل علينا أن لا نسلم بها . ولكن أين الوحى الذى جعلنا نعتقد بوجود المادة ؟ أو أين هذا النضوج الذى لدينا فى فكرة المادة ؟ ثم أصحيح أن الناس جميعاً يصدقون بوجود المادة باعتبارها شيئاً متميزاً عما ندركه بالحواس ؟ إن من يعتقد بوجود المادة على هذا النحو لا يعدو أن يكون قلة من الفلاسفة .

وعلى ذلك فيتضح لك أن سؤالك الذى وجهته إلىّ يفترض أن وجود المادة على هذا النحو وجود مسلم به ، ولكنه ليس مسلما به كما ترى وعندما يصبح كذلك ، سأضطر إلى تغيير إجابتى . ولكن بحسبى أن أقول لك الآن إن الله فى رأيى لم يخدع البشر أبداً .

هيلاس : ولكن الجدة يا فيلونوس ، إياك والجدة . فأنا أخشى عليك منها

لأنها موضع خطر . فالأفكار الجديدة تقابل عادة بعدم الارتياح ، لأنها تحدث قلقلة فى عقول الناس ولا يدرون أين تعفى بهم .

فيلونوس : بأى حق ينظر إلى الفكرة التى لا أساس لها فى الحس أو العقل أو تعاليم الله على أنها تثير القلاقل ، وتعصف بالأفكار التى تستند إلى كل هذه الاسس ؟ إنى لا أستطيع أن أتصور ذلك . فأنا أقر أن الجدة فى أمور الدولة أو الدين قد تؤدى إلى هذه القلقلة التى تتحدث عنها ولا أن تقابل بعدم الإرتياح . ولكن هل هذا سبب وجيه لأن ننظر إلى الجدة فى الأفكار الفلسفية هذه النظرة ؟ إن من خصائص المعرفة أنها تنقلنا من المجهول الى المعلوم ، وتقدم انا بذلك جدة أو طرافة ، ولكن اذا كان علينا أن نقاوم كل هذه الجدة ، فما كان للعلم أو الفن أن يتقدم . ومع ذلك ، فليس من واجبى أن امتدح الجدة ولست ممن استهويهم إثارة المشاكل . إنما الجدة فى رأيى هى عكس ماأقول تماماً . الجدة فى أن تقول إن الصفات الحسية التى تدركها من الأشياء ليست هى الصفات الحقيقية لها ، وفى أن تعلن عدم ثقتك بالحواس ، وفى أن تذهب الى أننا جاهلون تماما بما عليه الأشياء فى الواقع ، وفى أننا لا ندرى حتى اذا كانت هذه الأشياء موجودة أم لا ، وفى أن الألوان والأصوات الحقيقية للأشياء عبارة عن أشكال وحركات غامضة ، وفى أن الأشياء فى ذاتها لا يصح أن نقول عن حركتها إنها سريعة أو بطيئة ، وفى أن الأجسام تحتوى على امتداد مطلق لاعلاقة له بأى حجم أو بأى شكل ندركه ، وفى أن ثمة شيئاً غير مفهوم ، وخالياً من الفاعلية هو الذى يؤثر على عقولنا ، وفى أن أصغر جزء فى جسم الإنسان يحتوى على أجزاء لا نهاية لها من الإمتداد . هذه الأقوال كلها هى عندى الأقوال الجديدة الغريبة التى تصطدم بالرأى العام وتقلقل العقول وتزج بها فى مشاكل وشكوك لا مخرج لها منها .

وقد احتكمت إلى الرأى العام لأقاوم هـذه الأقوال الجديدة نفسها .
حقاً ، لقد اضطررت أن ألجأ فى مقاومتى لها إلى طرق ملتوية بعض
الشىء وإلى كلام قد يكون غير مألوف . ولكن أقوالى كلها إذا
فهمت جيداً فإنها لن يخرج مضمونها عما يأتى : من المستحيل ومن
التناقض الواضح أن نفترض وجود شىء غير مفكر مستقل عن العقل
المدرك وإذا بدى هذا القول البسيط غريباً ، فمن العار أن نلصق به
صفة الغرابة فى هذا الصباح وفى بلد مسيحى كانجلترا .

فيلونوس : ليس من شك فى أن الأفكار التى تعارض أفكارك تثير كثيراً من
المشاكل . وليس من شك كذلك فى أن من حقك أن تدافع عن
أفكارك . ولكن أليس هناك أغرب من محاولتك إحالة جميع
الأشياء إلى مجرد « صور » ؟ ثم ألا تخجل بعد ذلك من أن تلصق بى،
أنا ، تهمة الشك ؟ من منا الشاك ؟ الجواب واضح .

فيلونوس : لقد أخطأت فهمى . إننى لم أغير وجود الأشياء ، ولم أحلها إلى
صور بل الأحرى أن يقال إننى غيرت وجود الصور وأحلتها إلى
أشياء . وهـذا صحيح ما دامت الموضوعات المباشرة للحس ، التى
تنظر إليها أنت على أنها مجرد مظاهر للأشياء ، تمثل عندى حقيقة
الأشياء الواقعية أو الأشياء فى ذاتها .
هيلاس : هل تدعى أنك تعرف الأشياء ؟ لك أن تدعى ماشئت ،
ولكن الثابت أنك لم تترك لنا إلا مجرد صور فارغة للأشياء ، أو
مجرد قشرتها الخارجية التى تظهر أمام الحواس .
فيلونوس : إن ماتسميه بالصور الفارغة للأشياء أو بالقشرة الخارجية لها
يمثل عندى حقيقة الأشياء فى ذاتها . وهى ليست صوراً فارغة

إلا إذا افترضت أن ما تسميه بالمادة هو الذى يمثل حقيقة الأشياء الجسمانية . فكلانا متفق فى أننا لا ندرك إلا مجموعة من الصور الحسية ولكن اختلافنا فى نظرتك إلى هذه الصور على أنها مجرد مظاهر فارغة وفى اعتبارى إياها أشياء واقعية . وفى كلمة واحدة ، أنت لا تثق بحواسك ، أما انا فاثق بها .

هيلاس : تقول إنك تثق بحواسك ، وتهنىء نفسك فى أنك بهذا تبدو متفقاً مع الرأى الشائع . وعلى ذلك ، أنت ترى أن الحواس تستطيع أن تكتشف طبيعة الأشياء الحقيقية ولكن إذا كان هذا صحيحاً ، فمن أين يأتى هذا الإختلاف فى الإدراكات الحسية ؟ لم لا يدرك الناس جميعهم نفس الشكل ونفس الصفات الحسية الأخرى ؟ وإذا كانت العين المجردة تطلعنا على الصفات الحقيقية للاشياء ، فلم نلجأ إلى استخدام الميكرسكوب ليكبر لنا حقيقة الأشياء ؟

فيلونوس : إذا أردت الدقة يا هيلاس ، فنحن لانرى نفس الموضوع الذى نحس به ، والشىء الذى نراه بالعين المجردة ليس هو نفس الشىء نراه بالميكرسكوب ولكن الإهتمام بهذه الفوارق الدقيقة بين الإدراكات سينتهى إلى أن نجعل كل ادراك يمثل شيئاً جزئياً خاصا ، وستتكاثر أمامنا الأفراد والأنواع الى درجة أن تصبح اللغة مستحيلة . ومن أجل ذلك ، ولكى يتفادى الناس جميع هذه الفوارق وغيرها مما يظهر أمام التفكير ، فقد لجأوا الى التوحيد بين الصور التى تصل اليهم عن طريق حواسهم المختلفة أو عن طريق حاسه واحدة فى لحظات مختلفة أو فى ظروف متباينة . الأمر الذى يؤدى إلى الربط بين ظواهر الطبيعة سواء عن طريق تتابع الصور أو عن طريق مساوقتها ويطلقون

على هذه الصور المترابطة اسما واحداً وينظرون اليها على أنها تعبر عن شيء واحد بعينه . وينتج عن ذلك أنني عندما أرى شيئا معينا ثم أحاول بعد ذلك أن أدركه بحواسي الأخرى فلا يكون هذا من أجل أن أفهم هذا الشيء على نحو أفضل إذ أن الشيء الذي أدركه بحاسة معينة ليس نفس الشيء الذي أدركه بالحواس الأخرى . وعندما أنظر إلى شيء ما بالعين المجردة ثم أحـــاول النظر إليه من خلال الميكرسكوب فلا يكون هذا من أجل أن تتضح أمامي صورة هذا الشيء أكثر وأكثر ، إذ أن الشيء الذي أدركه من خلال الميكرسكوب مختلف عن الشيء الذي أراه بالعين المجردة .ولكن هدفي من تكرار الإدراك في الحالتين أن أكتشف الروابط القائمة بين الصور وبقدر ما يصل الإنسان إلى وضع يديه على الروابط القائمة بين صور الأشياء بقدر ما يقال عنه إنه يعرف حقيقةً طبيعة الأشياء . إذ ماذا يكون حالنا لو أننا اقتصرنا على الصور المتغيرة للأشياء أو لو أن حواسنا كانت تظهرنا على صور الأشياء مختلفة باختلاف الظروف ستكون الطبيعية لذلك أن نسحب ثقتنا منها أو نعتقد في أنها متناقضة مع نفسها ومع الملكات الأخرى . ولن ينقذنا إلا إذا اعتقدنا كما تعتقد أنت بوجود شيء واحد لا يتغير وليس قابلا للإدراك لا ندرى عنه شيئاً ويمثل الطبيعة الحقيقية للأشياء التي تصبح عنواناً لهذا الإسم أو ذاك . ومصدر هذه الفكرة الخاطئة أن الناس لم يفهموا اللغة أو أنهم ربطوا بين صور كبيرة متفرقة وجمعوها في شيء واحد بعينه . ونستطيع كذلك بحق أن نرجع إلى هذا المصدر الخاطيء بعينه بعض أفكار الفلاسفة الذين لم يهتموا بالأفكار قدر اهتمامهم بالألفاظ وجروا في إثر المدلولات التي يعطيها رجل الشارع للأشياء ليصلوا إلى

تحقيق مطالبهم فى الحياة العملية من أقصر الطرق دون أن يهتموا بالتفكير الفلسفى أو النظرى فى هذه المدلولات ..

هيلاس : اعتقد أنى قد فهمت ما تقصد إليه .

فيلونوس : إنك تذهب إلى أن الصور التى تدركها بالحواس لا تمثل حقيقة الأشياء الواقعية بل مجرد نسخ أو ظلال لها . وتبعا لهذا الرأى ، فإن معرفتنا لا تكون صحيحة إلا بالقدر الذى تمثل فيه الصور هذه النماذج أو هذه الاصول تمثيلا صحيحاً . ولكن لما كانت هذه النماذج أو الاصول فى ذاتها مجهولة منا ، فمن المستحيل أن نعرف إلى أى مدى تمثل صورها المدركة هذه النماذج ، هذا إذا لم تكن تمثلها على الإطلاق ومعنى ذلك أننا لن نثق بمعرفتنا أبداً . وفضلا عن ذلك ، فلما كانت صورنا متغيرة ولما كان هذا التغير لا يمس طبيعة الأشياء الحقيقية ، فلا بد أن نستنتج من ذلك أن هذه الصور المتغيرة لاتمثل الطبيعة الثابتة للاشياء . وإذا فرضنا أن بعض الصور يمثل هذه الطبيعة والبعض الآخر لا يمثلها ، فكيف يتسنى لنا أن نميز بين الصور التى تمثلها والصور التى لاتمثلها . وكل هذا من شأنه أن يزيد من شكوكنا ويعمقها وبالإضافة إلى هذا فلن نستطيع أن نتصور أى وجود مطلق أو مستقل عن العقل لأية صورة من الصور أو لأى شيء مشابه لها . وبالتالى فإن وجود جميع الأشياء فى الكون سيكون فى رأيك وجوداً زائفا ونتيجة لهذا كله أننا سنجد أنفسنا فى أحضان أكثر المذاهب الشكية تطرفا ويأسا من المعرفة .

والآن استسمحك فى أن أوجه إليك هذه الأسئلة :

أولا : الا نعتقد معى أن مصدر كل هذا الشك هو عقيدتك التى تقول بوجود جواهر غير مدركة وتنظر إليها على أنها أصل الصور ومصدرها؟ .

ثانياً : هل وصلت إلى وجود مصدر الصور هذا عن طريق الحس أو العقل أم لا ؟ وفى حالة عدم استدلالك عليه بالحس أو العقل ، أفلا يكون من الخرق أن تتمسك بوجوده ؟

ثالثاً : هل دلك البحث حقاً على وجود مستقل لشيء خارجي أو لجواهر غير مدركة ؟ .

رابعاً : وأخيراً إذا وضعنا نصب أعيننا أن نتبع الطبيعة ونثق بحواسنا ونرفض كل تفكير فى الطبائع أو الجواهر المجهولة ، ألا نكون بذلك متمشيين مع عقيدة رجل الشارع الذى يسلم بأن الأشياء التى يدركها بالحواس هى الأشياء الواقعية ؟

هيلاس : ليس لدى أية رغبة الآن فى الإجابة على هذه الأسئلة . ولكنى أفضل أن أطلع على موقفك بإزاء المشكلة الآتية :
أليس ما أدركه بحواسى من الأشياء هو نفس ما يدركه الآخرون ؟ وإذا فرضنا أن مائة شخص قد وجدوا معى الآن ، فمن المتوقع أن يرون الحديقة والأشجار والأزهار كما أراها أنا . أما الصور التى أكونها فى مخيلتى عن الأشياء ، فهى خاصة بى وحدى ، وبالتالى فهى مختلفة عن تأثرات الآخرين . أليس فى هذا فارق واضح يميز صور المخيلة ؟

فيلونوس : أسلم معك بهذا . ولم يحدث أنى أنكرت الفارق القائم بين صور الحس وصور المخيلة ولكن ماذا تريد أن تستنتجه من هذا ؟ أحسب أنك لن تذهب إلى أن الأشياء المحسوسة توجد فى استقلال عن كونها مدركة لأنها تدرك بواسطة أشخاص كثيرين ؟

هيلاس : لن أقول لك شيئا بخصوص اعتراضك هذا . ولكنه قد قادنى إلى اعتراض آخر . ألا تعتقد أن حواسنا لا تدرك من الصور إلا ماهو فى داخل عقولنا ؟

فيلونوس : بلى

هيلاس : ولكن الصورة التى فى عقلى أنا ليست هى الصورة التى فى عقلك أو فى عقل هذا الشخص الآخر . أليست نتيجة ذلك أن إدراكى لهذا الشىء لا يكون أبداً على نفس الصورة التى يتم بها ادراك شخص آخر له ؟ ثم ألا يؤدى هذا كله إلى استحالة التفاهم بين الأشخاص؟

فيلونوس : من المؤكد أن أشخاصاً عديدين يستطيعون ان « يتفقوا » فى ادراكهم لشىء ما ، اذا فهمنا كلمة « اتفاقهم » بمعنى واسع [ولن يكون هذا الكلام متناقضاً مع مبادئى) فاللغة توافقية . ولذلك فعندما يتحدث الناس عن ادراكاتهم ويقولون إنهم « متفقون » فيها ، فانهم يقصدون بهذا عادة أنه لا يوجد خلاف بين بين هذه الإدراكات ، وبالتالى فان القول بأن « أناسا عديدين يرون نفس الشىء أو متفقون فى رؤيتهم له قول صحيح ، وفى وسع الناس جميعاً أن يستمروا فى استخدامه دون أن يكونوا فى هذا متجنين على اللغة أو على حقيقة الأشياء . أما اذا أخذنا كلمة « الاتفاق » بمعناها الفلسفى الحرفى فقد يكون من غير الممكن أن يتفق أناس عديدون فى ادراكهم لشىء ما ، وذلك لأنه على الرغم من اختلاف الفلاسفة فى تحديدهم لكلمة « هوية » الا أن هوية الشىء عندهم تأخذ مأخذاً جذرياً بحيث يتعذر معه أن تكون هوية شخص ما متفقة تماما مع هوية شخص آخر . ولكن البحث فى الهوية لا يعنينى الآن .

لنفترض أن أناساً عديدين وجدوا فى مكان واحد ، ولنفترض كذلك أنهم على قدم المساواة فى الملكات التى يتمتعون بها ، وبالتالى فإن تأثرهم الحسى سيكون واحداً أيضاً ، ولنفترض أيضاً أنهم لم يستخدموا اللغة بعد ، فلابد أنهم سيتفقون فى إدراكاتهم . ولكن عندما يأخذ هؤلاء القوم فى استخدام اللغة ، فإن البعض منهم ممن يهتمون بهوية الشىء المدرك سيقولون « إننا جميعاً ندرك نفس الشىء » ولكن البعض الآخر ممن يهتمون بتباين الأشخاص المدركين سيقولون إننـــا بصدد أشياء مختلفة ». ولكن أليس اختلاف هؤلاء القوم فيما بينهم اختلافاً حول استخدام الكلمات فقط ؟ أعنى فى جواز القول بأن أناساً عديدين يدركون نفس الشىء أم لا ؟ مثال آخر : لنفترض أن أمامنا منزلا قديماً تركت جدرانه وشكله الخارجى على حالها فى الوقت الذى أعيد بناء حجراته الداخلية أو هدمت وشيدت من جديد، فقد تقول إننا أمام « نفس » المنزل ، وقد أقول لك إننا لم نعد بصدد « نفس » المنزل . ولكن ألسنا نكون مع ذلك متفقين فيما يتعلق بأفكارنا عن هذا المنزل ؟ أعنى ألا يكون اختلافنا ليس إلا مجرد خلاف فى اللغة ؟ وإذا أجبتنى بأننا مختلفون فى أفكارنا عن هــذا المنزل إذ أننى فى نظرك لم أقل بأننا لم نعد أمام نفس المنزل إلا لأن لدى فكرة مجردة عن « الهوية » فى حين أنك قلت بأننا مازلنا بصدد نفس المنزل لأن فكرتك عن الهوية أقل تجريداً وبالتالى أكثر عمومية من فكرتى عنها . ولكنى سأطالبك كذلك بان تتأمل أفكارك نفسها لترى إذا كنت تفهم من هذا التعبير شيئاً . ولم تبدو صامتا هكذا ياهيلاس ؟ ألم تقتنع بعد بأن الناس قد يتناقشون حول « الهوية »

و « الإختلاف » دون أن يدل هذا على أى خلاف حقيقى فى أفكارهم إذا اسقطنا من حسابنا الألفاظ التى يستخدمونها ؟

وأطالبك الآن بأن تتعمق هذا الكلام قليلا . وسترى أن مناقشتنا حول وجود المادة أو عدم وجودها هو من قبيل هذه المناقشات اللفظية التى ضربت لك أمثلة لها هنا . وذلك لأن الفلاسفة الماديين أنفسهم يعترفون بأن ماندركه مباشره من طريق الحواس ليس إلا « صور » الأشياء . وعلى ذلك ، فإن معارضتك فى امكانية اتفاق شخصين فى رؤية نفس الشيء يصلح حجة ضد الماديين كما هو حجة ضدى .

هيلاس : ولكن مهلا : ان الماديين يقولون بوجود نموذج خارجى للأشياء يحيلون الصور المختلفة إليه ويكونون بذلك محقين فى قولهم بأنهم يدركون نفس « الشيء » .

فيلونوس: ولكن سبق لك أن عدلت عن وجود هذا « النموذج » ومع ذلك فدعنا من هذا . وبوسعى أن أقول لك إننى لا أعارض فى وجود هذا « النموذج » بشرط أن تفهمه على حقيقته . فهناك « نموذج » قائم خارج عقلى وعقلك ، ولكن يجب أن نقول إنه قائم فى عقل آخر وسع إدراكه كل شيء ، وتسليمنا بوجود هذا العقل سينقذ فكرة « الهوية » التى تهمنى بأن فكرتى عنها فكرة مجردة . فهوية الأشياء مفهومة على هذا النحو ، أى بمعنى اتفاق الأشياء فى قياسها فى العقل الكلى ؛ لاغبار عليها أظنك ستوافقنى عليها .

هيلاس : الحق أنك أقنعتنى تماماً إما عن طريق بيان أنه لاخلاف فى الجوهر بيننا ، وإما عن طريق بيان أنه فى حالة وجود خلاف فسيكون من قبيل النقد الموجه إلى كلينا .

فيلونوس: ولكن الستمعى فى أن النقد الذى يوجه إلى فكرتين متناقضتين لا يصلح أن يكون دليلا ضد أى منهما .

هيلاس : أقر ذلك . ولكنى عندما أفكر فيما قدمت من حجج ضد المذهب الشكى استطيع أن ألخصه فيما يلى : إننا على يقين ، وبالتالى فإننا لا نشك مطلقاً ، فى أننا نرى ونسمع ونلمس إحساسات واقعية ، وفى كلمة واحدة ، إننا على يقين من أننا نتأثر بالمؤثرات الحسية المختلفة .

فيلونوس: وهل من الممكن أن يكون للمسألة وجه آخر ؟ إننى أرى هذه الحبة من الكريز وألمسها وأتذوقها ، وهى من أجل ذلك موجودة وجوداً واقعياً . اسقط من حسابك الإحساسات المختلفة : ملمسها الناعم ، رطوبتها ، لونها الأحمر ، وطعمها الحاد ، وستتلاشى هذه الحبة من الكريز : وعلى ذلك ، فوجود هذه الحبة من الكريز ليس منفصلا عن هذه الإحساسات . أو هو جماع لهذه الآثار الحسية أو الصور المدركة بالحواس المختلفة ، أما لماذا تتجمع هذه الصور الحسية فى شىء واحد ، أو لماذا نطلق عليها اسماً واحداً بعينه ، فذلك لأن إدراكنا لصورة واحدة منها تجعلنا نتوقع إدراك الصور الأخرى . وهكذا فعندما يتذوق الحلق هذا الطعم الحاد لحبة الكريز ، فإن النظر سرعان مايدرك لونها الأحمر ، وسرعان مايدرك اللمس استدارتها ونعومة ملمسها . الخ وعلى ذلك ، فعندما أرى وألمس وأتذوق حبة الكريز بصور مختلفة، يتولد لدىّ يقين تام بأنها موجودة ، وجودها الواقعى عندى ليس شيئاً آخر إلا هذه الإحساسات نفسها . أما إذا كانت (حبة الكريز) تعنى عندك طبيعة مجهولة ، متميزة عن هذه الصفات

الحسية ، وإذا كان وجودها يعنى شيئاً متميزاً عن وجودها المدرك، فأنا اعترف لك بأننى لن أكون ، أنا أو غيرى ، على يقين من وجودها .

هيلاس : ولكن ماذا أن يكون موقفك يا فيلونوس إذا استخدمت نفس هذه الحجج التى استخدمتها أنت ضد وجود قيام جوهر مادى ضد قيام الصفات الحسية فى العقل ؟

فيلونوس: عندما أسمع حججك سأطلعك على رأيى فيها .

هيلاس : هل العقل ممتد أو غير ممتد ؟

فيلونوس: إنه بلاشك غير ممتد .

هيلاس : هل تذهب إلى أن الأشياء المدركة تكون قائمة فى عقلك ؟

فيلونوس: نعم .

هيلاس : ألم يتناول حديثك أيضاً الآثار الحسية ؟

فيلونوس: أظن ذلك .

هيلاس : فسر لى يافيلونوس كيف يتسع عقلك لكل هذه الأشجار ولجميع هذه المنازل ؟ وهل من الممكن أن توجد الأشياء الممتدة فيما ليس ممتداً ؟ وهل تتصور إمكان انطباع آثار حسية فى شىء خال من الصلابة ؟ انك لن تقول لى إن الأشياء قائمة فى عقلك كقيام الكتب فى حجرة مكتبك أو أنها تنطبع عليه كما ينطبع شكل الختم على قطعة الشمع . وعلى ذلك ، فبأى معنى نستطيع أن نفهم هذه التعبيرات ؟ وضّح لى هذا إذا استطعت. وسيكون فى وسعى بعد ذلك أن أحلّ لك جميع الإشكالات التى أثرتها سابقاً حول وجود الجوهر المادى الذى أؤمن به .

فيلونوس: استمع إلىّ ياهيلاس. عندما أتحدث عن قيام الأشياء في العقل أو انطباعها على الحواس . فيجب أن لا أفهم هذه التعبيرات بمعناها الحرفي الضيق، على مايقال من أن الأجسام توجد في هذا المكان أو ذاك ، أو أن هذا الختم انطبع على قطعة الشمع بهذا الشكل المعين أو ذاك ، إنما استخدمها لأعني بها فقط أن العقل يفهم أو يدرك الأشياء أو أنه يتأثر بها من الخارج عن طريق موجود مستقل أو متميز عنه . هذا هو ردى على المشكلة التي أثرتها الآن . أما كيف يستطيع كلامي هذا أن يخدمك في إثبات دعواك بوجود جوهر مادي غير مدرك ، فهذا مايسعدني أن اسمعه منك .

هيلاس : لا . إذا كان هذا هو كل ما تقصده فإني اعترف لك بأني لا أرى كيف يخدمني هذا القول في التدليل على وجود الجوهر المادي . ولكن ألم تكن بتلاعبك بالألفاظ مسئولا بعض الشيء على هذا الموقف الذي أقفه الآن .

فيلونوس: لا . مطلقاً . انى لم استخدم إلا اللغة التي خولتني العادة استخدامها ، والعادة كما تعلم - هي أساس استخدامنا للغة . فالفلاسفة قد إعتادوا أن يتحدثوا عن موضوعات العقل المباشرة على أنها أشياء قائمة أو موجودة في داخل العقل . وهذا قول يتمشى مع الاستعارات اللغوية حيث أننا نعلم أن أغلب العمليات العقلية يعبر عنها بألفاظ مقتبسة من العالم الحسي كما هو واضح في استخدامنا لهذه الكلمات يفهم Comprehend [ومعناها الحسي يحيط بكذا] يفكر reflect [ومعناها الحسي ينعكس] ويتحدث discourse [ومعناها الحسي ينتقل أو يجري من

مكان إلى آخر] . فهذه الكلمات قد أخذنا في استخدامها في الأمور العقلية ، قمنا باستبعاد معناها الحسي وهو المعنى الأول لها .

هيلاس : أعترف بأنك قد أقنعتني فيما يتعلق بهذه النقطة . ولكن ما زالت هناك صعوبة أخرى لا أدرى كيف السبيل إلى حلها . والحق أنها من الأهمية بحيث لو أنك وصلت إلى حل جميع المشاكل دون أن تظفر بحلها هي، فلن تتوقع مني أن أكون داعية لمبادئك .

فيلونوس: دعني أعرف هذه المشكلة الكبرى .

هيلاس : يبدو لي أن أقوال الكتاب المقدس عن « الخلق » مما لا يتفق أبداً مع أفكارك . فموسى عندما يحدثنا عن الخلق ، فأى خلق يعني ؟ هل هو خلق « الصور » ؟ كلا بالتأكيد إنه خلق للأشياء ، أو للجواهر الجسمانية الصلبة . وضح لي كيف تتفق مبادؤك مع هذه الصور السماوية للخلق ، وقد اتفق معك بعد ذلك على طول الخط .

فيلونوس: حقاً إن موسى يذكر في حديثه عن الخلق السماء والقمر والنجوم والأرض والبحار والنباتات والحيوانات . وأنا لا اعترض مطلقاً على أن لهذه الأشياء جميعها وجوداً حقيقياً واقعياً ، ولا اعترض كذلك على أن الله خلقها منذ البدء . وإذا كان قد تراءى لك أن الصور معناها الخيالات والأوهام ، فأنا أقول لك إن هذه الأشياء ليست صوراً بهذا المعنى . أما إذا فهمت من « الصور » أنها تعني الموضوعات المباشرة للإدراك ، أو الأشياء المحسوسة التي لا وجود لها مستقلا عن الإدراك خارج العقل ، فستكون هذه الأشياء صوراً . ولكني لا أهتم كثيراً إذا اطلقت على هذه الأشياء اسم الصور أم لا . فليس هذا إلا مجرد

خلاف لفظى . وسواء احتفظنا باللفظ أو تخلينا عنه فلن يغير هذا شيئاً من معنى وحقيقة الأشياء . فاللغة الدارجة تطلق على موضوعات الحس اسم « الأشياء » لا « الصور » ولك مطلق الحرية فى أن تستمر فى تسميتها بالأشياء وأعدك بأنى لن أجادلك فى اللفظ . بشرط أن لا تضيف إلى الأشياء وجوداً خارجياً مستقلا عن العقل .

ومن أجل ذلك فانى أوافق على أن « الخلق » كان خلقاً للأشياء أى للأشياء الواقعية . وليس فى هذا ما يتعارض مع مبادئى ، كما يتضح لك من كلامى الآن ، وكما كان يجب أن يتضح لك إذا لم تكن قد نسيت ما قلته لك مراراً . ولكنى مع ذلك أريد أن أعرف إذا كان موسى قد ذكر حقيقة الجواهر الجسمانية فى حديثه عن الخلق أم لا . وإذا فرضنا أن موسى أو أى نبى قد ذكر هذا فإن من واجبك أن تثبت لى أن هذا الحديث لم يكن يقصد به الأشياء بمعناها الدارج ، أى الأشياء بإعتبارها موضوعات الحواس ، بل الأشياء بمعناها الفلسفى الذى تقصده أنت ، باعتبار أنها تدل على « المادة » ذات الوجود المطلق والماهية المجهولة . وعندما تثبت لى ذلك ، يحق لك بعد ذلك أن تستشهد بأقوال موسى فى مناقشتنا حول المادة .

هيلاس : من العبث أن نتناقش حول نقطة واضحة كهذه . وسأترك الحكم عليها لشعورك الشخصى ، ألست مقتنعاً بأن ثمة تناقضاً بين أقوال موسى فى الخلق وبين أفكارك عنه ؟

فيلونوس: وإذا فهم الفصل الأول من سفر التكوين على حقيقته فلن يكون ثمة تناقض بين معناه وبين المبادىء التى أقول بها . ولكنك تفهم منه معنى

خاصاً يختلف عن المعنى الذى أفهمه منه . ولكن أنت تسلم بأنك لا تستطيع أن تدرك إلا : الارواح والصور ، ووجود الصور شىء أعترف به ولا تنكر أنت وجوده مستقلا عن العقل .

هيلاس : اسمح لى أن توضح لى المعنى الذى تفهمه من سفر التكوين .

فيلونوس : لو تخيلت أنى كنت موجوداً فى اللحظة التى تم فيها الخلق . فكان من الممكن أن يتاح لى فرصة رؤية الأشياء وهى تنتقل إلى حالة الوجود أى فى الوقت الذى أصبحت مدركة ، على نحو ما جاء وصف ذلك فى تاريخ الخلق . ولم يتغير المعنى الذى أفهمه الآن من حديث موسى فى الخلق عما كنت أفهمه منه قبل ذلك . فاذا ورد فى هذا الحديث أن وجود الأشياء يبدأ وينتهى، فيجب أن لا نفهم البدء والنهاية هنا بالقياس إلى الله بل بالقياس إلى مخلوقاته البشرية لجميع الأشياء معروفة لله منذ الازل ، وهى موجودة فى عقله منذ الازل كذلك ، ولكن عندما تنتقل الاشياء التى لم تكن مدركة من قبل ، بأمر من الله ، إلى الحالة التى تصبح فيها مدركة أمام الناس ، حينئذ يقال إنها بدأت فى الوجود، أى بدأت فى وجودها النسبى بالقياس إلى العقول المخلوقة . وعلى ذلك فعندما أقرأ حديث موسى فى الخلق ، أفهم منه أن أجزاء الكون أصبحت شيئاً فشيئاً ، أجزاء مدركة بالنسبة إلى الاشخاص المدركين وبالنسبة إلى عقولهم التى زودوا بها ، بحيث أن الاشخاص الذين كانوا موجودين فى لحظة الخلق ، كان مقدراً لهم أن يدركوا هذه الاشياء . هذا هو المعنى الحرفى الواضح الذى أفهمه من حديث الكتاب المقدس عن الخلق . ومن الواضح أنه لم يرد هنا أى ذكر لوجود جوهر مادى ، أو أداة ، أو مناسبة للفعل ، أو أى وجود

مطلق للمادة . واعتقد أننا لو سألنا جميع الناس العقلاء المخلصين الذين يؤمنون بخلق الله للكون ، فسنجد أنهم لا يفهمون من الخلق شيئاً غير ذلك ، أما المعنى الميتافيزيقى الذى تفهمه من الخلق ، فعليك وحدك إيضاحه لى .

هيلاس : ولكن يبدو لى يا فيلونوس أنك لم تفطن إلى أنك جعلت من وجود الأشياء المخلوقة ، عند بدء الخلق ، وجوداً نسبياً وبالتالى افتراضياً . وذلك لأنه لولا وجود الأشخاص المدركين لما استطعنا أن نقول عن هذه الأشياء إنها موجودة ، ولما انتهى الخلق بالنسبة إليها . ومعنى ذلك أن من المستحيل ، بحسب آرائك أن يسبق وجود الأشياء المادية وجود الإنسان ؟ ثم ألا يكون فى هـذا القول تناقض صريح مع وصف موسى للخلق ؟ .

فيلونوس : أستطيع أن أجيبك بأن أقول أولا إن من الجائز أن ظهور الأشياء المادية المخلوقة إلى الوجود مرتبط بعقل مخلوقات أخرى إلى جانب ارتباطه بالعقل البشرى . ومن أجل هذا ، فإنك لن تستطيع أن تثبت لى تناقض أفكارى مع أقوال موسى فى الخلق إلا إذا أثبت لى استحالة ظهور عقول أخرى متناهية إلى الوجود قبل العقل الإنسانى . أما إذا تصورنا الكون عند خلقه كما نتصور الآن صحراء خالية تماماً من الناس أخذت النباتات والخضروات ، من كل زوج بهيج ، تنبت فيها بفعل قوة مجهولة ، فان هذا التصور سيكون هو الآخر متفقاً مع مبادئى مادام لن يحرم الإنسان من أى ملكة من ملكاته سواء كانت حسية أو متخيلة . وهذه الصورة الأخيرة تتفق مع الأفكار الدارجة التى لدى كافة الناس عن الخلق . وهى صورة تظهر لنا مقدار اعتماد جميع الأشياء على الله ، وبالتالى فلها هذه الميزة الكبرى فى أنها تجعل

الناس فى إيمانهم بالله خاضعين له ، شاكرين لنعمته ، مسلمين أمورهم له باعتباره خالقهم . ولكن هذه الصورة التى تمثل لنا الكون عند الخلق فى هذه الصورة العادية لا تقدم لنا هى الأخرى أية فكرة عن هذا الوجود المطلق للأشياء الذى تتحدث عنه . وبوسعك أن تستمر فى إثارة غبار كثير حول هذه الألفاظ التى تتقن استخدامها وبذلك تطيل مناقشتنا بلا طائل . ولكنى أدعوك أن تتأمل فى أفكارك الخاصة التى تقابل هذه الألفاظ ، وسترى أنها ليست إلا رطانة عديمة الفائدة وغير مفهومة معاً .

هيلاس : أنى أعترف بأنه ليس لدى أية فكرة واضحة عنها . ولكن ما قولك فى هذه الفكرة ؟ ألا تنظر إلى وجود الأشياء المحسوسة باعتباره وجوداً قائماً فى العقل ؟ ثم أليست جميع الأشياء قائمة فى العقل الإلهى منذ الأزل ؟ وعلى ذلك ، ألا تسلم بأن الأشياء موجودة منذ الأزل؟ وإذا كانت كذلك ، فكيف تخلق هذه الأشياء الأزلية فى الزمان ؟ هل هناك اعتراض أوضح من هذا الإعتراض ؟

فيلونوس : ألست تعتقد أن الله عالم بكل شىء منذ الأزل ؟

هيلاس : بلى .

فيلونوس : ومعنى ذلك أن الأشياء موجودة فى العقل الإلهى منذ الأزل .

هيلاس : أوافق على هذا .

فيلونوس : وهذا يؤدى بنا إلى القول بأنه ليس هناك شىء جديد أو يبدو كذلك بالنسبة إلى عقل الله . ألسنا متفقين فى هذا ؟

هيلاس : ولكن ما عسى أن يكون موقفنا بالنسبة إلى خلق الأشياء ؟ .

فيلونوس : أليس من الجائز أن نقصر فهمنا على الخلق باعتبار أنه خلق بالنسبة

خالق بالنسبة إلى العقول المتناهية الفانية فقط ؟ إن الأشياء لا يقال عنها إنها بدأت فى الوجود أو خلقت إلا بالنسبة الينا فقط ، عندما أمر الله أن تصبح هذه الاشياء أشياء مدركة أو قابلة للادراك للعقول البشرية، وفقاً للقوانين التى وضعها هو والتى يطلق عليها اسم قوانين الطبيعة ؟ وبوسعك أن تسمى هذا الوجود للأشياء وجوداً نسبياً أو افتراضياً، كما يحلو لك . ولكن ما دام هذا الوصف لوجود الأشياء يتمشى بوضوح تام مع حديث موسى عن الخلق ، وما دام يتفق مع تعاليم الدين كما وردت فى سفر التكوين ، وما دمت لا تستطيع أن تستبدل به وصفاً أو معنى آخر ، فانى أتساءل عما يدفعنا بعد ذلك كله إلى رفضه ؟ هل نضحى بهذا المعنى من أجل مجرد الرغبة المضحكة فى الشك فى وجود الأشياء وفى جعل جميع الأشياء غير مفهومة ولا معنى لها ؟ وأنا واثق من أنك لن تقول إن هذا ما هو الا إمعان منك فى إظهار قدرة الله ؟ وذلك لأننا لو تمشينا مع افتراضك وقلنا بأن للعالم المادى وجوداً مطلقاً مستقلا عن العقل الإلهى ودون العقول المخلوقة على السواء، فكيف يؤدى هذا الى الاستدلال على عظمة الله وسعة علمه وقدرته ؟ وكيف يؤدى هذا الى اعتماد الأشياء على الله؟ أليس المعقول أن موقفك هذا سيؤدى الى الإقلال من هذه الصفات التى نضيفها عادة الى الله ؟

هيلاس : ولكن بالنسبة الى أمر الله الذى قضى به أن تصبح الأشياء قابلة للإدراك بواسطة العقول الفانية ، أليس من الواضح يا فيلونوس أن الله قد نفذ هذا الأمر منذ الأزل ؟ أم أنك ستذهب الى انه أراد ذلك فى لحظة ما من الزمان ، وأنه كان محجماً عن تنفيذ ذلك قبل

هذه اللحظة أو أنه كان لديه نية التنفيذ فقط ؟ فإذا قلت بالرأى الأول فلن يكون هناك مجال للبحث عن الخلق بالنسبة للأشياء المتناهية المخلوقة. وإذا قلت بالرأى الثانى ، فسيكون معنى ذلك أنه قد حدث تغير جديد بالنسبة إلى الله اقتضاه الخروج من حالة إلى حالة أخرى ، وهذا يؤدى إلى حدوث تغير فى ذات الله . والتغير نقص يتعارض مع كمال الله .

فيلونوس: تأمل ماتقوله جيداً أليس من الواضح أن اعتراضك هذا يصلح ضد الخلق فى جميع صوره ، بل ضد أى فعل من أفعال الله عند ظهوره أمامنا فى الطبيعة ؟ فنحن لانستطيع بعقلنا القاصر أن نتصور أى فعل من أفعال الله إلا إذا كان قد بدأ وتم فى الزمان . ولكن الله موجود متعال وصفاته وكمالاته لاتقف عند حد . ومن أجل ذلك فإن طبيعته لا يمكن للعقول المتناهية أن تفهمها أو تحيط بها . ولا وجود لإنسان مادياً كان أو لا مادياً ، يستطيع أن يحيط بالدقة بالألوهية وصفاتها وأفعالها . وإذا كنت قد استطعت أن توجه لى اعتراضاً ما ، فإن اعتراضك هذا يجب أن لايقوم على عجزنا عن تصور طبيعة الله وهو نقص مسلم به ، بالنسبة إلى كل موقف وكل شخص ، بل يجب أن تستمده من معارضتى لوجود المادة الأمر الذى لم تتعرض له من قريب أو بعيد فى كل ماقلته لى الآن .

هيلاس : حقاً : لابد لى أن اعترف أن المشاكل التى وجهت نظرك إليها فى هذا البحث تتعلق فحسب بوجود المادة أو عدم وجودها ، ولاشىء غير هذا وإذا ، فأنت على حق عندما تذكرنى بذلك . ومع ذلك ، فلا استطيع أن أمنع نفسى من التمسك بأن ثمة تعارضاً بين أفكارك

وبين الخالق على الرغم أنني عاجز عن تحديد هـــذا التعارض على وجه الدقة .

فيلونوس: ماذا تتطلب مني إذن ؟ ألم أقل لك إن ثمة حالتين لوجود الأشياء . وجود الأشياء في الطبيعة ، ووجودها كنماذج أزلية . الأشياء في الطبيعة هي تلك الأشياء التي خلقت في الزمان . أما الأشياء بإعتبارها نماذج أزلية فهي الأشياء بإعتبارها قائمة في عقل الله منذ الأزل . ألا يكون هذا الرأى متفقاً مع ما هو معروف عن الله وصفاته ؟ أم أن هناك شيئاً أكثر من ذلك يطلب منا لتصور الخلق ؟

ولكنك تزعم أن هناك تناقضاً ما بين أفكارى وتصور الخلق على الرغم من أنك لم تستطع أن تعين هذا التناقض . ولكى أنزع من تفكيرك كل شك يتعلق بهذه النقطة ، أرجو أن تتأمل ما سأقوله لك . فهناك أحد احتمالين : فإما أنك عاجز عن تكوين أية صورة للخلق مهما كان . وفى هذه الحالة لن يكون لديك أدنى حق فى أى اعتراض توجهه إلى أية صور للخلق . وإما أنك مستعد لتصور الخلق وفهمه وفى هذه الحالة لا أفهم اعتراضك على الصورة التى أقدمها أنا للخلق مادامت هذه الصورة لا تتعارض مع أى مبدأ معترف به ؟ فقد سمحت لك أن تستعين بكل ما حباك الله من حواس وخيال وعقل . وهذه الصورة التى قدمتها للخلق ستحافظ تماماً على كل ما كنت تدركه بالحواس ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، وعلى كل ما كنت تدركه بالعقل أو حتى تتخيله . وليس لدى ما يمنع مطلقاً من أن تعتمد على مبادىء أخرى فى الصورة التى تقدمها أنت للخلق . المهم عندى أن تكون صورة معقولة . وحينئذ فسأضمها إلى فكرتى عن الخلق ، أما إذا لم تكن كذلك

فهى ليست فى نظرى صورة على الإطلاق . وبالتالى فلن نخسر كثيراً برفضها . والحق، يبدو لى بوضوح أن افتراض وجود مادة باعتبارها موجوداً غير معروف وغير قابل لأى تصور ، هو افتراض لا يخدمنا فى تصور أى شىء على الإطلاق . ولست بحاجة إلى أن أقول لك إنه إذا كان وجود المادة يقف عقبة ضد تصورنا الخلق ، فلن يجدى بعد ذلك أن نقول فى الدفاع عنها إننا عاجزون عن تصور الخلق بدونها ، لأن هذا لا ينهض دليلا على وجودها .

هيلاس : اعترف لك يافيلونوس بأنك قد اقنعتنى تقريباً فيما يتعلق بفكرتك عن الخلق .

فيلونوس: أود أن أعرف لماذا أقنعتك تقريباً ، أو لماذا لم اقنعك تماماً . انك تحدثنى عن تعارض بين مذهبى فى اللامادية وبين حديث موسى عن الخلق . ولكنك تعجز عن تحديد هذا التناقض . أليس هذا كلام معقول ياهيلاس ؟ هل تتوقع منى أن أحل مشكلة دون أن أعرف ماهى ؟ ولكن لندع هذا جانباً . إنما الأمر الذى لا أشك فيه أنه يبدو من أقوالك أنك تقتنع بأنه لا تعارض بين أفكار الماديين وبين الكتابات المقدسة . أليس كذلك ؟

هيلاس : بلى

فيلونوس هل علينا أن نفسر الجزء التاريخى [الذى يتعلق بنشأة الكون] فى الكتاب المقدس بمعناه الواضح السهل أو بمعنى ميتافيزيقى خارج عن المألوف ؟

هيلاس : بمعناه الواضح السهل طبعاً ؟

فيلونوس: عندما يتحدث موسى عن الحشائش والأرض والماء الخ باعتبار أنها خلقت بإرادة الله ، ألا تعتقد أن القارىء المادى لايفهم من هذه الكلمات إلا مجرد معناها الحسى المعروف ؟

هيلاس : لا اعتقد غير هذا .

فيلونوس: هل يعتقد الفيلسوف المادى أن الصور أو الأشياء المدركة بالحس لها وجود واقعى أم لا ؟

هيلاس : هذا الوجود الواقعى للصور قد عارضته قبل ذلك .

فيلونوس : ومعنى ذلك أن الخلق عند الماديين ليس خلقاً للأشياء المحسوسة التى لها وجود نسبى فقط بل خلقاً لبعض الطبائع الخاصة المجهولة ذات الوجود المطلق المستقل عن الذوات ولايتم الخلق إلا بها ؟

هيلاس : هذا صحيح .

فيلونوس: أليس من الواضح إذن أن القائلين بالمادة هم الذين يهدمون المعنى السهل الواضح للخلق الذى ورد فى حديث موسى ، وهو معنى لا تتفق مبادؤهم معه ؟ ثم أليس من الواضح أنهم قد استعاضوا عنه بشىء لاأعرف كنهه ، وهو مجهول منى ومنهم على السواء ؟

هيلاس : لا أعارضك فى هذا .

فيلونوس: فموسى يحدثنا عن الخلق . ولكن أى خلق ؟ هل هو خلق الجواهر المادية المجهولة التى تكون مناسبات للفعل ؟ كلا بالتأكيد . بل هو خلق للأشياء المدركة بالحواس عليك إذن قبل أن تطلب منى ان أوفق بين هذا الحديث وبين أقوالى أن توفق أنت بينه وبين أقوالك .

هيلاس : أرى أنك تقوم الآن بمهاجمتى بنفس اسلحتى .

فيلونوس : ولنعد إلى افتراض « وجود مطلق » للأشياء . هل هناك فكرة أكثر خلواً من المعنى من هذه الفكرة ؟ إن هذا الشيء المجرد غير المفهوم قد اعترفت بصراحة أنك لا تستطيع تصوره ومن باب أولى ، فأنت لا تستطيع أن تفسر به أى شيء على الإطلاق . ولكن لنفترض وجود المادة ، ولنفترض كذلك أن فكرة الوجود المطلق من أكثر الأفكار وضوحاً ، فهل سيساعدنا هذا الافتراض فى توضيح معنى الخلق والتصديق به ؟ كلا . إن هـذا الإفتراض نفسه هو الذى قدم إلى الملاحدة والمارقين فى كل العصور أقوى الحجج ضد الخلق . فقد ذهب الفلاسفة إلى استحالة الخلق من العدم بالنسبة إلى الجواهر المادية ذات الوجود المطلق المستقل عن العقول والأرواح ، وذهبوا كذلك إلى أن خلق هذا الجوهر بإرادة روح مطلق أمر غير مفهوم . وهذه حجة شهيرة قال بها ليس فقط الفلاسفة القدماء ، بل قال بها كذلك فلاسفة محدثون بل وحتى فلاسفة مسيحيون ممن ذهب إلى أن المادة كانت موجودة منذ الأزل مساوقة للوجود الإلهى . فتأمل هذه الحجج ، واحكم بنفسك إذا كانت هذه الأقوال المادية تشجع الناس على الإيمان بالخلق أم لا .

هيلاس : أعترف لك يا فيلونوس أنها لا تشجعهم على الإيمان بالخلق . وحسبى الآن اعتراضات على فكرة الخلق ، وأقر بأنك قد أجبت على جميع هذه الاعتراضات إجابات مرضية ولم يبق لكى أسلم لك نهائياً بكل أفكارك إلا ما أشعر به فى قرارة نفسى من عدم قبولى لأفكارك بوحى من طبيعتى .

فيلونوس : عندما يكون الإنسان فى مثل حالتك من الذبذبة والتردد ولا يعرف

لأى جانب عليه أن ينحاز ، ألا تعتقد أن هذه الحالة ليست إلا نتيجة وقوعه تحت تأثير الافكار السابقة التى لا تستطيع عادة أن تقتلع من الإنسان أفكاره التالية التى تكون قد تركت جذورها العميقة فيه وبهذه المناسبة ، فأنا أعتقد أن فائدة الثقافة بوجه عام قائمة ليس فقط فى مقاومة هذه الافكار بل فى أنها تجعلنا نعتقد بصحة الافكار المضادة لها [وفى هذه الحالة فكرة إنكار المادة] .

هيلاس : اعترف لك بأنه يلوح لى أن الامر على نحو ما تقول .

فيلونوس : ولنضع الآن فى كفة الميزان الاخرى وفى مقابل الكفة التى وضعنا فيها الفكرة السابقة التى تقول بوجود المادة لنضع فى الكفة الاخرى من الميزان المذهب اللامادى وسنرى بوضوح تام الفوائد الكبرى التى سنجنيها من وراء هذ المذهب سواء فى الناحية الدينية أو فى ثقافتنا بوجه عام . فسنرى أولا أن هذا المذهب يساعدنا على الإعتقاد بوجود الله وعلى الإيمان بخلود الروح وهماالفكرتان الاساسيان فى كل دين . وعندما أتحدث عن الله هنا فلا أقصد به هذه العلة الغامضة العامة التى تصدر عنها الاشياء والتى ليس لدينا عنها أى تصور واضح بل أقصد به الله بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة أى ذلك الموجود الذى لا يرقى الشك مطلقاً إلى روحانيته وقدرته اللانهائية وعلمه اللانهائى وعنايته الكبرى بمخلوقاته والخير الذى نلمسه فى كل فعل من أفعاله . فثقتنا بوجود هذا الكائن ليست بأقل من ثقتنا بوجود الاشيـــاء المحسوسة أو بوجود أنفسنا [على الرغم من هذه المغالطات التى أثارها الشكاك حول وجود الاشياء المحسوسة] أما فيما يتعلق بفائدة المذهب اللامادى فى الثقافة بوجه عام أو فى العلوم الانسانية فنجد

أولا أنّ الاعتقاد بوجود المادة قد أدى فى الفلسفة الطبيعية مثلا إلى مجموعة من المتناقضات والأفكار الغامضة التى لا حصر لها. فاذا صرفنا النظر عن هذه المشاحنات العديدة التى قامت بين الفلاسفة الطبيعين حول تحديد امتداد المادة وطبيعتها من حيث اتصالها أو انفصالها ومقدار الإنسجام القائم بين أجزائها ودرجة جاذبيتها إلى إلى الأرض وقابليتها للإنقسام إذا صرفنا النظر عن هذا وجدنا أن هؤلاء الفلاسفة الطبيعيين يدّعون قدرتهم على تفسير جميع ظواهر الكون بالالتجاء إلى تأثير أجسام فى أجسام أخرى وفقاً لقوانين حركة الأجسام التى يؤمنون بها ولكن على الرغم من ذلك هل استطاعوا أن يوضحوا لنا تماماً كيف يتم تأثير جسم ما فى حركة جسم آخر ؟ كلا. وإذا تركنا جانباً صعوبة تصور قيام علاقة بين علة مادية وبين جسم غير متحرك أو صعوبة تصور انتقال الحركة من جسم إلى آخر، فان هؤلاء الفلاسفة الطبيعيين - على الرغم من كثرة أفكارهم الملتوية وافتراضاتهم المغرقة فى الخيال قد عجزوا عن أن يقدموا لنا شبيهاً لحيوان واحد أو حتى لنبات واحد. هل استطاعوا مثلا بالاعتماد على قوانين الحركة فقط أن يقدموا لنا أصواتاً وطعوماً وروائح وألوان ؟ وهل استطاعوا أن يفسروا لنا عن طريق هذه القوانين النظام الذى يسرى عليه الكون ؟.

وعلى العكس من ذلك، إذا تركنا جانباً المادة والعلل الجسمانية وأرجعنا جميع مظاهر الكون إلى العقل الإلهى الكامل، ألا نستطيع بذلك أن نحصل على تفسير سهل معقول لجميع مظاهر الكون ؟ فاذا كنا قد اتفقنا على أن جميع مظاهر الكون ليست إلا « صوراً » فان صورة الله صورة روحية، أما صورة المادة فهى صورة غير مفهومة

وغير مدركة وشتان بين الصورتين . فاذا قال الماديون إن المادة مصدر قوة لامتناهية فان من الحق أن نرد عليهم قائلين إن قدرة الله وفاعليته لا متناهيتان ، وستبدو المادة أمامنا وكأنها كتلة لا حركة فيها إذا قورنت بالله . واذا كانوا معجبين بنظام ودقة وفائدة المادة وقوانينها ، فان من الحق أن نذكّرهم بأن حـــكمة الله وعنايته لامتناهيان وأن المادة اذا قورنت به ستبدو كتلة خالية من الفاعلية الذاتية لا تهدف الى شيء . ولابد أن تكون لجميع هذه الاعتبارات آثارها وفوائدها فى علم الفيزياء .

وفى الأخلاق ، اذا كان الناس لا يؤمنون بالله الا باعتباره علة بعيدة عن الكون كما يؤمن الماديون ، فان هذا سيؤدى الى اهمال الناس فى سلوكهم . وعلى العكس من ذلك ، اذا ذهبنا [كما يقول اللاماديون] الى أن الله حاضر حضوراً مباشراً فى الكون ، وأن له تأثيراً مباشراً على عقول الناس ، وأنه لا يلجأ الى وساطة المادة أو العلل الثانوية ليؤثر فى الناس وفى الاشياء ، فان هذا من شأنه أن يكون الناس أكثر حذراً فى سلوكهم خشية له .

وفى الميتافيزيقا ، أية صعوبات تقودنا إليها افتراضات مثل وجود ماهية مجردة للمادة ، وصور جوهرية ، ومبادىء مادية ، وطبائع مرنة ، وجوهر وعرض ، ومبدأ تفرد المادة ، وإمكانية الفاعلية القائمة فيها ، والنظر إليها على أنها علة الصور ، والإيمان بأن ثمة تأثيراً متبادلا بين جوهرين مستقلين تماماً مثل الجوهر الروحى والجوهر المادى ؟ هذه الصعوبات والمشاحنات العديدة التى أثيرت حولها وحول كثير من الصعوبات الاخرى المشابهة لها ، ألا نستطيع

أن نتفاداها جميعاً إذا ما اقتصرنا على افتراض وجود أرواح و « صور » ؟

وفى الرياضيات ، إذا تخلصنا من الوجود المطلق للأشياء الممتدة، ألا يصبح هذا العلم واضحاً سهلا باختفاء جميع الأفكار المعقدة الملتوية التى نلتقى بها فى هذا العلم نتيجة لافتراض قابلية الأجسام الممتدة إلى القسمة اللامتناهية وهو الافتراض القائم على وجود المـــادة ؟

وهل نجد انفسنا بحاجة بعد ذلك إلى تتبع العلوم الجزئية الاخرى من هذه الزاوية ؟ أليست مهاجمة امكانية العلم ، تلك المهاجمة التى أثارها الشكاك فى العصور القديمة والحديثة على السواء قائمة فى أساسها على افتراض وجود مطلق للمادة ؟

وبعد ، فإن كل ما استطعت أن تقدمه من حجج لمناهضة حقيقة الأشياء المحسوسة أو لمناصرة وجود طبائع مجهولة منا ينحصر فى حجة واحدة هى افتراض وجود واقعى للأشياء يتمثل فى وجود خارجى مستقل عن العقل . والحق أنه إبتداءً من هذا الافتراض استطعت أن تقدم اعتراضات لها بعض القيمة وتقوم كلها على أساس عدم الثقة فى الأشياء المحسوسة : كما يتضح من تغير ألوان رقبة الحمامة أو المجداف الذى ينغمر طرفه فى الماء فيبدو منكسراً . ولكن هذه الاعتراضات وأمثالها تسقط عندما نصرف النظر عن هـذا الوجود المطلق للاشياء الخارجية ونجعل الوجود الحقيق الواقعى للأشياء قائماً فى الصور التى لدينا عنها ، على الرغم من تغيرها وتقلبها وإن كان هـذا التغير ليس متروكا للصدفة بل يخضع لنظام الطبيعة . فعلى هذا النحو نستطيع

أن نحافظ على الحقيقة الباطنة فى الأشياء وعلى النظام المطرد فيها ، واستطيع أيضـــاً أن نميز بين ماهو واقعى وما هو وهمى فى الأشياء .

هيلاس : اتفق معك فى كل ماقلته الآن . واعترف لك بأن كل المزايا والفوائد التى عددتها لمبادئك اللامادية من شأنها أن تجعلنى أرحب بها . فأنا كسول بطبعى ، وهذا أمر غير مرغوب فيه فى البحث عن المعرفة . ولكنى وقفت الآن على أن فكرتك عن اللامادية كفيلة بأن تنقذنا من شكوك كثيرة واعتراضات عديدة ، وسراديب لا أول لها ولا آخر ، وإن كانت مسلية ـ ومشاحنات طويلة ، وبحوراً زاخرة بالثقافة الزائفة .

فيلونوس: والآن ، هل بقى شىء آخر علينا أن نبحثه ؟ فأنت تذكر أنك كنت قد وعدتنى بترحيبك بالفكرة التى يتضح لك بعد البحث أنها أقرب الأفكار إلى الرأى العام وأبعدها عن مبادىء الشكاك . وقد اعترفت بأن هذه الفكرة ليست شيئاً آخر إلا إنكار وجود المادة أو الوجود المطلق للأشياء المحسوسة وليس هذا فحسب ؛ إذ إننا قمنا معاً بإثبات صحة الفكرة اللامادية فى أكثر من ناحية ، وبأكثر من طريقة وقمنا بتتبع نتائجها المختلفة ، وبإلقاء أضواء متنوعة عليها وبإسقاط جميع الاعتراضات التى وجهت إليها . فهل هناك شك بعد ذلك فى وضوح هذه الفكرة وصدقها ؟ أم أن ثمة احتمالا بأنه على الرغم من أن لها جميع علامات الفكرة الواضحة فإنها قد تكون مع ذلك زائفة ؟

هيلاس : اعترف بأننى مقتنع الآن تمام الإقتناع ومن جميع الوجوه بأفكارك

ولكن أي ضمان لي بأني سأظل مقتنعاً بها في المستقبل ويأتي لن أكتشف أي اعتراض عليها فيما بعد.

فيلونوس: ولكني اسألك ياهيلاس : إذا اتضحت أمامك مسألة ما واتضح البرهان عليها ، فهل تعلق موافقتك التامة عليها بحجة أنك تكتشف فيما بعد صعوبات أو اعتراضات عليها ؟ وهل الصعوبات التي تتوقعها في نظريات رياضية مثل فكرة الكميات اللامحدودة أو فكرة زاوية التقابل أو فكرة استحالة تقابل الخط المستقيم مع الخط الأول أو ماشابه ذلك من أفكار ؛ هل أمثال هذه الصعوبات تكفي لكيلا تعترف بالبرهنة الرياضية كلها ؛ وهل تفقد إيمانك بالعناية الإلهية لأن هناك بعض الحالات الخاصة تبدو لك غير متفقة معها ؟

إذا كانت هناك صعوبات في المذهب اللامادي ، فليس من شك في أن هناك براهين كثيرة على صدقه . أما فيما يتعلق بالاعتقاد بوجود المادة ، فليس هناك برهان واحد على صحته ولكن هناك فقط حججاً كثيرة ضده .

وبعد ، فأين هذه الصعوبات الكبيرة التي تتحدث عنها باعتبار أنها تنتظر اللامادية ؟ إنك لاتستطيع - مع الأسف - أن تعينها ولاتستطيع أن تحرر مواضعها ، ولكنك تتحدث عنها فقط باعتبار أنها صعوبات ممكنة في المستقبل . وإذا كان هذا شيئا كافيا في رأيك لتعليق موافقتك عليها ، فلن توافق أبداً على أية قضية مهما كانت ، أيا كانت درجة وضوحها وعدم خضوعها للشواذ ، وأيا كانت قوة البرهنة عليها ووضوحها .

هيلاس : لقد اقنعتني تماما يافيلونوس .

فيلونوس : ولكى أمدك بأسلحة ضد ما قد يخطر ببالك من اعتراضات مستقبلة تذكر جيداً أن النقد الذى يصح أن يوجه إلى فكرتين متعارضتين لا يمكن أن ينهض دليلا ضد إحداهما . وعلى ذلك فإذا عرضت لك فيما بعد صعوبة من الصعوبات ، فابدأ بمحاولة حلها عن طريق أفكار الماديين ولا تثق كثيراً بالألفاظ ، بل عليك أن تعتمد فقط على أفكارك وتزنها . وفى حالة عدم عثورك على حل لهذه الصعوبة عن طريق الأفكار المادية فمن الواضح أن هذا لن ينهض دليلا ضد المذهب اللامادى . ولو أنك اتبعت هذا المنهج من قبل ، لكان من الممكن أن يوفر عليك كثيراً من المتاعب التى صادفتها فى كثرة الاعتراضات التى وجهتها إلىّ . وأنا أتحداك إذا قدمت لى من بين اعتراضاتك السابقة إعتراضاً واحداً يقوم على أساس وجود المادة لجميع هذه الاعتراضات قد خلت من الوجاهة لا لأنها قامت على افتراض وجود المادة ، بل لأنها لم تكن تصلح كذلك كبرهان على عدم وجودها ، وبالتالى فلم تكن بالاعتراضات التى تدعم وجود المادة أو تنفيها . وكان عليك أن تكتشف فى كل من هذه الاعتراضات إذا كان افتراض عدم وجود المادة هو الذى أدى حقاً إلى قيام الاعتراض أو الصعوبة أم لا فإذا اتضح لك أن افتراض عدم وجود المادة لم يكن الأساس فى وجود الصعوبة أو قيام الاعتراض ، لم يكن من العدل أن تجعل منه اعتراضاً موجهاً إلى اللامادية . والأمر هنا شبيه بجواز معارضتك للعلم الإلهى ، استناداً على قابلية المادة أو الامتداد للقسمة إلى مالا يتناهى من الأجزاء . فلا يصح أن تنهض قابلية المادة للقسمة اللامتناهية حجة على عجز الله عن العلم بأجزاء المادة .

وعلى الرغم من ذلك ، فأعتقد أنك عندما تخلو إلى نفسك ستكتشف

أنّ جميع اعتراضاتك كانت تستند غالباً - إن لم أقل دائماً - إلى هذا المنطق المقلوب أو المعكوس . وفضلا عن ذلك ، كان عليك أن تتجنب كثرة المصادرات على المطلوب petitio principi فبوسعى أن أقول إن الجواهر المادية المجهولة هى التى تمثل حقيقة الأشياء الواقعية أكثر من الصور التى فى عقولنا . وبوسعى كذلك أن أرجع جميع الصور إلى هذا الجوهر المادى الخارجى وأقول عنه إنه العلة أو الأداة التى تؤدى إلى تصور الصور . ولكن ألا يستند هذا القول أولا إلى أن افتراض وجود جواهر خارجية افتراض صحيح ؟ فالاعتقاد بصحة هذا الافتراض هو بداية البداية . وبالإضافة إلى هذا كله أو فوق هذا كله ، عليك أن تتجنب الوقوع فى المغالطة المعروفة بالبرهنة على ما ليس بمطلوب ignoratio elenchi فكثيراً ما كنت تتحدث إلىّ كما لو أنى أذهب إلى عدم وجود الأشياء المحسوسة ، مع أنه ليس هناك شخص يثق فى وجودها أكثر منى . وإنما أنت الذى شككت فى وجودها ، لا ، بل أنكرت هذا الوجود . فكل ما يرى ويحس ويسمع أو يدرك على نحو ما بالحواس له وجود واقعى عندى ، أما أنت فتنكر ذلك . ألا تذكر أن المادة التى تدعى بوجودها ليست إلا شيئاً [إذا كان من الجائز أن نسميها « شيئاً »] مجهولاً منا ، مجرداً عن كل الصفات المحسوسة ، لا يمكن إدراكه بالحس أو فهمه حتى بالعقل ؟ ثم تذكر أن الأشياء التى أقول عنها إنها صلبة أو رخوة ، حارة أو باردة ، زرقاء أو بيضاء ، مستديرة أو مربعة ، الخ أشياء واقعية ، بمعنى أننى أعتقد أن هناك أشياء متصفة فعلا بهذه الصفات . ومع ذلك ، فأنا أنكر أن هـــذه الأشياء المتصفة بهذه الصفات لها وجود منفصل عن وجودها المدرك ومستقل عن جميع

المقول . تأمل فى هذا كله جيداً ولاتنسى شيئاً منه ، وإلا فلن توفق فى فهم مدار الحديث ، وستكتشف فى المستقبل اعتراضات بعيدة عن الغرض ، وسأستغلها أنا فى مهاجمة أفكارك نفسها (كما حدث ذلك من قبل مراراً) ، بدلا من أن تستغلها أنت فى مهاجمتى .

هيلاس : من الحق علىّ أن اعترف لك الآن يافيلونوس أن فهمى الخاطىء للمسألة هو الذى منعنى منذ البداية عن موافقتك . فقد خيل إلىّ أول الأمر أنك تعنى بإنكار المادة إنكار الأشياء التى نحسها ونلمسها . ولكن اتضح لى بعد البحث أن هذا الاعتقاد لم يكن قائما على أى أساس ولكن ماراأيك إذن فى أن نحتفظ بكلمة المادة بشرط أن لانفهم منها إلا ماتقصده أنت بالأشياء المحسوس بها ؟

فهذا التعبير اللفظى لن يؤدى إلى أى تغيير فى مبادئك وصدقنى حين أقول لك ان هذه طريقة طيبة سترضى كثيراً من الناس ممن يثيرهم التجديد فى اللفظ اكثر من التجديد فى الفكرة .

فيلونوس: أوافق على ذلك بكل قلبى فاحتفظ بكلمة المادة واستخدمها للدلالة على مجرد الأشياء المحسوسة كما تريد بشرط ألا تضيف إليها أى وجود متميز عن وجودها المدرك ، فلا مشاحة عندى فى الألفاظ فالمادة أو الجوهر المادى تعبيرات من صنع الفلاسفة وهى تدل عندهم على وجود مستقل للمادة عن العقل متميز عن وجودها المدرك ولكن هذه التعبيرات الفلسفية لايلجأ إليها الناس أبداً فى حديثهم العادى وإذا فرضنا جدلا أنهم لجأوا إليها فإنهم يقصدون بها مجرد موضوعات مباشرة للحواس وقد يظن قارئى أنه لامناص من استخدام كلمة المادة فى الحديث العادى مادمنا نحتفظ بجميع الأسماء التى نطلقها على الأشياء

ومادمنا نستخدم فى حديثنا العادى كلمة محسوس ، جوهر، جسم ، أو شىء مادى Stuff وماشا كل ذلك من الأسماء. ومن الجائز أن يكون هذا الظن صحيحاً، أما فى مناقشاتنا الفلسفية فلعل خير ما نفعله هو أن نتفادى إستخدام هذه الكلمات، لأننا عند استعراضنا للدوافع التى دفعت كثيراً من الناس إلى اعتناق الالحاد وشجعتهم على هذا لا نجد سبباً لذلك أكثر وضوحا من الحرص على استخدام هذه الألفاظ ذات المعانى المختلفة الواضحة .

هيلاس : حسناً إذن يافيلونوس . مادمت قد وافقتك على التخلى عن فكرة وجود جوهر مادى خارج العقل ، فاعتقد أنك لن تنكر على استخدام لفظة « المادة » كما أريد ، بشرط أن أعنى بها مجموعة الصفات الحسية القائمة فى العقل فاعترف لك عن طيب خاطر أنه لاوجود لجوهر ، بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، إلا الجوهر الروحى . ولكنى كنت قد اعتدت استخدام كلمة « المادة » بحيث لا اتصور إمكان التخلى عنها . ومازلت أشعر بغرابة فى قولى إنه لاوجود للمادة فى هذا الكون. حقاً إنه لاوجود للمادة إذا كنا نفهم منها أنها جوهر مادى قائم خارج العقل . ولكن المادى موجودة إذا فهمنا منها مجرد أشياء محسوسة، وجودها قائم فى مجرد إدراكها . فهذه التفرقة بين هذين المعنيين للمادة، تعطينا الحق فى الإحتفاظ بهذه الكلمة وسيكون فى احتفاظنا بها أكبر حافز للناس على تقبل افكارك وإن كان هذا التقبل لن يكون يسيراً ؛ لأنك لن تعدم أن تجد بين الفلاسفة من سيظل يناقشك حول وجود المادة بالمعنى الفلسفى لهذه الكلمة ، مع إنى أعترف لك ، من ناحيتى ، أن أقوالك تمتاز عن أقوال الفلاسفة بقربها من واقع الأشياء وبتمشيها

مع الرأى العام ومع أقوال الكتاب المقدس . والحق إن جميع الأمور التى تقبل عليها أو تنفر منها فى الحياة هى تلك الأمور التى تتصل بسعادتنا أو بشقائنا . وليس ثمة علاقة بين « الوجود المطلق » للأشياء أو الماهيات المجهولة التى لاصلة لها بنا ، وبين سرورنا أو شقائنا ، إنشراحنا أو حزننا ، سرورنا أو ألمنا . وعلى العكس من ذلك ، فإن من الواضح أن الأشياء التى تثير فرحنا أوسخطنا هى تلك الأشياء القابلة لأن تدرك بواسطتنا ، أما ما عدا ذلك فلا يعنينا فى شىء . فمذهبك إذن له هذه الميزة الكبرى ، وهى أنه قد جعلنا ننظر إلى الأشياء كما تبدو لنا فى الحياة . ومن الواضح أنه لا يعنينى فى حكمى هذا على مذهبك إذا الحكم متفقا مع أقوال الفلاسفة أو حتى مع أقوال رجل الشارع ولكنى أريد أن أعرف فقط موقفى على ضوء هذا الحكم ، وعلى وجه التحديد ، أريد أن أعرف ماهى العناصر الجديدة التى دخلت فى تفكيرى بعد اعتناقى مذهبك ، وبمعنى آخر ، أريد أن أعرف ماهيه التغيير الذى طرأ على تفكيرى .

فيلونوس: إننى لم أدع فى يوم من الأيام أننى صاحب افكار جديدة لأن كل مهمتى كانت مقصورة فقط فى توحيد وتوضيح الحقيقة التى كانت شائعة بين رجل الشارع من ناحية والفلاسفة من ناحية أخرى إذ أن الحقيقة التى كان يؤمن بها رجل الشارع تقول إن الأشياء المدركة بالحس مباشرة هى الأشياء الواقعية أما الفلاسفة فكانت عقيدتهم تتلخص فى أن الأشياء المدركة إدراكا مباشراً عن طريق

الحس ليست إلا صوراً تقدم فقط فى العقل وقد قمت بضم الرأى الأول على الرأى الثانى فكانت النتيجة هى ما سقته لك من أفكار .

هيلاس : لقد درجت منذ زمن بعيد على عدم الثقة بالحواس وذلك لأننى كنت أرى الأشياء تحت ضوء خافت ومن خلال غوينات زائفة أما الآن فقد ألقيت بالعوينات جانباً وأشعر بأن ضوءاً جديداً ينبعث من عقلى فينير لى الطريق فأنا مقتنع الآن إقتناعاً لاتشوبه شائبة بأن الأشياء التى أراها هى هى الأشياء الحقيقة ولم أعد أرهق نفسى بعد ذلك فى البحث عن طبائع خفيـة أو وجود مطاق لها . هذا هو موقفى الآن على الرغم من انى لا أفهم تماماً كيف وصلت إلى هذا الموقف ولكن الأمر الذى لاشك فيه أن هذا لم يكن إلا بفضل مبادئك تلك المبادى التى بدت لى أول الأول أنها لا تخرج فى كثير أو قليل عن مبادىء رجال الاكاديمية أو الأفكار الديكارتية وماشابه ذلك من المذاهب الفلسفية .

ومن أجل ذلك كنت انظر إليها أول الأمر على أنها شبيهة بهذه الآراء الشكية الفلسفية أما الآن فيبدو لى بوضوح ان النتائج التى وصّلت إليها تتعارض تماما مع هذه الفلسفات .

فيلونوس: ألا ترى ياهيلاس إلى الماء المتدفق من تلك النافورة هناك كيف ينبعث منها فيما يشبه العامود المستدير ثم يصعد إلى ارتفاع معين يسقط بعده إلى أرض حوض النافورة ؟ إن إرتفاعه إلى أعلى وعودته إلى أسفل ، من وإلى نفس النافورة يؤكد لنا خضوع هذه

النافورة لقانون واحد هو قانون الجاذبية . والأمر لايختلف عن هذا التشبيه فيما يتعلق بالمبادىء التى قادت الناس إلى اعتناق مذهب الشك. فهذه المبادىء التى قادتهم أول الأمر إلى اعتناق الشك والمضى فيه هى هى نفس المبادىء الكفيلة بأن ترجعهم مرة أخرى إلى الإيمان والأخذ بآراء رجل الشارع .

انتهت المحاورات

التصميم الاساسى للغلاف: أسامة العبد

الإشراف الفنى: حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة